د. حنان قرقوتي شعبان

حياة المسيح

عيسى ابن مريم عليهما السلام

من منظور إسلامي

دراسة مقارنة

وبآخر الكتاب ملحق خاص بعلامات الساعة

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى

٢٠٠٤م - ١٤٢٥هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-4429-4

9 782745 144294 90000>

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [المائدة: ١٩].

وقال جلّ شأنه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ﴾ [الأنبياء: ١٨].

الإهداء

إلى من يرجو الهداية... باحثاً عن الحق والحقيقة... أهدي هذه الدراسة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾ [الكهف: ١، ٢].

وبعد، فقد قال تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فعدم التفريق بين الرسل ركن من أركان العقيدة الإسلامية. لذا، فكل مسلم قد درج على حب الرسل والأنبياء جميعاً، وسمع طرفاً من قصصهم وأخبارهم. ومن بينهم المسيح عليه السلام.

مما دفعني لكتابة هذه الدراسة التي اعتمدت فيها على كتاب الله بادىء ذي بدء، في المواضع التي اهتمت بسيرة المسيح عليه السلام، حتى وصلت إلى قضية الصلب التي يقرها النصارى، وينكرها القرآن؛ مما دفعني للاطلاع على الأناجيل المعتمدة لدى النصارى.

واختلاف الرواية بين الأناجيل، دعاني إلى دراستها، ومقارنة بعضها ببعض، ومقابلتها مع نصوص القرآن الكريم.

لذا، فإن ما أخذته عن النصارى في هذه الدراسة، من الأناجيل أو الكتب الأخرى، كان محصلة المعلومات العامة بغرض الاستشهاد.

وحسبي من هذه الدراسة، إلقاء بعض الأضواء على ملامح من سيرته عليه السلام، بين ما ورد في القرآن، وبعض ما ورد في الأناجيل، لتوضيح بعض الحقائق التي ورد فيها الغموض لدى البعض. راجية من الله تبارك وتعالى التوفيق والسداد.

د. حنان قرقوتي شعبان

الفصل الأول

حول ولادة المسيح

حول ولادة المسيح

وردت قصة المسيح عليه السلام في القرآن الكريم في عدة مواضع. ولكن الحديث عنه لا يمكن أن يكون مفهوماً ومتكاملاً... إلا من خلال الإلمام بقصة أمه مريم عليها السلام لما لها من التداخل في سياق القصة.

قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣].

والقصص في القرآن الكريم يرد لتقرير حقائق معينة بهدف إيضاحها. وغالباً ما تكون هذه الحقائق هي موضوع السورة التي يرد فيها القصص؛ فيساق القصص بالقدر وبالأسلوب الذي يركز هذه الحقائق ويبرزها ويحييها.. وما من شك أن للقصص طريقته الخاصة في عرض الحقائق، وإدخالها إلى القلوب، في صورة حية، عميقة الإيقاع بتمثيل هذه الحقائق في صورتها الواقعية وهي تجري في الحياة البشرية. وهذا أوقع في النفس من مجرد عرض الحقائق عرضاً تجريدياً[١].

ومن هنا كانت حياة المسيح عليه السلام مرتبطة بحياة أمه الصديقة مريم[٢] ابنة عمران من حيث مولدها ونشأتها لما في ذلك من الأهمية لميلاد المسيح المعجز، وتلك البيئة التي ربيت فيها الصدِّيقة وكان في صدارتها زكريا عليه السلام الذي كفلها ورأى ما أكرمها الله به من الخير الذي دفعه إلى دعاء الله عزّ وجل أن يرزقه الذرية الصالحة رغم كبر سنه.

مريم ابنة عمران:

وردت قصة مريم عليها السلام في القرآن الكريم في سورة آل عمران، بقوله تعالى:

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، م١، ص٣٨٩ و٣٩٠، ط١٠، دار الشروق ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

(٢) توجد في القرآن سورة مريم وهي السورة الوحيدة بين سور القرآن الكريم التي تحمل اسم امرأة وهي الصدِّيقة مريم ابنة عمران عليها السلام.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ(١) رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٣٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٧ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٣٩ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۝٤٠ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ۝٤١ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٢ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٤٤﴾ [آل عمران: ٣٥ ـ ٤٤].

تزوج عمران امرأة تقية ورعة محبة لربها، ولما بلغت من العمر عتياً ولم تنجب سلّمت أمرها للّه. ولكن الله تبارك وتعالى هو الرزاق وهو مهيىء الأسباب فألهمها أن تدعوه ذات يوم بعد أن تحركت بداخلها عاطفة الأمومة واستجاب دعاءها.

وفي هذا الصدد أخرج ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما أن: «حنّة امرأة عمران» كانت حبست عن الولد والمحيض(٢)، فبينما هي ذات يوم في ظل شجرة، إذ نظرت إلى طير يزق فرخاً له فتحركت نفسها للولد، فدعت الله تعالى أن

(١) ورد ذكر عمران في القرآن الكريم في سورة آل عمران، الآيتان ٣٣ و٣٤ بقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٣ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٣٤﴾ والاصطفاء هنا هو اصطفاء آدم بشخصه ونوح بشخصه عليه السلام. أما إبراهيم وعمران فقد كان الاصطفاء لهما ولذريتهما، على أساس البركة ووراثة العقيدة، وليس على أساس وراثة الدم، وذلك لقوله تعالى في سورة البقرة الآية ١٢٤: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٢٤﴾ انظر سيد قطب، في ظلال القرآن، م١، ص٣٩١.

(٢) ورد في القرآن الكريم حمل آخر من هذا النوع هو حمل سارة زوجة إبراهيم عليه السلام بابنها إسحاق عليه السلام. وهو قوله تعالى في سورة هود، الآيتان ٧١ و٧٢: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝٧١ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢﴾.

يهب لها ذكراً، فحاضت من ساعتها فلما طهرت أتاها زوجها، فلما أيقنت بالولد قالت: لئن نجّاني الله تعالى ووضعت ما في بطني لأجعلنهُ محرراً[(١)] ولم يكن يُحرَّر في ذلك الزمان إلا الغلمان، فقال لها زوجها: أرأيتِ إن كان ما في بطنك أنثى والأنثى عورة فكيف تصنعين؟ فاغتمّت لذلك، وقالت عند ذاك: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾ [آل عمران: ٣٥][(٢)].

وقصة النذر تكشف عن قلب «امرأة عمران»، وما يعمره من الإيمان، ومن توجه إلى ربها بأعز ما تملك. «وهو الجنين الذي تحمله في بطنها. خالصاً لربها، محرَّراً من كل قيد ومن كل شرك ومن كل حق لأحد غير الله سبحانه. والتعبير عن الخلوص المطلق بأنه تحرر تعبير موح. فما يتحرر حقاً إلا من يَخلص لله كله، ويفرُّ إلى الله بجملته وينجو من العبودية لكل أحد ولكل تسمية ولكل قيمة، فلا تكون عبوديته إلا لله وحده.. فهذا هو التحرر إذن»[(٣)].

ولعل دعاءها بنذر ما في بطنها محرَّراً كان بقصد الدعاء غير المباشر بطلب الذكر على عادة كون محرري بني إسرائيل يومها من الذكور.

تسمية مريم:

وضعت امرأة عمران حملها فإذا بالمولود أنثى. وهي التي نذرت ما في بطنها محرَّراً لبيت المقدس. فتعجبت من أمرها ونادت ربها قائلة: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦]، ومعنى تلك المناداة أن الذكر الذي طلبته أثناء الحمل ليس كالأنثى التي وهبت لها. وأرادت امرأة عمران أن تتقرب إلى الله وتعصم ابنتها من أي سوء فسمتها «مريم»، واسم «مري» في لغة بني إسرائيل يعني «العابدة»[(٤)].

---

(١) محرراً: مأخوذ من الحرية التي هي ضد العبودية، وقيل: إن المحرر الخالص لله عزّ وجل وهو المقصود هنا. ويقال لكل ما خلص: حر، ومحرر بمعناه. القرطبي، مختصر تفسير القرطبي، ج١، ص٣٠٣، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

(٢) د. محمد وصفي، المسيح بين الحقائق والأوهام، مراجعة وتقديم علي الجوهري، دار الفضيلة، القاهرة، ل.ت. وانظر ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٥٧. وانظر القرطبي، مختصر تفسير القرطبي، اختصار محمد كريم راجح، ج١، ص٣٠٢.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، م١، ص٣٩٢.

(٤) الزمخشري (٤٦٧هـ ـ ٥٣٨هـ)، الكشاف، ص٤٢٧، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، طبعة أخيرة، ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م. وانظر القرطبي، مختصر تفسير القرطبي، اختصار محمد كريم راجح، ج١، ص٣٠٣.

ومن اللافت للنظر والمثبت للإيمان أن استعاذتها بالله من الشيطان الرجيم لحماية مريم وذريتها هو نفس ما ورد في توجيهات الرسول ﷺ للمسلمين، الأمر الذي يزيدنا إيماناً بأن الدين عند الله الإسلام وقد حرّفه البشر. فقد ورد في السنّة الشريفة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها»[١]، أي أن كل مولود يطمع الشيطان في إغوائه إلا مريم وابنها عليهما السلام لأنهما كانا معصومين، وكذلك كل من كان في صفتهما[٢]، كقوله تعالى عن إغواء إبليس للناس جميعاً ما عدا عباد الله المخلصين: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠].

كفالة زكريا لمريم:

تقبّل رب العزة النذيرة بقبول حسن وأبعد عنها كيد إبليس وجنده ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ لأنها كانت يتيمة[٣] الأب.

وروى ابن كثير في تفسيره أن امرأة عمران «حنة بنت فاقوذ» أم مريم عليها السلام حين ولدت مريم لفّتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند أحبار بني إسرائيل من أبناء هارون[٤]، وقالت لهم: «دونكم هذه النذيرة. فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم، وصاحب قربانهم، وكان بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وأحبارهم وملوكهم، فقال لهم زكريا: أنا أحق بها، عندي خالتها[٥]، فقالوا: لا، حتى نقترع عليها،

---

(١) ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل ت٧٧٤هـ) تفسير القرآن العظيم، م١، ص٣١٥، ط١، مكتبة المنار، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م. وانظر القرطبي، مختصر تفسير القرطبي، ج١، ص٣٠٣.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٤٢٧.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، م١، ص٣١٦.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، م١، ص٣١٥.

(٥) كانت قرابة زكريا لمريم على قولين: الأول: أنه زوج خالتها كما ذكر ابن إسحاق وابن جرير. الثاني: أنه زوج أختها كما ورد في الصحيح «فإذا بيحيى وعيسى وهما ابنا خالة» عليهما السلام. والأرجح أنه زوج خالتها لأن الخالة تكون بمنزلة الأم كما ذكر الرسول محمد ﷺ عندما قضى في «عمارة بنت حمزة» أن تكون في حضانة خالتها امرأة جعفر بن أبي طالب، وقال: «الخالة بمنزلة الأم». انظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، م١، ص٣١٥ وما بعدها. وانظر القرطبي، مختصر تفسير القرطبي، ج١، ص٣٠٩.

فانطلقوا وكانوا سبعة وعشرين إلى نهر فألقوا فيه أقلامهم[١] فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورست أقلامهم فتكفلها»[٢].

وفي رواية أخرى حول إجراء القرعة لكفالة مريم أن كل واحد من المقترعين ألقى قلمه ووضعوا الأقلام في موضع وأمروا غلاماً لم يبلغ الحلم فأخرج واحداً منها وظهر قلم زكريا عليه السلام فطلبوا أن يقترعوا مرة ثانية وأن يكون ذلك بأن يلقوا أقلامهم في النهر فأيهم جرى قلمه على خلاف جريه في الماء يكون الغالب. ففعلوا فكان قلم زكريا هو الذي جرى على خلاف جرية الماء وسارت أقلامهم مع الماء ثم طلبوا منه أن يقترعوا ثالثة فأيهم جرى قلمه مع الماء عكس بقيّة الأقلام فهو الغالب ففعلوا فكان زكريا هو الغالب لهم فكفلها إذ كان أحق بها شرعاً وقدراً[٣].

وهذا تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٤].

وكفل زكريا مريم عليها السلام وبنى لها محراباً في المسجد: أي غرفة يصعد إليها بسلّم، وقيل: المحراب أشرف المجالس ومقدمها كأنها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس. وقيل: كانت مساجدهم تسمى المحاريب. وروي أنه كان لا يدخل عليها إلا هو وحده وكان إذا خرج غلق عليها سبعة أبواب»[٤]، وكان زكريا عليه السلام يدخل عليها بين الحين والآخر ليطمئن عليها ويؤمّن لها حاجتها وكان ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٧].

ونشأت مريم عليها السلام برعاية الله نشأة صالحة متفرغة للعبادة متقربة إلى الله بالطاعات فأكرمها المولى سبحانه وتعالى بأن رزقها رزقاً من عنده، فكان زكريا عليه السلام كلما أتى لزيارتها وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، فيسألها متعجباً غاية العجب ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ فتجيب بتواضع العبد الصالح ولتزيل إعجابه قائلة: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

---

(١) يلقون أقلامهم: الأقلام جمع قلم، وهي الأقلام التي كانت تدوّن بها التوراة. القرطبي، مختصر تفسير القرطبي، ج١، ص٣٠٩.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٤٢٦ و٤٢٧.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٥٨، ط٢، مكتبة المعارف، بيروت، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

(٤) الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٤٢٧.

مريم العابدة خير نساء زمانها:

مريم عليها السلام ذات الكرامة وخير نساء الأرض أجمعين في زمانها بطهرها وصفاتها وتقربها إلى الله بالعبادة خصّها القرآن الكريم بالذكر في عدة مواضع في قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ[1] مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

كذلك قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [٤٢، ٤٣].

فماذا كانت تفعل مريم خير النساء حتى نالت هذا الشرف وهذه المرتبة؟

ورد أنها كانت تقوم بالصلاة حتى تفطرت قدماها عليها السلام. وكانت الملائكة تخاطبها ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ أي اختارك واجتباك ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ من الأخلاق الرذيلة وأعطاك الصفات الحميدة[2].

وقد ورد اصطفاء مريم عليها السلام في السنّة الشريفة في أكثر من موضع، منها ما رواه علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائها ـ أي نساء الأرض ـ مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد»[3].

كما ورد عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون»[4].

---

(١) يعني أمر الله تبارك وتعالى جبريل عليه السلام أن ينفخ في درع مريم. انظر القرطبي، مختصر تفسير القرطبي، ج٣، ص٢٧٥.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٥٩ ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يحتمل أن يكون نساء زمانها. والله تعالى أعلم.

(٣) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة باب ٥٨ فضائل خديجة بنت خويلد.

(٤) البغوي الحسين بن مسعود الشافعي، مصابيح السنة بإشراف إبراهيم محمد رمضان، م٣، حديث ٢٧٥٣، ص٥٢٩، دار القلم، بيروت، ل.ت. وانظر محمد كنعان، فتح القدير تهذيب ابن كثير، ج١، ص٤٧٧.

وقد ذكر ابن كثير في كتابه «البداية والنهاية» أنها عليها السلام كانت تبقى في المسجد زمن طهرها وكانت تخرج منه زمن حيضها أو لحاجة ضرورية لاستقاء ماء مثلاً أو تحصيل غذاء(١).

زكريا في المحراب:

كان زكريا عليه السلام يزور مريم في ذلك المكان الطاهر، في محرابها؛ ولما كان يرى من رزق الله لها بغير حساب، علم حال كرامتها على الله ومنزلتها منه. فتمنى أن يكون مجاب الدعوة وأن يكون له ولد صالح مثلها فرغب أن يكون له من زوجه «إيشاع» ولد مثل ولد أختها «حنة» في النجابة والكرامة على الله، وإن كانت عاقراً عجوزاً كأختها. وقيل: لما رأى زكريا عليه السلام الفاكهة في غير أوانها انتبه إلى جواز ولادة امرأته العاقر(٢). فإن القادر على بسط الفاكهة في غير أوانها قادر على وهب الولد لعجوز عقيم بلغت من العمر عتياً.

في ذلك المكان الطاهر ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَـٰٓئِكَةُ(٣) وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا(٤) بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا(٥) وَحَصُورًا(٦) وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّـٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِىِّ وَالْإِبْكَـٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: ٣٨ ـ ٤١].

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٦٤.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٤٢٨.

(٣) توجه زكريا عليه السلام بالصلاة وبالدعاء إلى رب العالمين فنادته الملائكة، وقيل: ناداه جبريل عليه السلام، وإنما قيل الملائكة على قولهم فلان يركب الخيل. الزمخشري، المرجع السابق، ج١، ص٤٢٨.

(٤) مصدقاً بكلمة من الله: يعني مؤمناً ومبشراً بعيسى عليه السلام. القرطبي، مختصر تفسير القرطبي، ج١، ص٣٠٦.

(٥) سيداً: سيداً في العلم والعبادة وهو الذي يسود قومه أي يفوقهم شرفاً.

(٦) حصوراً: أي لم يأت بذنب لقوله ﷺ: «ما من عبد يلقى الله إلا ذا ذنب إلا يحيى بن زكريا، فإن الله يقول: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ وقيل أيضاً: إن الحصور الذي لم يأتِ النساء. والله تعالى أعلم. انظر الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٤٢٨.

وقيل: سمي يحيى لأن الله سبحانه وتعالى أحياه بالإيمان[(١)] ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بماذا يصدق؟ بكلمة من الله. وكلمة الله هو عيسى ابن مريم عليه السلام كلمة الله التي ألقاها إلى مريم[(٢)] ليكون مسانداً لعيسى عليه السلام. فهذه البشارة لزكريا عليه السلام في المحراب بشارتان:

الأولى: أن الله تبارك وتعالى سيهب له غلاماً يكون سيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين.

والبشارة بالنبوة بشارة بدرجة من أعلى الدرجات لا تُمنح إلا لمن اصطفاهم الله سبحانه وتعالى.

الثانية: مساندته وتصديقه لكلمة الله عيسى ابن مريم عليه السلام وذلك قبل أن تحمل مريم بابنها.

والآية الكريمة تشير إلى المكان الذي نادى فيه زكريا عليه السلام ربه حيث كان لا يزال في زيارة مريم عليها السلام في محرابها ويرى أمامه كرامة الله لها في وهبها الرزق في غير أوانه[(٣)] إذ إن الله تبارك وتعالى أخذ ميثاق كل نبي بعثه من أول البشرية أنه مهما أتاه الله لهذا النبي من كتاب وحكمة، ثم جاء رسول من بعده ليؤمننّ به ولينصرنّه وعليه تأييده ونصرته. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

بعد هذه البشارة لزكريا عليه السلام وهو في المحراب بجوار مريم عليها السلام، استدرك وضعه متعجباً من أمر الله قائلاً: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ﴾ أي أثّر فيَّ الكبر فأضعفني وامرأتي لا تلد، وكانت له تسع وتسعون سنة ولامرأته ثمان وتسعون[(٤)] ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ أي أن الله يفعل ما يريد من الأعاجيب وأن ذلك على الله يسير. حينئذ طلب زكريا من ربه آية: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: ٤١].

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، م١، ص٣١٧.

(٢) سمي عيسى عليه السلام كلمة لأنه لا يكون ولا يوجد إلا بكلمة الله وحدها وهي قوله: ﴿كُن﴾ من غير سبب آخر. انظر الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٤٢٨.

(٣) الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٤٢٨.

(٤) الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٤٢٩.

وذكر الزمخشري أن الآية دليل لزكريا بأنه لا يقدر على تكليم الناس ثلاثة أيام وإنما خصّ تكليم الناس ليعلّمه أنه يحبس لسانه عن القدرة على تكليمهم خاصة مع إبقاء قدرته على التكلم بذكر الله ولذلك قال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١] يعني في أيام عجزك عن تكليم الناس وهي من الآيات الباهرة المعجزة ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ إلا إشارة بيد أو رأس أو نحو ذلك.

العشي: من حين نزول الشمس إلى أن تغيب، والإبكار: من طلوع الفجر إلى وقت الضحى(١).

فهذا الموقف العظيم من مناداة زكريا ربه وطلب الولد منه في محراب مريم عليها السلام ورد في القرآن ثانية في سورة مريم منفرداً، وذلك بقوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى(٢) وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم: ٢ ـ ١٥](٣).

نهاية زكريا:

ذكر ابن جرير في تاريخه عن نهاية زكريا عليه السلام الرجل الجليل الذي كفل مريم

---

(١) الزمخشري المرجع السابق، ج١، ص٤٢٩. وانظر سيد قطب، في ظلال القرآن، م٤، ص٢٣٠٣، ط١٠، دار الشروق، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

(٢) قيل المراد بالموالي: العصبة وكأنه خاف من تصرفهم بعده في بني إسرائيل بما لا يوافق شرع الله وطاعته، فسأل وجود ولد من صلبه يكون براً تقياً مرضياً، ولهذا قال: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ﴾ أي: من عندك بحولك وقوتك يا أرحم الراحمين. انظر ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٤٨.

(٣) هذا وقد ورد ذكر زكريا عليه السلام أيضاً في القرآن الكريم في سورة الأنعام الآية ٨٥، والأنبياء الآية ٨٩.

واختصم مع أحبار بني إسرائيل واقترع معهم وكان هو غالبهم، والذي أكرمه الله في محراب مريم أن بني إسرائيل حينما رأوا مريم عليها السلام تحمل طفلاً اتهموا بها زكريا عليه السلام - قاتلهم الله - إذ إنه الوحيد الذي كان يدخل عليها المحراب، ولما أرادوا قتله فرّ منهم فلحقوه وقد انشقت له شجرة فدخلها وأمسك إبليس بطرف ردائه فنشروه بالمنشار(١).

الحمل بالمسيح وولادته وكلامه في المهد في القرآن:

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ [مريم: ١٦ - ٣٥].

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ أي: اعتزلت مريم عليها السلام أهلها في مكان شرقي مسجد بيت المقدس، و﴿انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ أي: اعتزلتهم وتنحّت عنهم لتتفرغ لعبادة ربّها، ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أي توارت عنهم ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ أرسل الله إليها جبريل عليه السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ فجاءها على صورة إنسان لأن الملائكة تتشكل بشكل إنسان فخافت منه وظنّت أنه

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٦٨.

يريدها بسوء و﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ فما كان من جبريل عليه السلام إلا أن هدّأ روعها وطمأنها أنه رسول الله إليها ليرزقها غلاماً زكياً طاهراً من الذنوب ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ فتعجبت مريم عليها السلام بعد أن هدأ روعها واستكانت وقالت متعجبة ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ فكيف يكون هذا الأمر ولم أتزوج ولم أكن من أهل البغاء. فما كان جواب جبريل عليه السلام إلا أن ذكّرها بقدرة ربها أن ذلك الأمر هو هيّن على الله ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ أما في حين هو آية للناس فذلك دلالة على قدرة البارىء جلّ وعلا على خلق ما هو غير مألوف للبشر[١].

وذكر علماء السلف من المفسرين أن جبريل عليه السلام نفخ في جيب درع مريم عليها السلام وكمها فحملت بابنها[٢].

مدة الحمل:

اختلف المفسرون في مدة الحمل: فذهب الجمهور إلى أنها حملت تسعة أشهر، ومنهم من قال: ثمانية أشهر، ومنهم من قال: إن الحمل لم يكن إلا أن حملت فوضعت. والله أعلم.

غير أنه ذكر عن أكثر من واحد من السلف منهم وهب بن منبه: «أنها لما ظهرت عليها مخايل الحمل كان أول من فطن لذلك رجل من عباد بني إسرائيل يقال له يوسف بن يعقوب النجار وكان ابن خالها فجعل يتعجب من ذلك عجباً شديداً وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها وهو مع ذلك يراها حبلى وليس لها زوج فعرض لها ذات يوم في الكلام فقال: يا مريم هل يكون زرع من غير بذر؟ فقالت: نعم، فمن خلق الزرع الأول؟ ثم قال: فهل يكون شجر من غير ماء ولا مطر؟ قالت: نعم، فمن خلق الشجر الأول؟ ثم قال: فهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت: نعم، إن الله بشرني ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦]. ويروى مثل هذا عن زكريا عليه السلام أنه سألها فأجابته بمثل هذا والله أعلم»[٣].

(١) كما خلق آدم عليه السلام من دون أب وأم، وخلق حواء عليها السلام من دون أم.

(٢) ابن كثير، فتح القدير تهذيب ابن كثير، تحقيق محمد كنعان، ج٤، ص٦٦.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٦٥ ـ ٦٦.

كذلك يروى أن مريم عليها السلام دخلت يوماً على أم يحيى فقالت لها: شعرت أني حبلى. فقالت مريم: وشعرت أيضاً أني حبلى.

فاعتنقتها وقالت لها أم يحيى: إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك وذلك قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩] ومعنى السجود هنا الخضوع والتعظيم كالسجود عند المواجهة للسلام كما كانت العادة قبل الإسلام وكما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم[(١)].

الولادة والكلام بالمهد:

بعد أن أنهت مريم عليها السلام مدة الحمل وكانت قد اتخذت لنفسها ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ بعيداً عن قومها لتتستر عنهم فلا يرونها ولا تراهم، جاءها المخاض، قال تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٣]. ﴿فَأَجَآءَهَا﴾: بمعنى اضطرها، وهو تعدية جاء بالهمز، يقال: جاء به، وأجاءه إلى موضع كذا، كما يقال: ذهب به وأذهبه. ﴿ٱلْمَخَاضُ﴾: هو الطلق وشدة الولادة وأوجاعها. فمضت المرأة تمخض مخاضاً ﴿إِلَىٰ جِذْعِ﴾ الشجرة كأنها طلبت شيئاً تستند إليه وتتعلق به، كما تتعلق الحامل لشدة وجع الطلق. والجذع ساق النخلة اليابسة في الصحراء الذي لا سعف عليه ولا غصن، ولهذا لم يقل إلى النخلة[(٢)]. إذن شعرت بعوارض الولادة أمام جذع النخلة[(٣)] بجوار المكان الذي اختارته بعيداً عن قومها. وفي خضم ذلك تذكرت أمر قومها وتساءلت كيف بإمكانهم أن يصدقوها وهي الطاهرة العفيفة، حينئذ تمنّت الموت و﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣] أي: يا ليتني مت قبل أن أبتلى بهذا الأمر.

عند ذلك سمعت نداء ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾.

من الذي ناداها؟

اختلف المفسرون في ذلك، فقيل: هو جبريل عليه السلام كما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما حيث قال: إنه جبريل وإن عيسى عليه السلام لم يتكلم حتى أتت به قومها، وإنه ناداها من أسفل الوادي.

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٦٥.

(٢) القرطبي، مختصر تفسير القرطبي، ج٣، ص٢٠١.

(٣) من المحتمل أنها كانت نخلة ولكنها لم تكن مثمرة إذ ذاك، وليس الوقت وقت ثمر، وقد يفهم ذلك من قوله تعالى على سبيل الامتنان: ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾.

أما الرأي الثاني: فيذكر أن الذي ناداها هو ابنها عيسى عليه السلام، وأخذ الدليل من قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ وذلك عندما جاءت بولدها إلى قومها وكانت قد نذرت صوماً للرحمٰن. فلما سألوها من أين أتيت بهذا الغلام ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ لأنه كلّمها سابقاً من تحتها ولهذا سيتكلم ويدافع عنها وهو الذي بشّرتْها الملائكة به بقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦]، حينئذ ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ والله أعلم.

أما المنادي فقد ناداها قائلاً: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤]، والسري هو الجدول أو النهر لتشرب منه وذلك تطميناً لفؤادها كي تقر عينها. وقيل: السري هو عيسى عليه السلام. والله أعلم.

﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ أي: وهذّي إليك بجذع النخلة، قيل: كانت يابسة، وقيل: مثمرة، غير أنها لم تكن في أوان ثمرها[1]، وبهذا يكون الباري جلّ ثناؤه قد منَّ عليها بالطعام والشراب كي تقر عينها، علماً أن الرطب هو من أنفع الطعام للنفساء وهو ما أثبته العلم الحديث، وفي ذلك إعجاز للقرآن الكريم الذي سبق العلم الحديث بأربعة عشر قرناً ونيّف.

أما قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أي: مهما رأيت من أحد ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ والصيام هنا صيام عن الكلام وقد نذرته مريم عليها السلام لله تعالى. ثم حملت ابنها حتى وصلت إلى قومها ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ فلما رآها القوم أعظموا أمرها واستغربوه. فوجّهوا خطابهم إليها قائلين: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم: ٢٨]، ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ أي: من نسل هارون كقول العرب: يا أخا قريش، ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ أي: إن والدك بار وأمك من أهل التقى وليست من أهل البغاء والفجور فهذا البيت الطاهر الذي خرجت منه كيف يحصل في ذريته أن تأتي بطفل من دون زواج. وبينما قومها يوجهون اللوم إليها ويجادلونها في ابنها وكانت

(١) محمد أحمد كنعان، المرجع السابق، ج٤، ص٦٩، بتصرف.

لا تزال صائمة[١] ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ ـ إلى وليدها عيسى عليه السلام ـ ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ وعجب قومها من إشارتها إلى الطفل.

واستغربوا كيف يتكلم طفل في المهد؟ وإذا بهم يزدادون عجباً حين رأوه فعلاً ينطق ويتكلم. كيف لا وهو من روح الله وقد أنطقه الله ليبرىء أمه وليخبر القوم عن وضعه ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾. فأول ما نطق به قال إني عبد الله. فهذه الكلمة التي نطق بها تنفي عنه صفة الألوهية وتثبت عبوديته كباقي البشر. وقوله: ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ تبرئة لأمه مما نسب إليها من التهم المشينة وهي الطاهرة العفيفة. فهذا الابتلاء الذي رافقها من الحمل والولادة، وتمنيها الموت حين الوضع وخوفها من قومها ومن كلامهم، كل ذلك كانت عاقبته أن وجدت ثمرة صبرها حين ولدت رسولاً من أولي العزم ألا وهو عيسى عليه السلام الذي برّأها من كل تهمة كانت تُرْمَى بها.

غير أن الوليد عيسى عليه السلام لم يقف به الكلام هنا بل أضاف أمام قومه قوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ أي: جعلني معلماً للخير أينما وجدت، كما أوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً في هذه الحياة ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ أي: إن الله أمره بطاعة والدته بعد طاعة خالقه[٢] ولم يجعله جباراً مستكبراً عن طاعة الله وعبادته. وختم بقوله: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ وذلك إثبات منه صلوات ربي وسلامه

---

(١) هناك فرق بين صوم مريم وزكريا عليهما السلام. ذلك أن زكريا عليه السلام عندما نادى ربه وطلب آية، أجابه تعالى: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾. فكان الصيام عن الكلام آية من الله وخارجاً عن إرادة زكريا عليه السلام عندما يواجه قومه، ولم يكلمهم إلا رمزاً.
بينما مريم عليها السلام التي نذرت للرحمٰن صوماً، أي: صمتاً وكان من صومهم ترك الكلام والطعام حسب شريعتهم. قالت مريم عليها السلام: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.

(٢) كثيراً ما تحث آيات الله البينات على طاعة الوالدين حيث أمر الله سبحانه وتعالى بالإحسان إلى الوالدين بعد طاعته، بعد أن قرن سبحانه وتعالى طاعته بالإحسان إلى الوالدين كقوله جلّ ثناؤه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] والآيات في هذا المجال ذكرت في أكثر من موضع منها سورة البقرة، الآيات ٨٣، ١٨٠، ٢١٥، سورة النساء، الآية ٣٦، سورة الأنعام، الآية ١٥١، سورة لقمان، الآية ١٤، سورة مريم، الآية ١٤، سورة العنكبوت، الآية ٨، سورة الأحقاف، الآية ١٥، سورة إبراهيم، الآية ٤١، سورة النمل، الآية ١٩، سورة نوح، الآية ٢٨.

عليه، أنه مخلوق من خلق الله، يحيا ويموت، ويُبعث يوم القيامة كسائر الخلق «ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد»[١].

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [مريم: ٣٤] أي: ذلك الذي اختلف بأمره المحقون والمبطلون، ممن تبعه وآمن به أو كفر.

بعد ذلك نزّه الله تبارك وتعالى نفسه عن كل شرك ذاكراً أنه لا يجوز اتخاذ ولد له سبحانه، وأنه ليس بحاجة للولد وهو الذي إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، فقال جلّ وعلا: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران: ٣٥].

دعاء المسيح:

عن مكحول عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إن عيسى ابن مريم أول ما أطلق الله لسانه بدأ الكلام الذي تكلم به وهو طفل فمجّد الله تمجيداً لم تسمع الآذان بمثله لم يدع شمساً ولا قمراً ولا جبلاً ولا نهراً ولا عيناً إلا ذكره في تمجيده فقال: «اللهم أنت القريب في علوك، المتعال في دنوك، الرفيع على كل شيء من خلقك. أنت الذي خلقت سبعاً في الهواء[٢] بكلماتك مستويات طباقاً أَجَبْنَ وهُنَّ دخان من فرقك، فأتين طائعات لأمرك، فيهنّ ملائكتك يسبّحون قدسك لتقديسك، وجعلت فيهن نوراً على سواد الظلام، وضياءً من ضوء الشمس بالنهار، وجعلت فيهن الرعد المسبح بالحمد، فبعزتك يجلو ضوء ظلمتك، وجعلت فيهن مصابيح يهتدي بهنّ في الظلمات الحيران. فتباركت اللهم في مفطور سمواتك، وفيما دحوت[٣] من أرضك، دحوتها على الماء فسمكتها[٤] على تيار الموج الغامر فأذللتها إذلال التظاهر، فذل لطاعتك صعبها، واستحيا لأمرك أمرها، وخضعت لعزتك أمواجها، ففجرت فيها بعد البحور الأنهار، ومن الأنهار الجداول الصغار، ومن بعد الجداول ينابيع العيون الغزار. ثم أخرجت منها الأنهار والأشجار والثمار، ثم جعلت على ظهرها الجبال فوتدتها أوتاداً[٥] على ظهر

(١) محمد أحمد كنعان، فتح القدير تهذيب تفسير ابن كثير، ج٤، ص٧٢.

(٢) سبعاً في الهواء: أي السماوات.

(٣) دحوت من دحا: البسط، دحا الأرض يدحوها دحواً: بسطها. ابن منظور، لسان العرب، م٤، ص٢٥١، دار صادر - بيروت، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

(٤) سمك الشيء يسمكه فسمك: رفعه فارتفع. ابن منظور، لسان العرب، م١٠، ص٤٤٣.

(٥) أوتاد جمع وتد: والوتد ما برز في الحائط أو الخشب. ابن منظور، المرجع السابق، م٣، ص٤٤٤.

الماء فأطاعت أطوادها[١] وجمودها، فتباركت اللهم فمن يبلغ بنعته نعتك، أمن يبلغ بصفته صفتك، تنشر السحاب، وتفك الرقاب، وتقضي بالحق وأنت خير الفاصلين، لا إله إلا أنت سبحانك، أمرت أن نستغفرك من كل ذنب، لا إله إلا أنت سبحانك، سترت السماوات عن الناس، لا إله إلا أنت سبحانك، إنما يخشاك من عبادك الأكياس[٢]، نشهد أنك لست بإله استحدثناك، ولا رب يبيد ذكره، ولا كان معك شركاء فندعوهم ونذكرك، ولا أعانك على خلقنا أحد فنشك فيك، نشهد أنك أحد صمد[٣]، لم يلد ولم يولد، ولم يكن لك كفواً أحد»[٤].

يحيى بن زكريا:

كان ليحيى عليه السلام شأن كبير مع المسيح وفي ما يلي بعض من سيرته لقربه من المسيح موضوع البحث؛ ولأنه كان الناصر له والمبشّر به. إضافة إلى أنه عمّد[٥] المسيح عليه السلام في نهر الأردن. وجاء ذكر يحيى عليه السلام في كتاب الله في الآيات الكريمة: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم: ١٢ ـ ١٥].

ويذكر ابن كثير أن الله سبحانه وتعالى علّم يحيى عليه السلام التوراة ـ الكتاب ـ التي كانوا يتدارسونها بينهم، ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٤٤]، وكان صغير السن فلهذا نوّه بذكره وبما أنعم به عليه وعلى والديه فقال: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ أي: تعلّم الكتاب بقوة ـ بجد ـ وحرص واجتهاد ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي: الفهم والعلم والجد والعزم والإقبال على الخير والانكباب عليه والاجتهاد فيه وهو صغير حدث، قال عبد الله بن المبارك: قال معمر: قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب، فقال: ما للعب خُلقنا، قال: فلهذا أنزل الله[٦] ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

---

(١) الطود: الجبل العظيم، الهضبة. ابن منظور، المرجع نفسه، م٣، ص٢٧٠.

(٢) الأكياس: مفردها كيّس: أي حسَنه، والكيّس في الأمور يجري مجرى الرفق فيها. ابن منظور المرجع السابق، م٦، ص٢٠٠.

(٣) الصمد: المقصود. ابن منظور، لسان العرب، م٣، ص٢٥٨.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٧٦.

(٥) كان التعميد من عادة اليهود، والتعميد هو غسل الطفل المولود حديثاً في مياه نهر الأردن.

(٦) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، م٣، ص١٠٧، وانظر ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٥٠، وانظر الزمخشري، الكشاف، ج١، ٤٢٨ لذكر اختلاف اللفظ (خلقت/ خلقنا).

أما قوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ فقال ابن عباس: هي رحمة من الله. وقال عكرمة: محبة عليه ﴿وَزَكَوٰةً﴾ معطوف على حناناً، والزكاة والطهارة من الدنس والآثام والذنوب، ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ ذا طهر فلم يهمّ بالذنب. وقوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ أي: ذا رحمة وزكاة وتقى وكان باراً بوالديه[(١)] عليه السلام.

أما قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ فإنه سلام له من رب العالمين يوم مولده ويوم موته ويوم مبعثه. وهي المواقف الثلاثة الحرجة في حياة الإنسان حيث ينتقل في كل منها من عالم إلى عالم آخر.

وقد جاء ذكر يحيى عليه السلام على لسان سعيد بن أبي عروبة حيث ذكر عن قتادة أن أبا الحسن قال: إن يحيى وعيسى عليهما السلام التقيا، فقال له عيسى: استغفر لي أنت خير مني؛ فقال له الآخر: أنت خير مني، فقال له عيسى: أنت خير مني سلّمت على نفسي، وسلّم الله عليك، فعرف والله فضلهما»[(٢)].

وذلك قوله تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [مريم: ٣٣، ٣٤].

بينما جاء ذكر يحيى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم: ١٥]. فيظهر من الآيات الجليلة أن عيسى عليه السلام سلّم على نفسه بينما يحيى عليه السلام جاءه السلام من رب العالمين علماً أن عيسى عليه السلام رسول من أولي العزم.

دعوة يحيى:

عن الحارث الأشعري أن النبي ﷺ قال: «إن الله عزّ وجل أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات أن يعمل بهنّ وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهنّ وأنه كاد أن يبطىء بها فقال له عيسى عليه السلام: إنك قد أُمِرت بخمس كلمات أن تعمل بهنّ وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهنّ. فإما أن تُبلغهنّ وإما أن أبلغهنّ. فقال: يا أخي إني أخشى إن سبقتني أن أُعذَّب أو يُخسف بي. قال: فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد، فقعد على الشرف فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله عزّ وجل أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهنّ وآمركم أن تعملوا بهنّ. وأولهنّ: أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً فإن مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، م٣، ص١٠٨.

(٢) ابن كثير، المرجع السابق، م٣، ص١٠٨. وانظر ابن كثير البداية والنهاية، ج٢، ص٥٠.

بورق[١] أو ذهب فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده فأيكم يسرّه أن يكون عبده كذلك، وأن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً. وأمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت فإذا صليتم فلا تلتفتوا. وأمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك وأن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدوّ فشدُّوا يديه إلى عنقه وقدّموه ليضربوا عنقه فقال لهم: هل لكم أن أفتدي نفسي منكم فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فكّ نفسه.

وآمركم بذكر الله عزّ وجل كثيراً وإنّ مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدوّ سراعاً في أثره فأتى حصناً حصيناً فتحصّن فيه، وأن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله».

قال: وقال رسول الله ﷺ: «وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهنّ: الجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل الله فإنه من خرج عن الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع ومن دعا بدعوى جاهلية فهو من جثى جهنم» قالوا: يا رسول الله وإن صام وصلّى؟ فقال: «وإن صام وصلّى وزعم أنه مسلم فادعوا المسلمين بأسمائهم على ما سماهم الله عزّ وجل المسلمين المؤمنين عباد الله»[٢].

موت يحيى:

قضى يحيى عليه السلام حياته بين البراري والقفار حيناً وبين الناس أحياناً داعياً إلى عبادة الله واتباع تعاليمه التي أمر الناس بها حتى استشهد في سبيل الله على يد بني إسرائيل الذين قتلوه كما قتلوا زكريا من قبله. وله ضريح في الجامع الأموي[٣] بدمشق.

---

(١) ورق: عملة من الفضة.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٥٦، دار عالم الكتب، مؤسسة الكتب الثقافية، ط٥، الرياض، المملكة العربية السعودية، بيروت ـ لبنان، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

(٣) لمزيد من التفصيل حول موت يحيى عليه السلام انظر ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٥٤ وما بعدها. وانظر د. عفيف البهنسي، الجامع الأموي الكبير أولى روائع الفن الإسلامي، ص٣١ وما بعدها، ط١، دار طلاس للدراسات والترجمة، دمشق، ١٩٨٨.

الفصل الثاني

حول طفولة المسيح وصباه

اسم المسيح في القرآن الكريم

ورد اسم المسيح عليه السلام عدة مرات في القرآن الكريم، وبأشكال متعددة منها:

«المسيح»، «ابن مريم»، «عيسى»، «عيسى ابن مريم»، «كلمة الله».

وفيما يلي هذه الأسماء كما وردت في القرآن الكريم حسب عدد مرات ورودها مع ذكر أرقام السور والآيات التي وردت فيها:

١ ـ «كلمة الله» وردت في:

ـ سورة آل عمران، الآية ٣٩ في قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

ـ سورة النساء، الآية ١٧١: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥ﴾. وكلمة الله وردت بمعنيين: ففي آية سورة آل عمران وردت على أساس أنها «اسم علم» وفي سورة النساء وردت على أساس أنها «صفة ولقب».

٢ ـ «ابن مريم» وردت مرتين في:

ـ سورة المؤمنون، الآية ٥٠: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾.

ـ سورة الزخرف، الآية ٥٧: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾.

٣ ـ «المسيح» وردت مرتين في:

ـ سورة النساء، الآية ١٧٢: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾.

ـ سورة المائدة، الآية ٧٢: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ﴾.

٤ ـ «المسيح عيسى ابن مريم» وردت أربع مرات في:

ـ سورة آل عمران، الآية ٤٥: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥)﴾.

ـ سورة النساء، الآية ١٥٧: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧)﴾.

ـ سورة النساء، الآية ١٧١: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١)﴾.

ـ سورة المائدة، الآية ٧٨: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨)﴾.

٥ ـ «المسيح ابن مريم» وردت خمس مرات:

ـ منها مرتان في سورة المائدة، الآية ١٧: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧)﴾.

ـ سورة المائدة، الآية ٧٢: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾.

ـ سورة المائدة، الآية ٧٥: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥)﴾.

ـ سورة التوبة، الآية ٣١: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)﴾.

٦ ـ «عيسى ابن مريم» وردت إحدى عشرة مرة في:

ـ سورة البقرة، الآية ٨٧: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

ـ سورة البقرة، الآية ٢٥٣: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَلَـٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾.

ـ سورة المائدة، الآية ٧٨: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

ـ سورة المائدة، الآية ١١٠: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾.

ـ سورة المائدة، الآية ١١٢: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

ـ سورة المائدة، الآية ١١٤: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

ـ سورة المائدة، الآية ١١٦: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾.

ـ سورة مريم، الآية ٣٤: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

ـ سورة الحديد، الآية ٢٧: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

- سورة الصف، الآية ٦: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾.

- سورة الصف، الآية ١٤: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

٧ - «عيسى» وردت اثنتي عشرة مرة في:

- سورة البقرة، الآية ١٣٦: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

- سورة آل عمران، الآية ٥٢: ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

- سورة آل عمران، الآية ٥٥: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

- سورة آل عمران، الآية ٥٩: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾.

- سورة آل عمران، الآية ٨٤: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

- سورة النساء، الآية ١٦٣: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾.

- سورة المائدة، الآية ٤٦: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

- سورة المائدة، الآية ٧٨: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

ـ سورة الأنعام، الآية ٨٥: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

ـ سورة الأحزاب، الآية ٧: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾.

ـ سورة الشورى، الآية ١٣: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾.

ـ سورة الزخرف، الآية ٦٣: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾.

مما سبق يتبين أن خبر المسيح عليه السلام ورد في القرآن العظيم في ست عشرة سورة، بينها ثلاث من السور الطوال[(١)]:

«آل عمران، المائدة، مريم»، وأسماء هذه السور تحمل في معناها بعضاً من سيرته.

حول تسمية المسيح:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦].

ففي هذه الآية الكريمة ورد اسم المسيح عليه السلام كاملاً. وذكر الزمخشري في تفسيره الكشاف حول اسم المسيح عيسى ابن مريم: «وهذه ثلاثة أشياء: الاسم منها عيسى، وأما المسيح والابن فلقب وصفة»[(٢)].

كما أورد المفسرون عدة تفسيرات حول معنى اسم «المسيح». ومن هذه التفسيرات ما ورد عند القرطبي أن من «المسيح لقب عيسى، ومعناه الصديق. وهو فيما يقال: معرب، وأصله الشين، وهو مشترك. والمسح العرق، والمسيح الصديق، والمسيح الدرهم الأطلس الذي لا نقش فيه. واختلف في المسيح ابن مريم مما أخذ؟ فقيل: لأنه مسح الأرض، أي ذهب فيها، فلم يستكن بكن، وقيل: إنه كان لا يمسح

---

(١) لا نغفل أن بعضاً من السور القصار لها من الثواب الكثير عند ربّ العزة كما في سورة الإخلاص. فمن قرأها ثلاث مرات كمن قرأ القرآن كله... إلخ مما ذكر في فضائل السور.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٤٣٠.

ذا عاهة إلا برىء، فكأنه سمي مسيحاً لذلك. وقيل: لأنه كان ممسوحاً بدهن البركة، كانت الأنبياء تمسح به، طيب الرائحة، فإذا مسح به علم أنه نبي، وقيل: لأنه كان ممسوح الأخمصين، وقيل: لأن الجمال مسحه، أي أصابه وظهر عليه. وقيل: لأنه مسح بالطهر من الذنوب»[١].

مكانة المسيح:

نبّأت الملائكة مريم بحملها بعيسى عليه السلام ومكانته في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦].

فهو في كبره ﴿وَجِيهًا﴾ والوجاهة في الدنيا النبوة والتقدم على الناس، وفي الآخرة الشفاعة وعلو الدرجة في الجنة، وهو ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ حيث رفعه الله تعالى إلى السماء وصحبته الملائكة، وهو ﴿يكلم الناس في المهد[٢] وكهلاً﴾ بمعنى أنه يكلم الناس طفلاً وكهلاً، في كلا الحالين هو كلام الأنبياء من غير تفاوت بين حال الطفولة والكهولة[٣].

«وقال أبو العباس: كلمهم في المهد حين برّأ أمه، فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ وأما كلامه وهو كهل فإذا أنزله الله من السماء أنزله على صورة ابن ثلاث وثلاثين سنة وهو الكهل، فيقول لهم: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾، كما قال في المهد. فهاتان آيتان وحجتان.

قال المهدوي: وفائدة الآية أنه أعلمهم أن عيسى عليه السلام يكلمهم في المهد، ويعيش إلى أن يكلّمهم كهلاً، إذ كانت العادة أن من تكلّم في المهد لم يعش»[٤].
﴿ومن الصالحين﴾ أي من عباد الله الصالحين.

كلام المسيح في المهد:

بعد بشرى الملائكة لمريم بالحمل بعيسى، أسلمت أمرها لصاحب الأمر. وتمّ حملها وولدته؛ ثم أتت به قومها تحمله.

---

(١) القرطبي، مختصر تفسير القرطبي، اختصار وتعليق محمد كريم راجح، ج١، ص٣١.
(٢) المهد ما يمهد للصبي من مضجعه حين الولادة: السرير.
(٣) الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٤٣٠.
(٤) القرطبي، مختصر تفسير القرطبي، ج١، ص٣١٠.

عندئذ خاصمها قومها ورموها بالزنا، لكنها لم تخاطبهم لأنها نذرت للرحمٰن صوماً؛ ولم تكتف بذلك بل أشارت إلى طفلها كي يكلموه، ﴿قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩]. فأجاب المسيح عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣٢].

وقد اختلف في مدة كلامه، هل بقي يتكلم كعادة الرجال أو لم يتكلم حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان.

فقد ورد عن ابن عباس «أن عيسى ابن مريم أمسك عن الكلام بعد أن كلمهم طفلاً، حتى بلغ ما يبلغ الغلمان ثم أنطقه الله بعد ذلك بالحكمة والبيان، فأكثر اليهود فيه وفي أمّه من القول، وكانوا يسمونه ابن البغية»[1] وذلك قوله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾[2] [النساء: ١٥٦].

ولعل الغاية من نطق المسيح عليه السلام بالمهد إظهار براءة أمه من جهة، وأنه عبد الله ورسوله لما في ميلاده المعجز من الغرابة من جهة أخرى.

وقد انفرد القرآن الكريم بخبر كلام المسيح في المهد. وعلّق الأستاذ عبد الكريم الخطيب على ذلك بقوله: «إن القرآن إذ يقف هذا الموقف ليعلم علم اليقين أنه يواجه بهذه الحقيقة عالماً متربصاً به، متلهفاً إلى اصطياد المعاثر والمزالق له، فإذا جاء يحدث أهل الكتاب عن أمر هو في أيديهم ومن خاصة أمورهم، قد عرفوه وقلّبوا وجوهه، وعرفوا صغير أحواله وكبيرها ـ فإن المتوقع أن يكون حديثه هنا جارياً مع ما يعرفون منه، وما يروون عنه، فإن كان اختلاف في شيء ففي ترتيب الأحداث وتلوينها، فإن زاد الخلاف شيئاً، ففي الأحداث العارضة التي لا تدخل في الصميم من ذاتية هذا الأمر..

أما إذا كان هذا الحديث عن أمر له شأنه وخطره في إقامة بناء العقيدة، ثم كان مما يقيم لأصحاب العقيدة حجة دامغة، ودليلاً قاطعاً لمقولاتهم التي ينكرها عليهم خصومهم، فإن ذلك هو أعجب العجب.. حيث يجيء القرآن إلى هذه الدعوى التي ينكرها فيضع بين يدي أصحابها حجة أقوى من حجتهم لها، ودليلاً أوضح من دليلهم عليها.. إن ذلك لعجب عجيب!!

---

(١) محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص١٦. وانظر ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٧٦.

(٢) ولمزيد من التفصيل حول شرح هذه الآية انظر الألوسي، روح المعاني، ج٦، ص١٠.

ولكن القرآن لا يلتفت إلى شيء من هذا، ولا يجعل له شأناً في حسابه مع ما يدّعيه المدّعون.. وإنما الذي يلتفت إليه، ويحسب له حساباً هو الحق، والحق وحده.. سواء وافق واقع الناس وجرى مع معارفهم ومعتقداتهم، أم جاء على طريق غير طريقهم، وبعلم غير علمهم»(١).

هذا، وقد ورد كلام المسيح عيسى في المهد في السنة الشريفة على لسان سيدنا محمد ﷺ، ومن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وصاحب جريج، وكان جريج رجلاً عابداً فاتخذ صومعة فكان فيها، فأتته أمه وهو يصلي فقالت: يا جريج، فقال: يا رب! أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فانصرفت، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي، فقالت: يا جريج! فقال: أي رب أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فقالت: اللهم لا تمته حتى ينظر إلى وجوه المومسات!. فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادته، وكانت امرأة بغي يتمثل بحسنها، فقالت: إن شئتم لأفتننّه لكم. قال: فتعرضت له فلم يلتفت إليها، فأتت راعياً كان يأوي إلى صومعته فأمكنته من نفسها، فوقع عليها، فحملت، فلما ولدت قالت: هو من جريج! فأتوه، فاستنزلوه، وهدموا صومعته، وجعلوا يضربونه. فقال: ما شأنكم؟! قالوا: زنيت بهذه البغي فولدت منك! فقال: أين الصبي؟ فجاؤوا به. فقال: دعوني حتى أصلّي، فصلّى، فلما انصرف أتى الصبي فطعن في بطنه وقال: يا غلام من أبوك؟ قال: فلان الراعي. قال: فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به، وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب وفضة، قال: لا، أعيدوها من طين كما كانت. ففعلا. وبينما صبي يرضع من أمه، فمرّ رجل راكب على دابة فارهة، وشارة حسنة، فقالت أمه: اللهم اجعل ابني مثل هذا، فترك الثدي وأقبل إليه، فنظر إليه، فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديه، فجعل يرتضع. قال: فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكي ارتضاعه بإصبعه السبابة في فمه، فجعل يمصها. قال: ومرُّوا بجارية وهم يضربونها، ويقولون: زنيت سرقت، وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل، فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فترك الرضاع ونظر إليها فقال: اللهم اجعلني مثلها، فهناك تراجعا الحديث. فقالت: حلقي! ـ أي أصابها ألم في حلقها ـ ومرّ رجل حسن الهيئة فقلت: اللهم اجعل ابني مثله، فقلت: اللهم لا تجعلني مثله! ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها

(١) عبد الكريم الخطيب، المرجع السابق، ص٥١٣.

ويقولون: زنيت سرقت، فقلت: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فقلت: اللهم اجعلني مثلها! قال: إن ذاك الرجل كان جباراً، فقلت: اللهم لا تجعلني مثله وإن هذه: يقولون لها: زنيت، ولم تزنِ، وسرقت، ولم تسرق، فقلت: اللهم اجعلني مثلها»(١).

مما سبق يتبين أن في مولد المسيح عليه السلام إعجاز من عدة وجوه منها:

١ ـ بشرى جبريل لمريم عليها السلام أنها ستلد غلاماً دون أن يمسها بشر، أي طفل مولود من أم دون أب ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ۝١٩﴾ [مريم: ١٩].

٢ ـ مدة الحمل بالمسيح عليه السلام أضيفت كإعجاز إلى المولد المعجز، قال تعالى: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ۝٢٢﴾ [مريم: ٢٢]، أي تنحّت بالحمل إلى مكان بعيد. والظاهر أن الانتباذ عقب الحمل. وقيل: غير ذلك(٢).

٣ ـ شهد جبريل ولادة المسيح عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝٢٤﴾ [مريم: ٢٤] قيل: إن الذي ناداها هو جبريل عليه السلام، وفي هذا لها آية وأمارة أن هذا من الأمور الخارقة للعادة التي لله فيها مراد عظيم(٣).

٤ ـ معجزة النخلة اليابسة، قال تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٣]، والجذع ساق النخلة اليابسة في الصحراء الذي لا سعف عليه. ثم قال تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝٢٥﴾ [مريم: ٢٥]، أمرها الله تعالى بهز الجذع اليابس لترى آية أخرى في إحياء موات الجذع.

٥ ـ معجزة إيجاد نهر يجري أو عين ماء وهو السُّري، قال تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝٢٤﴾ [مريم: ٢٤].

٦ ـ معجزة كلامه في المهد، وقد انفرد القرآن الكريم بذكر هذه المعجزة الخالدة، ولم تتكلم عنها كتب النصارى.

وقد جاءت هذه المعجزات نعمة لهذا العبد من عباد الله المصطفين الأخيار، قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾ [الزخرف:

---

(١) رواه مسلم في أول كتاب البر والصلة والآداب ورقمه ٦٦٠٠. وانظر ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٩٨.

(٢) القرطبي، مختصر تفسير القرطبي، ج٣، ص٢٠١.

(٣) القرطبي، مختصر تفسير القرطبي، ج٣، ص٢٠٢.

٥٩]. وقال تعالى: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الزخرف: ٥٧].

حول نسب المسيح:

ورد في إنجيل متّى الإصحاح الأول نسب المسيح عليه السلام من يوسف النجار في العدد ١ ـ ١٨ كما يلي: «كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن إبراهيم. إبراهيم ولد إسحاق وإسحاق ولد يعقوب. ويعقوب ولد يهوذا وإخوته. ويهوذا ولد فارص... وأليعازر ولد متان. ومتان ولد يعقوب. ويعقوب ولد يوسف رجل مريم التي ولد منها يسوع الذي يدعى المسيح. فجميع الأجيال من إبراهيم إلى داود أربعة عشر جيلاً. ومن داود إلى سبي بابل أربعة عشر جيلاً. ومن سبي بابل إلى المسيح أربعة عشر جيلاً.

ولو تتبعنا نسب المسيح عليه السلام لأمه مريم لكان على النحو التالي: المسيح ابن مريم بنت عمران «ـ وعمران في الإنجيل هو يواكيم ـ بن ماثان، بن اسعاذا، بن ابيود، بن يورن، بن زربايل، بن سالثان، بن يوحنا، بن أوشا، بن أموزن، بن مشكي، بن عميار، بن رام، بن خضروم، بن فارص، بن يهوذا، بن يعقوب عليه السلام. وكان بين العبرانيين ألف وثمانمائة سنة»(١).

فيبدو أن هذا النسب يصل بالمسيح ابن مريم عليه السلام إلى داود عليه السلام من جهة الأم. وبهذا تتحقق نبوءة بني إسرائيل في المسيح المنتظر وعليه يكون النسب من جهة الأم وليس من جهة الأب إذ لا أب له.

البيئة التي نشأ فيها المسيح:

إن البيئة العامة التي نشأ فيها المسيح عليه السلام كانت تحت سيطرة الرومان. وبطبيعة الحال كان من الطبيعي أن تتأثر البيئة الصغيرة بما حولها.

فالرومان كانوا يقدسون الآلهة ويجعلون لها نسباً وأوثاناً حتى بلغت القياصرة. فكان للإمبراطور الحاكم جو من القداسة. فلذلك كتبوا للمسيح نسباً وادعوه من جهة يوسف النجار.

---

(١) يوسف الحداد، مدخل إلى الحوار الإسلامي المسيحي، في سبيل الحوار الإسلامي المسيحي، ج١، ص١٧٥، منشورات المكتبة البولسية، ط٢، ١٩٨٦.

وقد استمرت هذه العادة في جوها العام حتى مبعث النبي محمد بن عبد الله ﷺ، عندما أتاه وفد من مشركي قريش وقالوا له: يا محمد «انسب لنا ربك» أي: قل لنا لربك نسباً، فنزلت سورة الإخلاص، وكان جواب محمد ﷺ بوحي قرآني من رب العالمين: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤][(١)].

المسيح في طفولته:

كان عيسى عليه السلام منذ نعومة أظفاره عالماً بارعاً، غير أنه كان ينمو كسائر الأطفال. وذكر عنه عليه السلام أنه لما «بلغ سبع سنين أسلمته أمه إلى الكُتَّاب فجعل لا يعلّمه المعلم شيئاً إلا بدره إليه فعلّمه أبا جاد ـ أبجد هوز ـ فقال: ما أبو جاد؟ فقال المعلم: لا أدري. فقال عيسى: كيف تعلمني ما لا تدري. فقال المعلم: إذن فعلّمني. فقال له عيسى: فقم من مجلسك فقام فجلس عيسى مجلسه فقال: سلني. فقال المعلم: ما أبو جاد؟ فقال عيسى (الألف آلاء الله[(٢)]، والباء بهاء الله، والجيم بهجة الله وجماله)، فعجب المعلم من ذلك فكان أول من فسر أبا جاد»[(٣)].

وكان عبد الله بن عمر يقول: «كان عيسى ابن مريم وهو غلام يلعب مع الصبيان فكان يقول لأحدهم: تريد أن أخبرك ما خبأت لك أمك؟ فيقول: نعم. فيقول: خبأت لك كذا وكذا. فيذهب الغلام منهم إلى أمه، فيقول لها: أطعميني ما خبأت لي. فتقول: وأي شيء خبأت لك؟ فيقول: كذا وكذا. فتقول له: من أخبرك؟ فيقول: عيسى ابن مريم.

ويروى عنه عليه السلام أنه كان في حياته متواضعاً يأكل الشجر ويلبس الشعر ويجلس على التراب ولم يتخذ مسكناً، وكان عليه السلام يقول: «سلوني فإنّي ليّن القلب صغير في نفسي»[(٤)].

مآثر وأقوال عن عيسى المسيح:

«قالت امرأة لعيسى عليه السلام: طوبى لحجر حملك ولثدي أرضعك. فقال: طوبى لمن قرأ كتاب الله واتبعه»[(٥)].

---

(١) انظر تفسير ابن جزي المسمى التسهيل لعلوم التنزيل، بيروت، دار الأرقم.

(٢) آلاء الله: قدرة الله.

(٣) رواه الضحاك عن ابن عباس. انظر ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٧٦.

(٤) الألوسي، روح المعاني، ج١٦، ص٩٠.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٨٩.

وعنه ﷺ أنه قال: «طوبى لمن بكى من ذكر خطيئته وحفظ لسانه ووسعه بيته».

وعنه قال: «طوبى لعين نامت ولم تحدّث نفسها بالمعصية وانتبهت إلى غير إثم»(١).

ومن أدعية عيسى عليه السلام، ما ورد عن عبد الرزاق عن معمر عن جعفر بن بلقان أن عيسى عليه السلام كان يتوجه بالدعاء لربه ويقول: «اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره، ولا أملك نفع ما أرجو، وأصبح الأمر بيد غيري، وأصبحت مرتهناً بعملي. فلا فقير أفقر مني. اللهم لا تشمت بي عدوي، ولا تسؤ بي صديقي، ولا تجعل مصيبتي في ديني، ولا تسلط عليّ من لا يرحمني»(٢).

هذا، وقد ذكر ابن كثير في كتابه البداية والنهاية: «قال إسرائيل عن أبي حصين عن خيثمة قال: كان عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابني خالة، وكان عيسى يلبس الصوف، وكان يحيى يلبس الوبر ولم يكن لواحد منهما دينار ولا درهم ولا عبد ولا أمة ولا مأوى يأويان إليه، أنّى جنهما الليل أويا. فلما أرادا أن يتفرقا قال له يحيى: أوصني. قال: لا تغضب. قال: لا أستطيع إلا أن أغضب. قال: لا تقتن مالاً. قال: أما هذه فعسى»(٣).

هذا، ويعتبر عيسى عليه السلام رأس الزاهدين يوم القيامة، إذ قال إسحاق بن بشر عن هشام بن حسان عن الحسن قال: «إن عيسى رأس الزاهدين يوم القيامة. قال: وإن الفرّارين بذنوبهم يُحشرون يوم القيامة مع عيسى، قال: وبينما عيسى يوماً نائم على حجر قد توسده، وقد وجد لذة النوم، إذ مرّ به إبليس، فقال: (يا عيسى ألست تزعم أنك لا تريد شيئاً من عرض الدنيا فهذا الحجر من عرض الدنيا). فقال: فأخذ الحجر ورمى به إليه وقال: هذا لك مع الدنيا»(٤).

أوجه الشبه بين عيسى ويحيى:

مما سبق يتبين أن هناك أوجهاً من التشابه بين عيسى ويحيى عليهما السلام. منها ما يلي:

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٨٩.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٨٨.
(٣) ابن كثير، المرجع السابق، ج٢، ص٥١ و٥٢.
(٤) ابن كثير، المرجع السابق، ج٢، ص٨٨.

١ ـ كانت ولادة عيسى ويحيى عليهما السلام معجزة، فعيسى عليه السلام ولد من أم دون أب، ويحيى عليه السلام ولد من أم عاقر وأب عجوز.

٢ ـ إن يحيى عليه السلام هو ابن خالة السيدة مريم عليها السلام، فيكون بذلك يحيى عليه السلام ابن خالة أم عيسى عليه السلام. وعلى بعض الروايات ابن خالة عيسى عليه السلام مباشرة.

٣ ـ أخذ كل منهما يدعو إلى الله في فلسطين في عصر واحد.

أوجه الخلاف بين عيسى ويحيى:

كما أن هناك تشابهاً بين عيسى ويحيى عليهما السلام كذلك هناك أوجه خلاف. منها ما يلي:

١ ـ عاش يحيى عليه السلام في البرية يلبس الصوف والجلد، ويتغذى بالأغذية البرية من العسل والجراد، بينما عيسى عليه السلام أكل الخبز وطاف المدن مع الحواريين.

٢ ـ بدأ عيسى عليه السلام بالدعوة إلى الله عندما كبر، بينما يحيى عليه السلام بشر في سن مبكرة ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢].

٣ ـ يحيى عليه السلام لم يترك وراءه تلاميذ، بينما عيسى عليه السلام ترك تلاميذ ودعي بالمعلم.

٤ ـ دعوة يحيى عليه السلام كانت موجهة إلى الحكام، بينما عيسى عليه السلام كانت دعوته عامة لسائر الناس.

٥ ـ يحيى عليه السلام قُتِل، بينما عيسى عليه السلام رفعه الله إليه(١).

(١) سيد محمد عاشور، اليهود في عصر المسيح، ص١٢٤ و١٢٥.

الفصل الثالث

الحواريون

الحواريون في القرآن الكريم

ورد ذكر الحواريين في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع هي:

١ ـ قوله تعالى في سورة آل عمران، الآيتان ٥٢، ٥٣: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٥٣)﴾.

٢ ـ وقوله تعالى أيضاً في سورة الصف، الآية ١٤: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ (١٤)﴾.

٣ ـ وقال جلّ شأنه في سورة المائدة، الآيات ١١١ ـ ١١٥: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١) إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (١١٤) قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ (١١٥)﴾.

وقد ذكر المفسرون في ورود هذه الآيات أن عيسى ابن مريم ﷺ عندما أتى بالآيات والمعجزات الباهرات الدالة على نبوته، شعر بتصميم بني إسرائيل على الكفر بعدما كذّبوه، فأراد أن يَعْلَمَ المؤمن من الكافر ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ﴾ أي من الذين يؤمنون بأنه عبد الله ورسوله. ويظهر أنه عليه السلام أراد من ذلك أن يعرف أنصاره في الدعوة إلى الله، فانتدب له طائفة من بني إسرائيل فآمنوا به وآزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه، ولهذا قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿قَالَ

ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾[1] وقوله تعالى: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾

(١) ذكر الألوسي أن أصل كلمة «الحواريون» من التحوير أي التبييض، «ومنه الخبز الحواري الذي نخل مرة بعد أخرى، والحواريات الحضريات نساء المدن والقرى لما أنه يغلب فيهن البياض لعدم البروز للشمس، ويطلق الحواري على ـ القصّار ـ أيضاً لأنه يبيض الثياب بلغة النبط، هواري بضم الهاء وتشديد الواو وفتح الراء قاله الضحاك. واختلف في سبب تسمية أولئك القوم بذلك فقيل: سمُّوا بذلك لبياض ثيابهم ـ وهو المروي عن سعيد بن جبير ـ وقيل: لأنهم كانوا قصارين يبيضون الثياب للناس ـ وهو المروي عن مقاتل وجماعة ـ وقيل: لنقاء قلوبهم وطهارة أخلاقهم. لمزيد من التفصيل انظر الألوسي، روح المعاني، ج٣، ص١٧٥ ـ ١٧٦، ذكر ابن كثير عن الحواريين في تفسير القرآن العظيم، م١، ص٣٢١ قوله: «قيل: سموا بذلك لبياض ثيابهم، وقيل: صيادين».

والصحيح أن الحواري هو الناصر. وأضاف ابن كثير قوله في الصفحة نفسها أن الحواري بمعنى الناصر، وهو الذي آمن بالدعوة التي جاء بها النبي ونصره في دعواه. وقد (ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب؛ فانتدب الزبير ثم ندبهم، فانتدب الزبير رضي الله عنه، فقال النبي ﷺ: «لكل نبي حواري، وحواريّ الزبير») هذا، وقد اختلف في الحواريين من أي طوائف الناس كانوا؟

وقد ذكر الألوسي في تفسيره روح المعاني، ج٣، ص١٧٦ أنهم «قوم كانوا يصطادون السمك فيهم يعقوب، وشمعون، ويوحنا فمرّ بهم عيسى عليه السلام فقال لهم: أنتم تصيدون السمك فإن اتبعتموني صرتم بحيث تصيدون الناس بالحياة الأبدية؟ فقالوا له: من أنت؟ قال: عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله فطلبوا منه المعجزة، وكان شمعون قد رمى شبكته تلك الليلة فما اصطاد شيئاً فأمر عيسى عليه السلام بإلقائها في الماء مرة أخرى ففعل فاصطاد ما ملأ سفينتين، فعند ذلك آمنوا به عليه السلام». وردت هذه القصة في إنجيل متى، الإصحاح الرابع، العدد ١٨ ـ ٢٢ على الشكل التالي: «وإذ كان يسوع ماشياً عند بحر الجليل أبصر أخوين سمعان الذي يقال له بطرس وأندراوس أخاه يلقيان شبكة في البحر فإنهما كانا صيادين. فقال لهما هلم ورائي فأجعلكما صيادي الناس. فللوقت تركا الشباك وتبعاه. ثم اجتاز من هناك فرأى أخوين آخرين يعقوب بن زبدي ويوحنا أخاه في السفينة مع زبدي أبيهما يصلحان شباكهما فدعاهما. فللوقت تركا السفينة وأباهما وتبعاه».

بعد ذلك يضيف الألوسي قوله عن الحواريين في الصفحة نفسها من المرجع قوله: «قيل؛ هم اثنا عشر رجلاً، أو تسعة وعشرون من سائر الناس اتبعوا عيسى عليه السلام وكانوا إذا جاعوا قالوا: يا روح الله جعنا فيضرب بيده على الأرض فيخرج لكل واحد رغيفان، وإذا عطشوا قالوا: عطشنا فيضرب بيده على الأرض فيخرج الماء فيشربون فقالوا: من أفضل منا إذا شئنا أطعمنا وإذا شئنا أسقيتنا وقد آمنا بك؟ فقال: أفضل منكم من يعمل بيده ويأكل من كسبه فصاروا يغسلون الثياب بالكراء ويأكلون. وقيل: إن واحداً من الملوك صنع طعاماً وجمع الناس عليه وكان عيسى عليه السلام على قصعة فكانت القصعة لا تنقص، فذكر ذلك للملك فذهب إليه الملك مع أقاربه فقالوا له: من أنت؟ قال: عيسى ابن مريم. فقال الملك: إني تارك ملكي ومتبعك فتبعه مع أقاربه فأولئك هم الحواريون». =

وقد طلبوا شهادة بإسلامهم تأكيداً لإيمانهم لأن الرسل يشهدون يوم القيامة لقومهم وعليهم، ﴿مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ مع الأنبياء الذين يشهدون بالوحدانية(١).

وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: «مع أمة محمد ﷺ»(٢)، لأن أمة محمد تشهد على الناس يوم القيامة بما بلغت به من رسالات ويكون محمد ﷺ شاهداً على ذلك. وفي ذلك قال تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

أما قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: ١٤].

فقد جاء في تفسير فتح القدير تهذيب ابن كثير، ج٦، ص٢٢٥، أن الله تعالى يأمر عباده المؤمنين أن يكونوا أنصاراً لله في جميع أحوالهم، بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم، وأن يستجيبوا لله ولرسوله كما استجاب الحواريون لعيسى عليه السلام حين قال: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: من يعينني ويساعدني في أمر الدعوة إلى الله عزّ وجل؟ و﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ وهم: أتباع عيسى عليه السلام ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي: معاونوك ومساعدوك على ما أُرسلت به، ومؤازروك على ذلك، ولهذا بعثهم دعاة إلى الناس في بلاد الشام، في الإسرائيليين واليونانيين، وهكذا كان محمد رسول الله ﷺ في أيام الحج أوائل سني البعثة يقول: «مَن رجل يؤويني حتى أبلغ رسالة ربي، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي؟» حتى قيّض الله تبارك وتعالى له الأوس والخزرج من أهل المدينة فآووه ونصروه(٣).

وكما سمّى صحابة عيسى عليه السلام أنفسهم أنصار الله عندما سألهم عيسى عليه السلام ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ كذلك سمّى الله سبحانه مؤيدي الرسول الكريم محمد ﷺ من أهل المدينة الأنصار بقوله جلّ من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].

= ونقل جمع عن القفال أنه يجوز أن يكون بعضهم من الملوك، وبعضهم من الصيادين، وبعضهم من القصارين. وقيل: إن بعضهم من سائر الناس وسموا جميعاً بالحواريين لأنهم كانوا أنصار عيسى عليه السلام والمخلصين في محبته وطاعته.

(١) الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٤٣٢.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، م١، ص٣٢١.

(٣) فتح القدير تهذيب ابن كثير، محمد أحمد كنعان، ج٦، ص٢٢٥ و٢٢٦، دار لبنان، ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

هذا، وقد ذكر عن ابن عباس وسلمان الفارسي وعمّار بن ياسر وغيرهم من السلف «أن عيسى عليه السلام أمر الحواريين بصيام ثلاثين يوماً فلما أتموها سألوا عيسى إنزال مائدة من السماء عليهم ليأكلوا منها وتطمئن بذلك قلوبهم أن الله قد تقبّل صيامهم وأجابهم إلى طلبهم وتكون لهم عيداً يفطرون عليها يوم فطرهم وتكون كافية لأولهم وآخرهم لغنيّهم وفقيرهم، فوعظهم عيسى في ذلك وخاف عليهم أن لا يقوموا بشكرها ولا يؤدوا حق شروطها فأبوا عليه إلا أن يسأل لهم ذلك من ربه عزّ وجل فلما لم يقلعوا عن ذلك قام إلى مصلاه ولبس مسحاً من شعر وصف بين قدميه وأطرق رأسه وأسبل عينيه بالبكاء وتضرع إلى الله في الدعاء والسؤال أن يجابوا إلى ما طلبوا فأنزل الله تعالى المائدة من السماء والناس ينظرون إليها تنحدر بين غمامتين وجعلت تدنو قليلاً قليلاً وكلما دنت سأل عيسى ربه عزّ وجل أن يجعلها رحمة لا نقمة وأن يجعلها بركة وسلامة، فلم تزل تدنو حتى استقرت بين يدي عيسى عليه السلام وهي مغطاة بمنديل فقام عيسى يكشف عنها وهو يقول: (بسم الله خير الرازقين) فإذا عليها سبعة من الحيتان وسبعة أرغفة. ويقال: وخلّ. ويقال: ورمان وثمار ولها رائحة عظيمة جداً. قال الله لها كوني فكانت. ثم أمرهم بالأكل منها فقالوا: لا نأكل حتى تأكل. فقال: إنكم الذين ابتدأتم السؤال لها فأبوا أن يأكلوا منها ابتداء فأمر الفقراء والمحاويج والمرضى وكانوا قريباً من ألف وثلاثمائة فأكلوا منها فبرأ كل من به عاهة أو آفة أو مرض مزمن فندم الناس على ترك الأكل منها لما رأوا من إصلاح حال أولئك»[١].

أما تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ أي: أن الحواريين سألوا عيسى عليه السلام: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ بعد إيمانهم وإخلاصهم؟ قال الزمخشري: «ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص إنما حكى ادعاءهم لهما ثم أتبعه قوله: إذ قالوا، فآذن أن دعواهم كانت باطلة وأنهم كانوا شاكين، وقوله: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ كلام لا يرد مثله عن مؤمنين معظمين لربهم، وكذلك قول عيسى عليه السلام لهم معناه: «اتقوا الله ولا تشكوا في اقتداره واستطاعته ولا تقترحوا عليه ولا تتحكموا ما تشتهون من الآيات فتهلكوا إذا عصيتموه بعدها ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إن كانت دعواكم للإيمان صحيحة»[٢].

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٨٦. وانظر نحو هذا مع اختلافات قليلة عند الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٦٥٤.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٦٥٤.

أما قوله تعالى: ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي نشهد عليها عند الذين لم يحضروها من بني إسرائيل أو نكون من الشاهدين لله بالوحدانية ولك بالنبوة.

أما قوله تعالى: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ أي: يكون يوم نزولها عيداً. قيل: هو يوم الأحد ومن ثم اتخذه النصارى عيداً، وقيل: العيد السرور العائد ولذلك يقال: يوم عيد والمعنى تكون لنا المائدة فرحاً وسروراً.

أما قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة: ١١٥] أي عالمي زمانهم أو العالمين مطلقاً.

وأما في الآخرة فيكون عذابهم كما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة من كفر من أصحاب المائدة، والمنافقون، وآل فرعون. ويدل هذا على أن المائدة نزلت وكفر البعض بعد ذلك»[(١)].

هل ذكرت المائدة عند النصارى؟

لم يأتِ ذكر المائدة عند النصارى ولكن ذكر عندهم أخبار عن تكثير الطعام على يد المسيح عليه السلام.

وقد ذكر ذلك في إنجيل يوحنا على الشكل التالي: «بعد هذا مضى يسوع إلى عبر بحر الجليل وهو بحر طبرية. وتبعه جمع كثير لأنهم أبصروا آياته التي كان يصنعها في المرض. فصعد يسوع إلى جبل وجلس هناك مع تلاميذه. وكان الفصح عند اليهود قريباً. فرفع يسوع عينيه ونظر أن جمعاً كثيراً مقبل إليه فقال لفيلبس من أين نبتاع خبزاً ليأكل هؤلاء. وإنما قال هذا ليمتحنه لأنه هو علم ما هو مزمع أن يفعل. أجابه فيلبس لا يكفيهم خبز بمائتي دينار ليأخذ كل واحد منهم شيئاً يسيراً. قال له واحد من تلاميذه وهو أندراوس أخو سمعان بطرس: هنا غلام معه خمسة أرغفة شعير وسمكتان. ولكن ما هذا لمثل هؤلاء. فقال يسوع اجعلوا الناس يتكئون. وكان في المكان عشب كبير. فاتكأ الرجال وعددهم نحو خمسة آلاف. أخذ يسوع الأرغفة وشكر ووزع على التلاميذ والتلاميذ أعطوا المتكئين. وكذلك من السمكتين بقدر ما

---

(١) الألوسي، روح المعاني، ج٧، ص٦٢. وانظر الزمخشري، المرجع السابق، ج١، ص٦٥٤. ولمزيد من التفصيلات حول إنزال المائدة وعدم إنزالها يمكن الرجوع لكتاب قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ص٥٥٥ ـ ٥٦١، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

شاؤوا. فلما شبعوا قال لتلاميذه اجمعوا الكسر الفاضلة لكي لا يضيع شيء. فجمعوا وملأوا اثنتي عشرة قفة من الكسر من خمسة أرغفة الشعير التي فضلت عن الآكلين(١). فلما رأى الناس الآية التي صنعها يسوع قالوا إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم»(٢).

أما في أعمال الرسل فقد ذكر شيء عن المائدة جاء على الشكل التالي: «ثم في الغد فيما هم يسافرون ويقتربون إلى المدينة صعد بطرس على السطح ليصلي نحو الساعة السادسة. فجاع كثيراً واشتهى أن يأكل. وبينما هم يهيئون له وقعت عليه غيبة. فرأى السماء مفتوحة وإناءً نازلاً عليه بمثل ملاءة عظيمة مربوطة بأربعة أطراف ومدلاة على الأرض. وكان فيها كل دواب الأرض والوحوش والزحافات وطيور السماء. وصار إليه صوت قم يا بطرس اذبح وكل. فقال بطرس: كلا يا رب لأني لم آكل قط شيئاً دنساً أو نجساً. فصار إليه أيضاً صوت ثانية ما طهره الله لا تدنسه أنت. وكان هذا على ثلاث مرات ثم ارتفع الإناء أيضاً إلى السماء»(٣).

صفات تلاميذ المسيح في القرآن الكريم:

ذكرت صفات تلاميذ المسيح عليه السلام في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧].

وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران: ١٩٩].

---

(١) وردت في السنة الشريفة مسألة تكثير الطعام والماء على يد النبي محمد ﷺ أكثر من مرة. وهي من معجزاته عليه الصلاة والسلام. وذكر البخاري في صحيحه في كتاب المغازي في الحديث رقم ٢٩ أن جابر بن عبد الله قال: «أطعم رسول الله ﷺ يوم الخندق من صاع شعير وعناق ألف رجل حتى تركوه وانصرفوا وإن القدر لتغط كما هي وإن العجين ليخبز». وانظر نحوه، صحيح البخاري، باب التيمم، حديث رقم ٦.

(٢) إنجيل يوحنا، الإصحاح السادس، العدد ١ ـ ١٤ عن الكتاب المقدس العهد الجديد والمزامير وقد ترجم عن اللغات الأصلية، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط.

(٣) أعمال الرسل، الإصحاح العاشر، العدد ٩ ـ ١٦. ولمزيد من التفصيل انظر دائرة المعارف الإسلامية، م٣، ص١٢، مادة إنجيل.

ويتبين من الآيات الكريمة أن من صفات تلاميذ المسيح (الحواريين) الرأفة والرحمة، والخشوع لما أنزل الله، فهذه صفات المصطفين الأخيار، وهم الفئة المؤمنة بما أنزل الله إليه وهم الذين شهدوا بأنهم مسلمون مؤمنون.

وكان المسيح عليه السلام كثيراً ما يعلّم الحواريين الرحمة بالناس ليكونوا مثالاً يحتذي بهم الناس، معلماً إياهم الإكثار من ذكر الله لأن ذكر الله يليّن القلوب. فقد ذكر أبو مصعب عن مالك، قال عيسى ابن مريم عليه السلام: «لا تكثروا الحديث بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم فإن القلب القاسي بعيد من الله ولكن لا تعلمون. ولا تنظروا في ذنوب العباد كأنكم أرباب وانظروا فيها كأنكم عبيد فإنما الناس رجلان معافى ومبتلى فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية»(١).

تعليم المسيح أصحابه القناعة:

كان المسيح عليه السلام يعلّم أصحابه (الحواريين) جوهر الأخلاق والقناعة بالقليل من الدنيا حتى لا يغترُّوا بزينتها لأنها زائلة والآخرة خير للمتقين الأخيار.

وقد ذكر أبو بكر بن أبي الدنيا عن الحسين بن عبد الرحمٰن عن زكريا بن عدي قال: قال عيسى ابن مريم عليه السلام: «يا معشر الحواريين ارضوا بدنى الدنيا مع سلامة الدين كما رضي أهل الدنيا بدنى الدين مع سلامة الدنيا»(٢).

من أقوال المسيح:

قال عبد الله بن المبارك أنبأنا سفيان عن منصور عن سالم بن أبي الجعد قال: قال عيسى ابن مريم عليه السلام: «اعملوا لله ولا تعملوا لبطونكم، انظروا إلى هذه الطير تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها، فإن قلتم نحن أعظم بطوناً من الطير فانظروا إلى هذه الأباقير من الوحوش والحمر فإنها تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها»(٣).

وقال صفوان بن عمر عن شريح بن عبد الله عن يزيد بن ميسرة قال: قال الحواريون للمسيح ﷺ: «يا مسيح الله انظر إلى مسجد الله ما أحسنه قال: آمين آمين بحق ما أقول لكم لا يترك الله من هذا المسجد حجراً قائماً إلا أهلكه بذنوب أهله.

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٨٩.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٨٩.
(٣) ابن كثير، المرجع السابق، ج٢، ص٩٠.

إن الله لا يصنع بالذهب ولا بالفضة ولا بهذه الأحجار التي تعجبكم شيئاً، إن أحب إلى الله منها القلوب الصالحة وبها يعمر الله الأرض وبها يخرب الله الأرض إذا كانت على غير ذلك»[١].

كذلك كان المسيح ﷺ يذكر أصحابه بالموت، فذكر مرة أنه كان بصحبة حوارييه فقال لهم مخاطباً: «يا معشر الحواريين ادعوا الله أن يهون عليكم هذه السكرة»[٢] يعني سكرة الموت.

وقد روي عن وهب بن منبه أن عيسى عليه السلام وقف وأصحابه على قبر وصاحبه يدلّى فيه فجعلوا يذكرون القبر وضيقه فقال: «قد كنتم فيما هو أضيق منه من أرحام أمهاتكم فإذا أحبّ الله أن يوسع وسع»[٣].

كذلك روي عن عيسى عليه السلام أنه مرّ وأصحابه بجيفة فقالوا: «ما أنتن ريحها. فقال: ما أبيض أسنانها لينهاهم عن الغيبة»[٤].

وكان عيسى عليه السلام يعلّم حوارييه أيضاً كيف يعامل بعضهم بعضاً، وكيف تكون لهم الأخلاق الحميدة إضافة إلى تعليمه إياهم الزهد في الدنيا لأنها ليست بدار قرار.

فقد ذكر عن عبد الله بن المبارك عن سفيان بن عيينة عن خلف بن حوشب قال: قال عيسى عليه السلام للحواريين يوماً: «كما ترك لكم الملوك الحكمة فكذلك فاتركوا لهم الدنيا»[٥]. وقد ذكر قريب من ذلك في الأمثال «ازهد في أيدي الناس يحببك الناس».

وعن عبد الله بن دينار عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال عيسى عليه السلام للحواريين «كلوا خبز الشعير واشربوا الماء القراح واخرجوا من الدنيا سالمين آمنين بحق ما أقول لكم، إن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة وإن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة وأن عباد الله ليسوا بالمتنعمين بحق ما أقول لكم إن شركم عالم يؤثر هواه على علمه يود أن الناس كلهم مثله»[٦].

---

(١) المرجع نفسه، ج٢، ص٩٠.

(٢) القرطبي الجامع لأحكام القرآن، ج١٧ - ١٨، ص١٢ - ١٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٨٧.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٩١. وقد ورد في السنة الشريفة أحاديث عن القبر منها قوله ﷺ: «القبر روض من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار».

(٤) رواه مالك بن دينار. وانظر ابن كثير، المرجع السابق، ج٢، ص٨٩.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٨٨.

(٦) ابن كثير، المرجع السابق، ج٢، ص٨٨.

هذا المعلم الكبير كيف كانت نظرته إلى نفسه؟ فقد كان ليّن القلب متواضع النفس، ليّن الجانب. وقد ذكر قتادة أن عيسى عليه السلام كثيراً ما كان يقول لأصحابه وأتباعه: «سلوني فإني ليّن القلب وإني صغير عند نفسي»[١].

وكان من كثرة زهده وتواضع نفسه لا يملك شيئاً من الدنيا، وحيثما أمسى أمضى ليله، لذلك كثيراً ما كان يفقده أصحابه لأنه كان كثير التأمل بالله، كثير التنقل.

وافتقده أصحابه مرة وخرجوا للبحث عنه كعادتهم، فلما انتهوا إلى البحر وجدوه يمشي على الماء. قال أبو بكر بن أبي الدنيا عن... بكر بن عبد الله المزني قال: «فقد الحواريون نبيهم عيسى فقيل لهم توجه نحو البحر فانطلقوا يطلبونه فلما انتهوا إلى البحر إذا هو يمشي على الماء يرفعه الموج مرة ويضعه أخرى وعليه كساء مرتد بنصفه ومؤتزر بنصفه حتى انتهى إليهم فقال له بعضهم: قال أبو هلال: ظننت أنه من أفاضلهم ألا أجيء إليك يا نبي الله؟ قال: بلى. قال: فوضع إحدى رجليه على الماء ثم ذهب ليضع الأخرى فقال: أوه غرقت يا نبي الله. فقال: أرني يدك يا قصير الإيمان لو أن لابن آدم من اليقين قدر شعيرة مشى على الماء»[٢].

(١) ابن كثير، المرجع نفسه، ج٢، ص٨٨.

(٢) رواه أبو سعيد ابن الأعرابي عن إبراهيم بن أبي الجحيم عن سليمان بن حرب عن أبي هلال عن بكر نحو ذلك. انظر ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٨٧.

الفصل الرابع

معجزات المسيح

ومقارنتها بمعجزات عدد من الرسل

معجزات المسيح في القرآن الكريم

ذكر الله سبحانه وتعالى معجزات المسيح عليه السلام في عدة مواضع من القرآن الكريم، منها ما ورد في سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران: ٤٥ ـ ٥١].

وقال سبحانه أيضاً في سورة المائدة: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ﴾ [المائدة: ١١٠].

وحول آية المائدة هذه ذكر سيد قطب أن الله تبارك وتعالى كان يذكّر عيسى عليه السلام بنعمه عليه وعلى أمّه «... ومن تأييده بروح القدس في مهده، وهو يكلم الناس في غير موعد الكلام؛ ويبرّىء أمّه من الشبهة التي أثارتها ولادته على غير مثال؛ ثم وهو يكلمهم في الكهولة يدعوهم إلى الله... وروح القدس جبريل عليه السلام يؤيده هنا وهناك... ومن تعليمه الكتاب والحكمة؛ وقد جاء إلى هذه الأرض لا

يعلم شيئاً، فعلّمه الكتابة وعلّمه كيف يحسن تصريف الأمور، كما علّمه التوراة التي جاء فوجدها في بني إسرائيل، والإنجيل الذي آتاه إياه مصدقاً لما بين يديه من التوراة. ثم من إيتائه خارق المعجزات التي لا يقدر عليها بشر إلا بإذن الله. فإذا هو يصوّر من الطين كهيئة الطير بإذن الله؛ فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله ـ لا ندري كيف لأننا لا ندري إلى اليوم كيف خلق الله الحياة، وكيف يبث الحياة في الأحياء ـ وإذا هو يبرىء المولود أعمى بإذن الله حيث لا يعرف الطب كيف يرد إليه البصر. ولكن الله الذي يهب البصر أصلاً قادر على أن يفتح عينيه للنور ويبرىء الأبرص بإذن الله، لا بدواء، والدواء وسيلة لتحقيق إذن الله في الشفاء، وصاحب الإذن قادر على تغيير الوسيلة، وعلى تحقيق الغاية بلا وسيلة. وإذا هو يحيي الموتى بإذن الله، وواهب الحياة أول مرة قادر على رجعها حين يشاء. ثم يذكره بنعمة الله على حمايته من بني إسرائيل إذ جاءهم بهذه البينات كلها فكذّبوه وزعموا أن معجزاته هذه الخارقة سحر مبين!...»(١).

وتمضي الآية في سياقها بأن الله قد أيّد نبيه عيسى عليه السلام منذ ولادته ونطقه بالمهد بتأييد الروح القدس له. لذلك وقبل الكلام عن المعجزات ومقارنتها مع معجزات عدد من الرسل، لا بد من الوقوف أمام تأييد الله لرسوله عيسى عليه السلام بالروح القدس، وما هي المعاني التي اشتملت عليها هذه الكلمة.

فقد وردت عدة آيات بيّنات حولها، منها:

ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ﴾ [البقرة: ٨٧].

ـ ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

ـ ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ﴾ [المائدة: ١١٠].

وروح القدس الذي ذكره القرآن الكريم هو سيدنا جبريل عليه السلام، وهو الذي نزل بالقرآن على قلب سيدنا محمد ﷺ بأمر الله، ورافق سيدنا عيسى عليه السلام في حياته على الأرض، وأيّد موسى كليم الله عليه السلام، ورفع جبل الطور على بني إسرائيل، وخرب

(١) في ظلال القرآن، م٢، ص٩٩٧.

مدينة إنطاكية عندما جاءها اثنان من المرسلين وعزّزهم رب العالمين بثالث ولم يرتجعوا إلى الله، وهو الذي ناجى خليل الله إبراهيم عليه السلام عندما وضعه قومه في جبل من الحطب يريدون إحراقه... إلخ.

فعلاقة روح القدس كانت مع الرسل والأنبياء جميعهم وليست مع سيدنا عيسى فقط... علماً أنه كان مرافقاً لعيسى عليه السلام طوال حياته.

كلام المسيح بالمهد:

قال تعالى في سورة المائدة، الآية ١١٠: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾.

فالمهد إشارة للطفولة. ومعنى الآية الكريمة: «إنك يا عيسى تكلم الناس في هاتين الحالتين من غير تفاوت ما بين الطفولة والكهولة»(١) ولم ينفرد المسيح عليه السلام بالكلام بالمهد بل هناك غيره كما سبق وذكر.

معجزة خلق الطير:

حدثت معجزة خلق الطير عندما طلب بنو إسرائيل من عيسى عليه السلام، على سبيل التعنت، أن يخلق لهم خفاشاً فلما فعل قالوا: «ساحر وإنما طلبوا هذا النوع دون غيره لأنه أكمل الطير خلقاً وأبلغ دلالة على القدرة لأن له ناباً وأسناناً، ويحيض، ويلد. ويطير بغير ريش، وله آذان، وثدي، وضرع، ويخرج منه اللبن، ويرى ضاحكاً كما يضحك الإنسان، ولا يملك القدرة على الرؤية، وإنما يرى في ساعتين، بعد غروب الشمس ساعة، وبعد طلوع الفجر ساعة قبل الإسفار، والمشهور أنه لم يخلق غير الخفاش، وقيل: خلق أنواعاً من الطير»(٢).

وقد أخرج ابن جرير عن إسحاق «أن عيسى عليه السلام جلس يوماً مع غلمان، فأخذ طيناً، ثم قال: أجعل لكم من هذا الطين طائراً؟ قالوا: أَوَتستطيع ذلك؟ قال: نعم بإذن ربي، ثم هيأه حتى إذا جعله في هيئة الطائر نفخ فيه، ثم قال: كن طائراً بإذن الله تعالى فخرج يطير من بين كفيه»(٣).

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٦٥٣.
(٢) الألوسي، روح المعاني، ج٣، ص١٦٨.
(٣) الألوسي، روح المعاني، ج٣، ص١٦٨.

معجزة إبراء الأكمه والأبرص:

خاطب رب العزة عيسى عليه السلام في القرآن الكريم بقوله: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾. والأكمه قيل فيه: إنه الذي لا يبصر نهاراً ولا يبصر ليلاً، وقيل: هو الذي يولد أعمى، وهو أشبه لأنه أبلغ في المعجزة وأقوى في التحدي[١]، «والأبرص» أي: الذي فيه برص وهو وجود البياض في الجلد.

وقد ذكر شفاء الأكمه والأبرص في الأناجيل، إنما باختلاف عددهم بين إنجيل وآخر، أو باختلاف المواقع[٢].

---

(١) ابن كثير، فتح القدير تهذيب ابن كثير، تحقيق محمد أحمد كنعان، ج١، ص٤٨٠.

(٢) فقد ذكر متّى في إنجيله، الإصحاح الثامن، العدد ١ ـ ٣ قوله: «ولما نزل من الجبل تبعته جموع كثيرة. وإذا أبرص قد جاء وسجد له قائلاً: يا سيد إن أردت تقدر أن تطهرني، فمدّ يسوع يده ولمسه قائلاً: أريد فاطهر. فللوقت طهر برصه». (ذكر رحمه الله الهندي في كتابه، إظهار الحق، تحقيق عمر الدسوقي، ص١٠٢، ما نصه: «كتب متى في الباب ـ تعني الإصحاح ـ الثامن أولاً شفاء الأبرص بعد وعظ الجبل، ثم شفاء عبد المائة بعدما دخل عيسى عليه السلام كفر ناحوم، ثم شفاء حماة بطرس، كتب لوقا ـ إنجيل لوقا ـ في الباب الرابع أولاً شفاء حماة بطرس ثم في الباب الخامس شفاء الأبرص ثم في الباب السابع شفاء عبد قائد المائة، فأحد البيانين غلط».

أما علاج المسيح للعمي ـ الأكمه ـ ففي الأناجيل اختلاف حول عددهم فبينما ذكر متّى في إنجيله أنهم اثنان، وذلك في قوله «وفيما يسوع مجتاز من هناك تبعه أعميان يصرخان ويقولان ارحمنا يا ابن داود. ولما جاء إلى البيت تقدم إليه الأعميان. فقال لهما يسوع أتؤمنان أني أقدر أن أفعل هذا؟ قالا له: نعم يا سيد. حينئذ لمس أعينهما قائلاً: بحسب إيمانكما ليكن لكما. فانفتحت أعينهما». (إنجيل متى، الإصحاح التاسع، العدد ٢٧ ـ ٣٠).

بينما ذكر متّى ذلك فإن مرقس في إنجيله يذكر أنه واحد واسمه بارتيماوس وذلك قوله: «وجاؤوا إلى أريحا. وفيما هو خارج من أريحا مع تلاميذه وجمع غفير كان بارتيماوس الأعمى ابن تيماوس جالساً على الطريق يستعطي. فلما سمع أنه يسوع الناصري ابتدأ يصرخ ويقول يا يسوع ابن داود ارحمني. فانتهره كثيرون ليسكت. فصرخ أكثر كثيراً يا ابن داود ارحمني. فوقف يسوع وأمر أن ينادي. فنادوا الأعمى قائلين له ثق. قم. هو ذا يناديك. فطرح رداءه وقام وجاء إلى يسوع. فأجاب يسوع وقال له ماذا تريد أن أفعل بك. فقال له الأعمى يا سيدي أن أبصر. فقال له يسوع اذهب. إيمانك قد شفاك. فللوقت أبصر وتبع يسوع في الطريق». (إنجيل مرقس، الإصحاح العاشر، العدد ٤٦ ـ ٥٢).

أما بالنسبة للأصم والأبكم فيبدو أن هناك اختلافاً كبيراً، إذ ذكر مرقس في إنجيله أنه واحد بينما ذكر متّى أنه جمٌّ غفير. (وانظر رحمة الله الهندي، إظهار الحق، تحقيق عمر الدسوقي، ص١٠٨).

فقد ذكر مرقس في إنجيله متكلماً عن المسيح عليه السلام «ثم خرج أيضاً من تخوم صور وصيدا وجاء =

يوسف ومعجزة الشفاء كانت بإذن الله:

قام نبي الله يوسف عليه السلام بشفاء أبيه من العمى بإذن الله وهو بعيد عنه مئات الكيلومترات حيث كان يوسف عليه السلام في مصر وأبوه يعقوب (إسرائيل الله) عليه السلام في فلسطين.

قال تعالى في سورة يوسف في القرآن الكريم، الآيات ٩٣ ـ ٩٦، على لسان يوسف عليه السلام: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

الغلام يشفي الأكمه والأبرص بإذن الله كالمسيح:

أشار القرآن الكريم في قصة غلام أيده الله بنصره، غلام وهبه الله نعمة القدرة على شفاء الأكمه والأبرص بإذن الله.

= إلى بحر الجليل في وسط حدود المدن العشر. وجاؤوا إليه بأصم أعقد وطلبوا إليه أن يضع يده عليه. فأخذه من بين الجمع على ناحية ووضع أصابعه في أذنيه وتفل ولمس لسانه. ورفع نظره نحو السماء وقال له إفّثا. أي انفتح. وللوقت انفتحت أذناه وانحلّ رباط لسانه وتكلم مستقيماً. فأوصاهم أن لا يقولوا لأحد. ولكن على قدر ما أوصاهم كانوا ينادون أكثر كثيراً». (إنجيل مرقس، الإصحاح السابع، العدد ٣١ ـ ٣٦).

أما متّى فقد ذكر في إنجيله «ثم انتقل يسوع من هناك وجاء إلى جانب بحر الجليل. وصعد إلى الجبل وجلس هناك. فجاء إليه جموع كثيرة معهم عرج وعمي وخرس وشل وآخرون كثيرون. وطرحوهم عند قدمي يسوع ـ أي المسيح عليه السلام ـ فشفاهم. حتى تعجب الجموع إذ رأوا الخرس يتكلمون والشل يصحون والعرج يمشون والعمي يبصرون. ومجّدوا إله إسرائيل». إنجيل متى، الإصحاح الخامس عشر، العدد ٢٩ ـ ٣١. (ذكرت الأناجيل قدرات أخرى للمسيح عليه السلام حول شفاء المرضى والذين بهم مس، كالمجانين وغيرهم ـ واختلفت في أعدادهم ما بين إنجيل وآخر فعلى سبيل المثال لا الحصر كتب متّى في إنجيله في الإصحاح الثامن أن المسيح عليه السلام لما جاء إلى العبر إلى كورة الجدريين استقبله مجنونان خارجان من القبور فشفاهما، بينما مرقس ذكر في إنجيله، الإصحاح الخامس، ولوقا أيضاً في إنجيله في الإصحاح الثامن أنه استقبله هناك مجنون واحد خارجاً من القبور فشفاه ـ لمزيد من التفصيل انظر رحمة الله الهندي، المرجع السابق، ص١٠٥ ـ ١٠٦).

هذا، ولم يقم المسيح عليه السلام وحده بشفاء المرضى حسب روايات النصارى بل الحواريون أيضاً. وكتب النصارى من الأناجيل وأعمال الرسل... إلخ حافلة بالقصص.

قال تعالى في سورة البروج: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [٤ ـ ٨].

وقد روى أحمد عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر الساحر قال للملك: إني قد كبرت سني وحضر أجلي، فادفع إليّ غلاماً لأعلّمه السحر، فدفع إليه غلاماً يعلّمه السحر، فكان في طريقه، إذا سلك، راهبٌ. فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه وقال: ما حبسك؟ وإذا أتى أهله ضربوه وقالوا: ما حبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا أراد الساحر أن يضربك فقل: حبسني أهلي، وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل: حبسني الساحر، قال: فبينما هو كذلك، إذ أتى ذات يوم على دابة فظيعة عظيمة قد حبست الناس، فلا يستطيعون أن يجوزوا، فقال: اللهم اليوم أعلم، إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من الساحر، فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس، ورماها فقتلها ومضى الناس، فأخبر الراهب بذلك، فقال: أي بني، أنت أفضل مني، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل علي، فكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص، وسائر الأدواء، ويشفيهم، وكان للملك جليس فعمي، فسمع به فأتاه بهدايا كثيرة فقال: اشفني، فقال: ما أنا أشفي أحداً، إنما يشفي الله عزّ وجل، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك، فآمن فدعا الله فشفاه، ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس، فقال له الملك: يا فلان من رد عليك بصرك؟ فقال: ربي، فقال: أنا؟ قال: لا، ربي وربك الله، قال: أوَلك رب غيري؟ قال: نعم ربي وربك الله، فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الغلام، فبعث إليه فقال: أي بني، بلغ من سحرك أن تبرىء الأكمه والأبرص وهذه الأدواء؟ قال: ما أشفي أحداً، إنما يشفي الله عزّ وجل، قال: أنا؟ قال: لا، قال: أوَلك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله، فأخذه أيضاً بالعذاب، فلم يزل به حتى دلّ على الراهب، فأتى بالراهب فقال: ارجع عن دينك فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه، وقال للغلام: ارجع عن دينك فأبى، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا وقال: إذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه وإلا فدهدهوه[١] من فوقه، فذهبوا به، فلما علوا به الجبل قال: اللهم اكفنيهم[٢] بما شئت فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعون، وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى،

---

(١) دهدهوه: أي ارموه من فوق الجبل.

(٢) اكفنيهم: جنبني شرهم.

فبعث به مع نفر في قرقور[١]، فقال: إذا لججتم[٢] به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فغرقوه في البحر، فلججوا به البحر، فقال الغلام: اللهم اكفنيهم بما شئت، فغرقوا أجمعون وجاء الغلام حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى، ثم قال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتني، وإلا فإنك لا تستطيع قتلي، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، ثم تصلبني على جذع، وتأخذ سهماً من كنانتي ثم قل: بسم الله رب الغلام، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، ففعل ووضع السهم في كبد قوسه ثم رماه وقال: بسم الله رب الغلام، فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، فقيل للملك: أرأيت ما كنت تحذر؟ فقد والله نزل بك، قد آمن الناس كلهم، فأمر بأفواه السكك فخدَّت فيها الأخاديد، وأضرمت فيها النيران، وقال من رجع عن دينه فدعوه وإلا فاقتحموه فيها، قال: فكانوا يتعادون[٣] فيها ويتدافعون، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكأنها تقاعست أن تقع في النار، فقال الصبي: اصبري يا أماه فإنك على الحق»[٤].

معجزة إحياء الموتى لدى المسيح:

قال تعالى: ﴿تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِىٓ﴾ أي: تخرجهم من القبور وتبعثهم بإذن الله[٥]. قال الألوسي، وكان إحياؤه للموتى عليه السلام بالدعاء وكان دعاؤه ـ يا حي يا قيوم ـ وأنه عليه السلام «كان إذا أراد أن يحيي الموتى صلّى ركعتين... فإذا فرغ مدح الله تعالى وأثنى عليه ثم دعا بسبعة أسماء يا قديم. يا خفي. يا دائم. يا فرد. يا وتر. يا أحد. يا صمد»[٦].

وعن ابن عباس أنه قال: قد أحيا عليه السلام أربعة أنفس بإذن الله تعالى، عازر، وابن العجوز، وابنة العاشر، وسام بن نوح[٧]. فأما عازر فكان صديقاً له فأرسلت أخته إلى

---

(١) قرقور: قارب صغير.
(٢) لججتم: مكان الموج الكثير من البحر.
(٣) يتعادون: يتجاوز بعضهم بعضاً إلى النار.
(٤) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الزهد باب ١٧، والنسائي، وأبو عيسى الترمذي.
(٥) الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٦٥٣.
(٦) لمزيد من التفصيل انظر الألوسي، المرجع السابق، ج٣، ص١٦٩.
(٧) قيل: أخرج سام بن نوح ورجلين وامرأة وجارية، والله أعلم. الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٦٥٣.

عيسى أن أخاك عازر مات وكان بينه وبين عازر مسيرة ثلاثة أيام فأتاه هو وأصحابه فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيام فقال لأخته: انطلقي بنا إلى قبره فانطلقت معهم إلى قبره فدعا عيسى الله تعالى فقام عازر ـ بإذن الله ـ ودمه يقطر فخرج من قبره وبقي زماناً وولد له.

وأما ابن العجوز فكان ميتاً محمولاً على سرير، فمرّ به عيسى عليه السلام ودعا الله تعالى له فأعاده حياً ـ بإذن الله ـ فجلس على سريره ونزل عن أعناق الرجال ولبس ثيابه وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله فبقي زماناً وولد له.

وأما ابنة العاشر فكان أبوها رجلاً يأخذ العشور ماتت له بنت بالأمس فدعا الله تعالى وأحياها وبقيت زماناً وولد لها[1].

وأما سام بن نوح فإن عيسى عليه السلام جاء إلى قبره فدعا باسم الله تعالى الأعظم فخرج من قبره وقد شاب نصف رأسه خوفاً من قيام الساعة ولم يكونوا يشيبون في ذلك الزمان فقال: أقد قامت الساعة؟ قال: لا ولكن دعوتك باسم الله تعالى الأعظم ثم قال له: مت. قال: بشرط أن يعيذني الله تعالى من سكرات الموت فدعا الله تعالى له ففعل.

وفي بعض الآثار أن إحياءه ساماً كان بعد قولهم له عليه السلام إنك تحيي من كان قريب العهد من الموت ولعلهم لم يموتوا بل أصابتهم سكتة فأحي لنا سام بن نوح فأحياه وكان بينه وبين موته أكثر من أربعة آلاف سنة، فقال للقوم: صدّقوه فإنّه نبي فآمن به بعضهم وكذبه آخرون[2].

---

(١) ذكرت الأناجيل معجزة عيسى عليه السلام في إحياء الموتى غير أنها مختلفة من إنجيل لآخر، فمثلاً حادثة إحياء ابنة الرئيس، فقد ذكر متّى في إنجيله، الإصحاح التاسع، العدد ١٨ قوله: «وفيما يكلمهم ـ أي عيسى عليه السلام ـ بهذا إذا رئيس قد جاء فسجد له قائلاً إن ابنتي الآن ماتت. لكن تعال وضع يدك عليها فتحيا».

أما مرقس فيذكر حادثة إحياء ابنة الرئيس، في الإصحاح الخامس، العدد ٢٢ ـ ٢٤ بقوله: «وإذا واحد من رؤساء المجمع اسمه «يابروس» جاء، ولما رآه خرّ عند قدميه، وطلب إليه كثيراً قائلاً: «ابنتي الصغيرة على آخر نسمة ليتك تأتي وتضع يدك عليها لتشفى فتحيا. فمضى معه وتبعه جمع كثير وكانوا يزحمونه».

فبينما الأول يقرر موت الصبية يذكر الآخر أنها قاربت الموت.

(٢) الألوسي، روح المعاني، ج٣، ص١٦٩ ـ ١٧٠. هذا وقد ذكر في كتاب حواشي ابن المحرومة لابن كمونة، تحقيق المطران حبيب باشا، المكتبة البولسية، لبنان، ١٩٨٤، ص٦٠ و٦١ قوله: =

....

= (أن معجزات موسى أعظم وأقل تعرضاً لشبهة الحيلة والتواطؤ من معجزات المسيح وأصحابه.
ومن غير أن يطعن ابن المحرومة في معجزات موسى ـ الذي يجلّه ويؤثره على غيره من أنبياء العهد القديم ـ نراه يجابه بشدة محاولات ابن كمونة النيل من معجزات السيد المسيح وأصحابه. «فموسى ما أبرأ أكمه ولا أحيا ميتاً ولا أقام زمناً ولا طهر أبرص».
وأما أن تكون معجزات السيد المسيح وأصحابه قد وقعت بالحيلة أو بالتواطؤ فمردود بدليل أنها تمّت بمشهد من المقاومين والمعارضين، وأنها «عمّت في الأصقاع أضعاف أضعاف ما عمّته معجزات موسى. وعمّت من البشر. . . خلقاً يزيد مبلغ بعضه على جملة أهل زمان موسى. . وفي طي ذلك الخلق من الأمم المختلفة والممالك العديدة التي دخلت في دين النصرانية بسبب تلك المعجزات ما لا يسع المعاند النزاع في أنه أكثر من جملة اليهود الذين كانوا في زمان موسى بأضعاف الأضعاف»).
ويضيف الكاتب في المرجع السابق ص٦٥ قائلاً: (وفي معرض الرد على ادعاءات ابن كمونة بأن موسى أسمى شأناً من السيد المسيح، «وقد كلمه الله مراراً لا تحصى ولم يكلم ولده وحبيبه إلا مرة واحدة، إذ جاءه صوت من السماء يقول: مجدت وأيضاً أمجد». إنجيل يوحنا، الإصحاح ١٢، العدد ٢٨، فيجيب ابن المحرومة أن «في شرف السيد المسيح الباطن غنى عن كل شرف ظاهر»، «وأن المخاطبة تكون لمن بينه وبين المخاطب حجاب يستر عنه الأمر المخاطب به. ونحن لا نعتقد أن بين السيد المسيح وبين الله حجاباً، وإلا لتكررت المخاطبة مراراً عديدة»).
أما في الإسلام فيعطي رأيه حول هذا الموضوع بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١] أما بشأن كلام موسى ﷺ قال تعال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤].
وفي مناظرة بين العلامة الشيخ أحمد ديدات واستانلي شوبيرج كبير قساوسة السويد ذكر ديدات قائلاً: «أنا أريد الدليل على أني قلت إن موسى أعظم من عيسى. لم أقل ذلك. هات نص كلماتي بالضبط. لقد قلت: «إن «معجزة موسى» أعظم من «معجزة عيسى» والفرق كبير بين التعبيرين.
لقد مات لعازر، وكان صديقاً حميماً لسيدنا عيسى. وجاءت أخته مرثا إلى السيد المسيح، وقالت له: إنه يبرىء المرضى وقد مات لعازر صديقه. وما دامت له مثل هذه القدرات الخاصة فلماذا لا يحاول أن يرد الحياة إلى أخيها. ولم يكن سيدنا عيسى قد مرّ بمثل هذه التجربة من قبل. قال يسوع: لو كان عندك إيمان فسيحيا. ومضى معها إلى المنزل. ويقول الإنجيل إن يسوع كان «يئن». كيف ولماذا يئن؟ لقد كان في الحقيقة يدعو الله ويتوسل إليه أن يعطيه القدرة على إنجاز هذه المهمة الخارقة للعادة. لقد كان يدعو الله بصوت خفيض أن يرد الحياة لعازر.
ولم يكن الناس يدركون ما يقوله ولذلك ظنوا أنه كان يئن. لقد كان يسوع في الحقيقة يتضرع إلى الله وكان يصلي قائلاً: يا رب أعطني القدرة كي أنجز المطلوب مني. إن الناس يتطلعون إلى ذلك. ولو أعطيتني القدرة يا رب فإن الناس سيصدقون أنك أرسلتني.
ونادى سيدنا عيسى على لعازر قائلاً: يا لعازر أخرج. وخرج لعازر كما لو كان مغمى عليه=

إحياء الموتى في القرآن الكريم:

ذكر إحياء الموتى في القرآن الكريم عدة مرات زمن النبيين عليهم السلام أجمعين.

وهذه المرات في الإحياء كانت على نوعين:

الأول: إحياء من جنس المخلوق نفسه.

الثاني: إحياء من جنس إلى آخر.

الأول: إحياء من جنس المخلوق نفسه:

ورد في القرآن الكريم عدة نماذج منها:

١ ـ ما جاء عن إبراهيم عليه السلام عندما سأل ربه عزّ وجل عن إحياء الموتى.

قال جلّ من قائل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: ٢٦٠].

٢ ـ ما ورد عن عُزَيْر عليه السلام الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها مهدمة، وتساءل كيف تعود الحياة إلى هذه القرية بعد الخراب والدمار الذي أصابها، من الذي سيحييها؟ وكان معه طعامه وشرابه يحملهما على حماره. فأماته الله مائة عام ثم أحياه وظنّ أنه لبث يوماً أو بعض يوم، وأمره الله تبارك وتعالى أن ينظر إلى طعامه فإذا هو لم يتغير طعمه ولونه ولم يخضع للمتغيرات الزمانية طيلة المائة عام وأراه الله كيف أحيا حماره.

= وكما لو لم يكن قد مات. هاللوليا!... يعني يا الله!.... ويقول النصارى، مئات الملايين من النصارى يقولون: إن عيسى قد أعطى الحياة للميت. كلا، إن «قدرة الله» التي وهبها الله لسيدنا عيسى «في هذا الموقف» هي التي ردّت الحياة إلى الميت.

ويقول القديس بطرس، وهو واحد من أخلص أتباع المسيح، يقول في أعمال الرسل: «إن يسوع الناصري رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب صنعها الله بيده في وسطكم كما أنتم أيضاً تعلمون» (أعمال الرسل ٢:٢٢). من الذي صنع العجائب؟ صنعها عيسى بقدرة الله! لقد كان يئن ولقد كان يتضرع إلى الله ويدعوه أن يمنحه القدرة». قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (كررت هذه الآية في سور كثيرة من القرآن الكريم مثل: سورة البقرة، الآيات ٢٠، و١٠٦، و١٠٩، و١٤٨، ومن سورة العنكبوت، الآية ٢٠، ومن سورة فاطر، الآية ١).

قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: ٢٥٩].

٣ ـ ما جاء عن قصة البقرة في عهد موسى كليم الله عليه السلام عندما جاءه قومه يتحاجون في قتيل يريدون معرفة قاتله فأمر قومه أن يضربوه ببعض من بقرة، وعندما فعلوا في نهاية المطاف أحياه الله وتكلم عن قاتله.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ٦٧ ـ ٧٣].

الثاني: إحياء من جنس إلى آخر:

شمل الكلام عن الإحياء في القرآن الكريم أيضاً إحياء نماذج من جنس إلى آخر منها:

١ ـ عصا موسى التي قُلبت حية، والعصا من جنس النبات فانقلبت في يده بإذن الله حية تسعى، ومعلوم أن الحية من جنس الحيوان وقد ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [طه: ١٧ ـ ٢١].

٢ ـ ناقة صالح التي تحولت بقدرة الله تعالى من صخرة في الجبل إلى ناقة كبيرة لها شرب يوم معلوم ولقوم صالح شرب يوم معلوم.

قال تعالى على لسان قوم صالح عندما قالوا له: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الشعراء: ١٥٣ ـ ١٥٨].

٣ ـ قصة عيسى عليه السلام عندما جعل من الطين كهيئة الطير ونفخ فيه فكان طيراً بإذن الله.

قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران: ٤٩].

فكل هذه الأمور تمّت بإذن الله.

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الرعد: ١٦].

وقال جلّ من قائل: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧].

وتحدّى الله خلقه في أن يخلقوا بعوضة ولو اجتمعوا.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: ٧٣].

وما يكون من أمر البشر في الخلق لا يكون إلا بإذن الله. وهو الفعّال لما يريد.

الادخار في البيوت:

قال تعالى: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩].

روي أنّ عيسى عليه السلام عندما أحيا سام بن نوح ونظره بنو إسرائيل قالوا له: هذا سحر فأرنا آية، فقال عليه الصلاة والسلام: «يا فلان أكلت كذا ويا فلان خبىء لك كذا»[١].

(١) الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٤٣١.

وقد أخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان اليهود يجتمعون على عيسى عليه السلام ويستهزئون به ويقولون له: يا عيسى ما أكل فلان البارحة وما ادّخر في بيته لغد؟! فيخبرهم ويسخرون منه حتى طال ذلك به وبهم»(١).

فهذا الإنباء والتنبؤ عن صفة الأنبياء والمرسلين، كتنبؤ يوسف عليه السلام عندما كان في السجن ومعه اثنان من السجناء اللّذان قصّا عليه رؤياهما فما كان منه إلا أن ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: ٣٧].

فالأنبياء مرسلون من معين واحد، ولا تفريق بينهم. قال تعالى على لسان المؤمنين: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، هذا إيمان المسلم لا تفريق بين عيسى وموسى ومحمد وإبراهيم ونوح وغيرهم عليهم السلام إذ دعوتهم التوحيد لله وإن اختلفت الشرائع.

مقارنة بين معجزات المسيح مع غيره في كتب النصارى:

لم ينفرد القرآن الكريم بذكر معجزات الأنبياء والمرسلين إضافة إلى عيسى عليه السلام، بل ذكر المعجزات وارد في الكتب النصرانية. وعلى سبيل المثال لا الحصر، هناك إحياء الموتى الذي لم ينفرد به عيسى عليه السلام، بل امتد إلى نبي الله إلياس عليه السلام الذي أحيا ابن الإسرائيلية، «وأحيا اليسع ميّتين، الواحد في حال حياته والآخر بعد موته. وروي عن سفر الملوك من كتبهم أن قوماً حملوا ميّتاً وذهبوا به إلى المقابر، فرأوا عدوًّا، فطرحوا الجنازة عن رقابهم وابتدروا المدينة، فقام الميت يتبعهم حتى لحقهم حياً فنظروا فإذا هم قد طرحوه على قبر اليسع»(٢). وقد روي أن حزقيال أحيا آلافاً من بني إسرائيل كان بختنصر قد قتلهم ولهم من يوم قتلوا مائة وستون سنة»(٣)، وذلك أعجب من إحياء العاذر وابن الأرملة وابن الرئيس. وأما فتح عيني الأكمه وتسويتهما طيناً وغسلهما بالماء، فخلق عينين باصرتين بخشبة من الخشب أغرب من رد الصحة إلى جارحة متهيئة قابلة لذلك. وقد شهدت التوراة أن موسى عليه السلام كان

---

(١) الألوسي، روح المعاني، ج٣، ص١٧٤ و١٧٥.
(٢) سفر الملوك الثاني، الإصحاح ١٣، العدد ٢١.
(٣) نبوة حزقيال، الإصحاح ٢٧، العدد ١ ـ ١٤.

يقلب عصاه حية ذات عينين تبصر بهما وتقصد ما أرادت، وتتوجه إلى حيث شاءت»[١]. وقد ضرب الرمل بعصاه فانثال قملاً حتى ملأ أرض مصر، لكل واحدة عينان»[٢]. ثم عصاه هذه كانت أعجوبة من العجائب كيف أرادها[٣]، «فبينما هي خشبة إذ حوّلها إلى حيّة وبينما هي حيّة إذ صيّرها شجرة مثمرة طارحة جوزاً، ذات أغصان وأفنان، وبينما هي كذلك إذ أعادها إلى حالها الأول»[٤]. ثم إنه يستدعي بها الجراد والقمل والضفادع، وينزل بها الثلوج، ويجري المياه ويشق البحر، وينبع الماء من الصخر[٥]، فتنفذ في كل الأعمال نفوذاً تاماً، وذلك يُربى على آيات المسيح ﷺ. وقد فتح يوسف عيني أبيه يعقوب، كما شهدت بذلك التوراة. وأما تطهير الأبرص، فقد حكوا في سفر الملوك: «أن رجلاً تبرص، فقصد اليسع عليه السلام ليبرئه من علته، فاستأذن عليه فلم يأذن له، وقال بعض أصحابه: قولوا له يذهب إلى نهر الأردن فيغمس فيه فيبرأ. فذهب، ففعل فبرىء من برصه، فرجع إلى بلاده، فاتبعه غلام اليسع وأوهمه أن اليسع أرسله يطلب مالاً، ففرح الرجل وأعطاه مالاً نفيساً، ثم جوهراً ثميناً، فأخفاه وادخره لنفسه، ثم عاد فقال له النبي عليه السلام: مضيت إلى الرجل

---

(١) سفر الخروج، الإصحاح ٤، عدد ٣ والإصحاح ٧، العدد ٩.

(٢) سفر الخروج، الإصحاح ٨، عدد ١٢.

(٣) لمزيد من التفصيل انظر أبا البقاء صالح بن الحسين الجعفي، الرد على النصارى، تحقيق د. محمد محمد حسنين، ص٦٨.

(٤) سفر العدد، الإصحاح ١٧، العدد ٢٣ ـ ٢٤.

(٥) من معجزات الرسول محمد ﷺ ما رواه أنس بن مالك، قال: أتى النبي ﷺ بإناء وهو بالزوراء فوضع يده في الإناء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ القوم. قال قتادة: قلت لأنس: كم كنتم؟ قال: ثلاث مائة، أو زهاء ثلاث مائة». صحيح البخاري، باب الوضوء، حديث رقم ٣٢ والأحاديث في هذا المجال كثيرة.

هذا، وقد جاء في كتاب الرد على النصارى لأبي البقاء صالح بن الحسين الجعفي ص٩٨ «أن في أحاديث نبع الماء ما هو مساوٍ لآية موسى عليه السلام في استنباطه الماء من الحجر الصوان وفيها ما هو أبهر للعقول من ذلك، إذ نبع الماء من الأرض والحجر معتاد مألوف، فأما نبع الماء من بين أصابع آدمي فهو العجيب الذي لا يدخل تحت مقدور البشر. فإن نازع في ذلك أحد من اليهود قلنا له: من أين صحّ لك أن موسى فجّر الماء من حجر الصوان؟ أذلك شيء شاهدتموه أم هو الخبر الصريح والنقل الصحيح المستفيض؟ فإن أسندوا ذلك إلى النقل والرواية قيل لهم: من أنصار رواياتك، وهم المشهود عليهم في التوراة بالفسق والعتو والغلط والقسوة أولى بصحة النقل من رواة آيات محمد ﷺ، وهم المشهود لهم في القرآن بالدين والإيمان والحلم والعدالة؟».

وأوهمته عني كيت وكيت، وأخذت منه كذا وكذا من المال وأخفيته في موضع كذا وكذا، وفعلت ذلك؟ فليصر برصه عليك وعلى نسلك. وبرص الرجل مكانه[١] وذلك أعجب من فعل المسيح، أبرأ الرجل، وبرص الرجل ونسله. وقد شهدت التوراة أن أخت موسى تغيرت على أخيها موسى ونفست عليه، فبرصت فرقّ عليها ودعا لها فعوفيت[٢] وذلك أبدع، لأنه أمرض وعافى. وأما مشيه على الماء، فقد مشى إلياس واليسع على صفحة نهر الأردن[٣]. وكذلك يوشع مشى على البحر بتابوت الشهادة[٤]. وأما تحويل الماء خمراً، كما حكاه يوحنا في إنجيله، فقد حكوا لنا عن نبي من أنبيائهم أنه حوّل الماء زيتاً حينما نزل بامرأة من بني إسرائيل فأكرمته وأضافته، فقال حين أراد الانصراف: ألك حاجة؟ فقالت: يا نبي الله إن على زوجي دَيناً قد قرضه، فإن رأيت أن تدعو الله لنا فقال لها: استعيري الساعة من جيرانك ما قدرت عليه من الأواني وأحضري لي ما عندك من ذلك، ففعلت، فأمرها أن تملأ الجميع ماء، ثم اتركيه ليلتك، ففعلت، فأصبحت فوجدت ذلك كله زيتاً فباعوه وقضوا دينهم» وقد شهد بذلك سفر الملوك من كتبهم. وأما تكثير الطعام، فقد حكى الإنجيل أن المسيح ﷺ أطعم خمسة آلاف من خمس خبزات وحوتين وفضلت كسر كثيرة ملأوا منها اثني عشر زنبيلاً. وقد زادت آية موسى على ذلك زيادة عظيمة لذا شهدت التوراة «أنه أطعم ستمائة ألف من بني إسرائيل منًّا وسلوى»، وذلك أعجب من آية الإنجيل. «وقد نزل إلياس النبي بامرأة أرملة في زمان قحط فأحضرت كفاً من دقيق، فبارك فيه، فأقام عندها ستة أشهر تأكل منه هي وأهلها وجيرانها حتى فرج الله عن الناس»[٥].

الغاية من معجزات المسيح:

يذكر ابن كثير في كتابه البداية والنهاية قوله: إنه «كانت معجزة كل نبي في زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان فذكروا أن موسى ﷺ كانت معجزاته بما يناسب أهل زمانه، وكانوا سحرة أذكياء، فبعث بآيات بهرت الأبصار، وخضعت لها الرقاب، ولما

---

(١) سفر الملوك الثاني، الإصحاح ٥، العدد ١٠ ـ ٢٧.

(٢) سفر العدد، الإصحاح ١٢، العدد ١٠ وما يليه.

(٣) سفر الملوك الثاني، الإصحاح ٢، العدد ٨.

(٤) يوشع، الإصحاح ٣، العدد ١٦، ١٧.

(٥) أبو البقاء صالح بن الحسين الجعفي، الرد على النصارى، تحقيق د. محمد محمد حسنين، ص٦٩ ـ ٧٠.

كان السّحرة خبيرين بفنون السّحر وما ينتهي إليه، وعاينوا ما عاينوا من الأمر الباهر الهائل الذي لا يمكن صدوره إلا عمن أيده الله، وأجرى الخارق على يديه تصديقاً له ـ أسلموا سراعاً، ولم يتلعثموا. وهكذا عيسى ابن مريم بعث زمن الطبائعية فإنه لا شك يصدم هؤلاء فيما يألفون، وفيما وجدوا عليه سابقيهم»(١).

ولما اشتهر عصر المسيح عليه السلام بالطب جاءت معجزاته خارقة من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى... وذلك تبياناً لهم بأن هذه الأشياء خارقة للعادة وقد اشتهر بها بغية تصديقه ليدعو الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

وفي استعراض سريع لمعجزات المسيح عليه السلام يتبين أنها منحصرة في أنه:

١ ـ مولود من أم دون أب، ومن روح الله ومثله كمثل آدم.

٢ ـ تكلم في المهد ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾.

٣ ـ جعل من الطين كهيئة الطير فنفخ فيه فكان طيراً بإذن الله.

٤ ـ أبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله.

٥ ـ أحيا الموتى بإذن الله.

٦ ـ أنبأ الناس بما يأكلون وما يدّخرون في بيوتهم.

٧ ـ كان مُلازَماً من الروح القدس.

وكل هذه المعجزات شاركه فيها عدد من الأنبياء عليهم السلام أجمعين إلا أن هذه المعجزات كانت منحصرة كلها في شخص واحد من عباد الله هو عيسى ابن مريم عليه السلام.

المسيح جاء ليتمّم التوراة وليحل لليهود بعض ما حرم عليهم:

لم تكن معجزات المسيح عليه السلام إلا تأكيداً على صدق نبوته ورسالته، ومن ضمن رسالته التي بُعث بها أنه أُرسل ليتمّم التوراة وليحل بعض ما حرّم على بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢. وانظر محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص٢١ و٢٢.

فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران: ٤٨ ـ ٥٠].

ولما أراد الله تبارك وتعالى التخفيف عنهم أرسل لهم المسيح عليه السلام ليحل لهم بعض الذي حرم عليهم في شريعة موسى التي حرّمت الشحوم ولحوم الإبل وبعض أنواع السمك وكل ذي ظفر.

أما قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فهي شاهدة على صحة رسالة المسيح عليه السلام وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ لأن جميع الرسل كانوا على التوحيد قولاً واحداً لا اختلاف فيه.

هذا، وذكر متّى في إنجيله، الإصحاح الخامس، العدد ١٧ ـ ١٩ قوله عن المسيح عليه السلام: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل. فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل. فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يدعى أصغر في ملكوت السموات. وأما من عمل وعلم فهذا يدعى عظيماً في ملكوت السماوات».

غير أن إنجيل متّى ينقل عن المسيح عليه السلام قولاً مغايراً لما ورد سابقاً وبنفس الإصحاح، العدد ٣ قوله: «وقيل من طلّق امرأته فليعطها كتاب طلاق»(١). ويضيف في العدد ٣٢: «وأما أنا فأقول لكم أن من طلّق امرأته إلا لعلّة الزنى يجعلها تزني. ومن يتزوج مطلقة(٢) فإنه يزني»(٣). فهذا الحكم مناقض لحكم التوراة. وذكر المسيح عليه السلام سابقاً بأنه ما جاء لينقض التوراة وأحكامها بل ليتمها.

---

(١) يعني ما ورد في حكم التوراة.

(٢) ألم يتزوج داود عليه السلام تسعاً وتسعين زوجة وهو الذي ينسبون المسيح إليه وأنه جاء ليتمم التوراة؟! أوليس بين هؤلاء الزوجات مطلقات؟!

(٣) إن الطلاق مشروع في الإسلام لحفظ الناس من الوقوع في المحظور من الزنى عند استحالة عيش أو تعايش الزوجين معاً.

كذلك ورد في الإصحاح نفسه، العدد ٣٨ عن المسيح عليه السلام قوله: «سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن»[١]. ويضيف قائلاً في العدد ٣٩ و٤٠ «وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر. بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً».

أليس في ذلك تناقض لحكم التوراة التي جاء المسيح عليه السلام ليتممها[٢]؟!

وفي ذلك ذكر في كتاب حواشي ابن المحرومة لابن كمونة، ص٥٨: (أن السيد المسيح لم ينقض التوراة بل ظلّ «متمسكاً بفرائضها إلى آخر وقته، كذا أصحابه بعد رفعه. إلا أن بولس منعهم عن ذلك بعد زمان طويل، عند احتياجهم إلى مخالطة سائر الأمم».

فيجيب صاحب الحواشي على ذلك بأن أصحاب المسيح، بعد حلول الروح القدس عليهم، تفرّقوا في البلاد ودعوا الناس إلى دين النصرانية، وكان ذلك قبل دخول بولس في دين النصرانية بسنوات كثيرة، ولم يتخلف سوى أقوام ظلوا في البقاع القريبة من القدس، على طاعة الشريعة الموسوية).

وأضاف المرجع نفسه، ص٥٩ و٦٠: (ولكن كيف نفسر قول السيد المسيح: «إني ما جئت لأنقض التوراة ولكن جئت لأتممها»؟ النقض، في نظر ابن المحرومة، يكون إما للهدم وإما لإعادة البناء. والظاهر أن المسيح لم ينقض الشريعة الموسوية إلا لتتميمها بذكر ما أغفلته من شؤون الصوم والصلاة والبعث والمجازاة الأخروية. فالذي يهدم جداراً ليبني فوقه لا يدعى ناقضاً بل متمماً)[٣].

تعقيب:

بالعودة إلى كلام الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، يتبين أن المسيح عليه السلام جاء مصدقاً لكلام الله تعالى في التوراة، وهذا حال النبيين في كل الأزمان يصدقون برسالات ربهم السابقة واللاحقة، ولما كانت التوراة سابقة لعهد عيسى عليه السلام كان لا بد له من الإيجاز بما أنزل الله من قبله.

(١) يقصد ما ورد في التوراة.

(٢) لمزيد من التفصيل نحو هذا انظر ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج٢، ص٢٢ (بتصرف).

(٣) حواشي ابن المحرومة لابن كمونة، حققه المطران حبيب باشا، ص٥٩ ـ ٦٠، المكتبة البولسية، لبنان، ١٩٨٤م.

ولكن دعوة المسيح عليه السلام تضمنت بعد تصديقه بالتوراة، التحليل لبني إسرائيل بعض ما حرم عليهم.

وكان التحريم والتشديد على بني إسرائيل عقاباً لهم على ما فعلوه بالأنبياء من جهة ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، وتشديدهم في السؤال من جهة أخرى كذكر قصة البقرة مثلاً: ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾، ولو أنهم امتثلوا لأمر الله من البدء وذبحوا مطلق بقرة لكان خيراً لهم ولكنهم لمّا شدّدوا على أنفسهم شدّد الله عليهم.

وفي ذلك نبّه الحبيب المصطفى محمد ﷺ أمته وحذّرهم من كثرة السؤال وفي حديث: «ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم»(١).

ومنهم من حرّم على نفسه أنواعاً من الأطعمة تيمناً بإسرائيل الله يعقوب، ولكن يعقوب عليه السلام حرّم على نفسه طعاماً من قبل أن تنزل التوراة. وفي ذلك روى الترمذي عن ابن عباس: «أن اليهود قالوا للنبي محمد ﷺ: أخبرنا ما حرّم إسرائيل على نفسه؟ قال: كان يسكن البدو فاشتكى عرق النسا ـ عرق يخرج من الورك ليستبطن الفخذ ـ فلم يجد شيئاً يلائمه إلا لحوم الإبل وألبانها، فلذلك حرّمها. قالوا: صدقت. وذكر الحديث. ويقال: إنه نذر إن برأ منه ليتركن أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام والشراب إليه لحوم الإبل وألبانها»(٢).

قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ . . .﴾ [آل عمران: ٩٣].

فالمسيح عليه السلام جاء ليصحح مسار بني إسرائيل وذلك من رحمة الله بخلقه.

غاية الإنجيل ورسالة المسيح:

إن لرسالة المسيح عليه السلام غايات منها:

١ ـ الدعوة إلى توحيد الله وعدم الإشراك به. ويتجلّى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

(١) رواه أحمد ٢/٢٤٧ ومسلم، كتاب الحج باب ٧٣، والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة.

(٢) القرطبي، مختصر تفسير القرطبي، تحقيق محمد كريم راجح، ج١، ص٣٢٨.

٢ ـ الاعتراف بالتوراة الحقيقية. وقد ذكر القرآن الكريم ذلك بقوله جلّ من قائل: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة: ٤٦].

٣ ـ إقامة حدود الله وبيان ما اختلف فيه اليهود من الأمور. قال رب العزة في كتابه العزيز في ذلك: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ [الزخرف: ٦٣، ٦٤].

٤ ـ نسخ بعض الأحكام التي وردت في التوراة. ويبين القرآن الكريم ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران: ٥٠].

٥ ـ التبشير بالنبي الخاتم محمد ﷺ. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦].

المسيح لن يستنكف أن يكون عبداً لله:

إن النصارى ألّهوا المسيح عليه السلام، كونه ولد من غير أب وأن مولده كان معجزاً[١]، وقام بعدة خوارق معجزة جعلتهم يقولون بألوهيته، أو بطبيعته الإلهية. وجاء الجواب الرباني في صريح القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزخرف: ٥٩].

وقال جلّ من قائل: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

---

(١) أليس في خلق نبات «الكمأة» الذي ينشأ في الأرض أيام الشتاء معجزة؟ فهذا النوع من النبات ينبت من الأرض دون زرع ودون بذر فالذي خلقه وأنشأه أليس بقادر على وضع زرع من غير بذر وينشئه إنساناً سوياً في بطن امرأة جليلة وخير نساء زمانها؟!... ولعل ما ظهر مؤخراً من النواحي العلمية التي تتعلق بموضوع الاستنساخ ـ نسخ جنين عن أمه دون أب ـ إثبات آخر على إنسانية المسيح عليه السلام.

فهذا الكلام الرباني يظهر حقيقة من صدرت على يديه تلك الآثار العظيمة الخارقة من إحياء الموتى وشفاء الأكمه والأبرص من أنه لن يستنكف عن عبادة الله تعالى، ولا حتى الملائكة المقربون، ومن جملتهم جبرائيل عليه السلام، الذي بلغ من قوته وإقدار الله له أن اقتلع المدائن واحتملها على ريشة من جناحه فقلب عاليها سافلها[1]. وهو الذي رفع الطور فوق بني إسرائيل. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة: ٦٣].

فالملائكة هنا أقوى وأبطش وإن خوارقهم أكثر، ورغم ذلك لن يستنكف هؤلاء الملائكة المقربون أن يكونوا عباداً لله.

(١) الزمخشري، هامش الكشاف، ج١، ص٥٨٧.

الفصل الخامس

في رفع المسيح

بشارة المسيح بالرفع

قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٥٣ ـ ٥٥].

وقد طلب الحواريون من المسيح ﷺ أن يكونوا من الشاهدين ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، وإنما طلبوا الشهادة بإسلامهم تأكيداً لإيمانهم أن الرسل يشهدون يوم القيامة لقومهم وعليهم، ﴿مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ مع الأنبياء الذين يشهدون لأممهم أو مع الذين يشهدون بالوحدانية، وقيل: مع أمّةِ محمد ﷺ لأنهم شهداء على الناس. ﴿وَمَكَرُوا۟﴾ الواو لكفار بني إسرائيل الذين أحسّ عيسى ﷺ منهم الكفر، ومكرهم أنهم وكّلوا به من يقتله غيلة ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾[1] أن رفع عيسى ﷺ إلى السماء[2] وألقى شبهه على من أراد اغتياله حتى قتل ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ أقواهم مكراً وأنفذهم كيداً وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المعاقب ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ ظرف

---

(١) مكر الله: هو تعبير مجازي.

(٢) ذكر رفع عيسى ﷺ أيضاً في التوراة دون صلب وذلك («أخذ من السجن والمحاكمة ومن الذي يعلن إلى جيله؟ أنه بتر من أرض الأحياء وبسبب تعديات شعبي كان مبتلى» هنا نص صريح للتوراة من قبل مجيء المسيح ﷺ بأنه رُفع بلا صلب «قد بتر من أرض الأحياء». فقوله: بُتر أي أنه أخذ وفُصل عن الكرة الأرضية وجملة «من أرض الأحياء» أي: أنه كان من الأحياء عندما أُخذ لأنه أُخذ من بين الأحياء وليس من بين الأموات كما يدعي البعض أنه مات ثلاثة أيام فلم يقل الله في التوراة «أخذ من أرض الأموات» ولو كان رُفع بعد أن مات وبُعث لقال: «أخذ بعد أن بعثناه»، ولكن المعنى واضح أنه بُتر من الأرض حياً دون أن يذوق الموت أو البعث ولأن ذلك سيصير غريباً على البعض قال الله قبلها: «ومن الذي يعلن إلى جيله» بدليل أن جيله ظنّ خلاف ذلك في المسيح). انظر د. ممدوح جاد، المسيح في الإنجيل بشر، ص٢٠٣.

لخير الماكرين أو لمكر الله ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: مستوفي أجلك. ومعناه: إني عاصمك من أن يقتلك الكفار ومؤخرك إلى أجل كتبته لك ومميتك حتف أنفك لا قتلاً بأيديهم، ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ إلى سمائي ومقر ملائكتي، ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من سوء جوارهم وخبث صحبتهم، وقيل متوفيك: قابضك من الأرض[١].

«وقيل: مميتك في وقتك بعد النزول من السماء ورافعك الآن، وقيل: متوفي نفسك بالنوم من قوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] ورافعها وأنت نائم حتى لا يلحقك خوف فتستيقظ وأنت في السماء آمن مقرب ﴿فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعلونهم بالحجة وفي أكثر الأحوال بها وبالسيف، ومتبعوه هم المسلمون لأنهم متبعوه في أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع...»[٢].

وورد عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (لما أراد الله عزّ وجل أن يرفع عيسى إلى السماء خرج إلى أصحابه وهم في بيت اثنا عشر رجلاً.. ورأسه يقطر ماء فقال: إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي، قال: ثم قال: أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي؟ قال: فقام شاب من أحدثهم سناً فقال: أنا. فقال له: اجلس. ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا، فقال: نعم أنت ذاك.

قال: فألقي عليه شبه عيسى ورفع عيسى عليه السلام من روزنة[٣] في البيت إلى السماء قال: وجاء الطلب من اليهود[٤] فأخذوا شبيهه فقتلوه وصلبوه وكفر به بعضهم

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٤٣٢. لمزيد من التفصيل انظر القرطبي، مختصر تفسير القرطبي، ج١، ص٣١٣ ـ ٣١٤.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ج ١، ص٤٣٢ ـ ٤٣٣.

(٣) فتحة في سقف البيت.

(٤) نسب إلى المسيح عليه السلام في إنجيل يوحنا الإصحاح السابع، العدد ٣٢ ـ ٣٤ قوله («أنا معكم زماناً يسيراً بعد، ثم أمضي إلى الذي أرسلني. ستطلبونني (ولا تجدونني)! حيث أكون أنا. لا تقدرون أنتم أن تأتوا...»، أي لن تجدوني عندما تريدون صلبي، فسوف يرفعني الله إلى السماء وحيث أكون في السماء فلن تستطيعوا الوصول إليّ، لأنه من الطبيعي أن السماء مكان يعجز اليهود عن بلوغه. =

اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به، فتفرقوا فيه ثلاث فرق، فقالت فرقة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء وهؤلاء اليعقوبية. وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه إليه وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ ويعني الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى عليه السلام والطائفة التي آمنت في زمن عيسى عليه السلام ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ بإظهار محمد ﷺ دينهم على دين الكفار[1].

تعليق الرازي حول تفسير ﴿شُبِّهَ لَهُمْ﴾:

اشتهر الإمام الرازي بتقليب الآراء والأخبار لوجوه الرأي شارحاً لمجملات القرآن وإشاراته.

ويقول الإمام الرازي في تفسير الآية الكريمة ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧] أنه قد اختلفت مذاهب العلماء في هذا الموضوع، وذكروا طرقاً:

(الأول: قال كثير من المتكلمين إن اليهود لما قصدوا قتله ورفعه الله تعالى إلى السماء، فخاف رؤساء اليهود من وقوع الفتنة من عوامهم، فأخذوا إنساناً وقتلوه وصلبوه وشبهوا على الناس أنه المسيح!

الثاني: أنه تعالى ألقى شبهه على إنسان آخر... ثم في هذا وجوه:

١ ـ دخل طيطاوس اليهودي المكان الذي فيه المسيح فلم يجده، فأُلقي شبهه عليه، فلما خرج ظن أنه عيسى، فأخذ وصلب!

٢ ـ وكّلوا بعيسى رجلاً فحرسه، فرفع عيسى إلى السماء وألقى الله شبهه على ذلك الرقيب، فقتلوه وهو يقول لست بعيسى!

= هذه حقيقة! ذكّر بها المفكر برتراند راسل فقال: «كانت طائفة الدوسيين المشبهين قد ذهبوا إلى أنّ المسيح لم يكن هو الذي صُلب، بل بديل شبّه به، وقد ظهر رأي مماثل لذلك في الإسلام». انظر برتراند راسل، حكمة الغرب، ص٢٤٢، لا.ت. وانظر سعيد أيوب، عقيدة المسيح الدجال في الأديان قراءة في المستقبل، ص٤٥، دار الهادي، ط١، بيروت ـ لبنان، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، م٤، ص٣٢٦. وانظر أبا الفضل عبد الله محمد الصديق الغماري، المرجع السابق، ص٣٩.

٣ ـ تطوع أحد أصحابه، فألقى الله شبه عيسى ﷺ عليه، فأخرج وقتل ورفع عيسى.

٤ ـ نافق أحد تابعيه، ودلهم على عيسى ﷺ ليقتلوه، فلما دخل اليهود لأخذه ألقى الله شبهه عليه، فقتل وصلب!

وهذه الوجوه متعارضة متدافعة، والله أعلم بحقائق الأمور[(١)].

روايات من أسلم من النصارى أن المسيح لم يصلب بل اتباع الظن:

روي عن ابن عباس أنَّ الصلب راجع إلى الظن الذي يتبعونه قال: «لم يقتلوا ظنهم يقيناً» رواه ابن جرير، أي: أنهم يتبعون ظناً غير ممحص في هذه المسألة، لأن عمدتهم فيها النقل عمن أسلم من اليهود والنصارى وهؤلاء كانوا مختلفين ما لهم به من علم يقيني، ولكن الروايات عنهم تشتمل على نحو ما عند النصارى من مقدمات القصة كجمع المسيح ﷺ لحوارييه وخدمته إياهم وغسله لأرجلهم، وقوله لبعضهم إنه ينكره قبل صياح الديك ثلاث مرات، ومن بيعه مقابل دراهم قليلة من قبل دلالة أعدائه عليه، وكون الدلالة عليه كانت بتقبيل الدال عليه له، ولكن بعضهم قال: إن شبهه ألقي على من دلهم عليه، وبعضهم قال: بل ألقي على جميع من كانوا معه، وروى ابن جرير القولين عن وهب بن منبه. والحاصل أن جميع روايات المسلمين متفقة على أن المسيح ﷺ نجا من أيدي مريدي قتله فقتلوا آخر ظانين أنه هو[(٢)].

وقد أورد ابن كثير في كتابه البداية والنهاية، ج١٢، ص٩٣ و٩٤ عن ابن جرير أنه قال: «حدثنا المثنى حدثنا إسحاق... أنه سمع وهباً يقول: إن عيسى ابن مريم لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا، جزع من الموت وشقّ عليه، فدعا الحواريين وصنع لهم طعاماً فقال: احضروني الليلة فإن لي إليكم حاجة، فلما اجتمعوا إليه من الليل عشَّاهم وقام بخدمتهم، فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده ويمسح أيديهم بثيابه، فتعاظموا ذلك وتكارهوه فقال: ألا من رد عليّ شيئاً الليلة مما أصنع فليس مني ولا أنا منه، فأقروه حتى إذا فرغ من ذلك قال: أما ما صنعت بكم الليلة مما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدي فليكن لكم بي أسوة، فإنكم ترون أني خيركم فلا يتعظم بعضكم على بعض، وليبذل بعضكم لبعض نفسه كما

(١) لمزيد من التفصيل انظر عبد الكريم الخطيب، المسيح في القرآن والتوراة والإنجيل، ص٤٩٩ ـ ٥٠٠. وانظر الألوسي، تفسير المعاني، ج٦، ص١٨٢.

(٢) محمد رشيد رضا، عقيدة الصلب والفداء، ص٩.

بذلت نفسي لكم، وأما حاجتي التي استعنتكم عليها فتدعون الله وتجتهدون في الدعاء أن يؤخر أجلي، فلما نصبوا أنفسهم للدعاء وأرادوا أن يجتهدوا أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاء، فجعل يوقظهم ويقول: سبحان الله أما تصبرون لي ليلة واحدة تعينوني فيها فقالوا: والله ما ندري ما لنا. والله لقد كنا نسمر فنكثر السمر وما نطيق الليلة سمراً، وما نريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه فقال: يذهب بالراعي وتتفرق الغنم، وجعل يأتي بكلام نحو هذا ينعي به نفسه.

ثم قال: الحق ليكفرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات، وليبيعني أحدكم بدراهم يسيرة وليأكلن ثمني، فخرجوا وتفرقوا. وكانت اليهود تطلبه فأخذوا شمعون أحد الحواريين فقالوا: هذا من أصحابه فجحد وقال: ما أنا بصاحبه فتركوه. ثم أخذه آخرون فجحد كذلك، ثم سمع صوت ديك فبكى وأحزنه. فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال: ما تجعلون لي إن دللتكم على المسيح فجعلوا له ثلاثين درهماً فأخذها ودلهم عليه، وكان شبّه عليهم قبل ذلك فأخذوه. . . وربطوه بالحبل وجعلوا يقودونه ويقولون أنت كنت تحيي الموتى وتنتهر الشيطان وتبرىء المجنون، أفلا تنجي نفسك من هذا الحبل ويبصقون عليه ويلقون عليه الشوك، حتى أتوا به الخشبة التي أرادوا أن يصلبوه عليها فرفعه الله إليه وصلبوا ما شُبّه لهم فمكث سبعاً. ثم إن أمّه والمرأة التي كان يداويها عيسى فأبرأها الله من الجنون جاءتا تبكيان، حيث كان المصلوب فجاءهما عيسى فقال: على من تبكيان؟ قالتا: عليك. فقال: إني قد رفعني الله إليه ولم يصبني إلا خير، وإن هذا شيء شبّه لهم، فأمرا الحواريين أن يَلقَوْني إلى مكان كذا وكذا، فلقوه إلى ذلك المكان أحد عشر وفقد الذي كان باعه ودل عليه اليهود. فسأل عنه أصحابه فقالوا: إنه ندم على ما صنع فاختنق وقتل نفسه، فقال: لو تاب لتاب الله عليه. ثم سألهم عن غلام يتبعهم يقال له يحيى فقال: هو معكم فانطلقوا فإنه سيصبح كل إنسان منكم يحدث بلغة قوم فلينذرهم وليدعهم(١).

---

(١) ذكر ابن جرير عن محمد بن إسحاق أن المسيح ﷺ قبل أن يُرفع «وصّى الحواريين بأن يدعوا الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له وعيّن كل واحد منهم إلى طائفة من الناس في إقليم من الأقاليم من الشام والمشرق وبلاد المغرب فذكروا أنه أصبح كل إنسان منهم يتكلم بلغة الذين أرسله المسيح إليهم. وذكر غير واحد أن الإنجيل نقله عنه أربعة لوقا ومتى ومرقس ويوحنا وبين هذه الأناجيل الأربعة تفاوت كثير بالنسبة إلى كل نسخة وزيادات كثيرة ونقص بالنسبة إلى الأخرى وهؤلاء الأربعة منهم اثنان ممن أدرك المسيح ورآه وهما متّى ويوحنا ومنهم=

وهذا إسناد غريب عجيب وهو أصح مما ذكره النصارى من أن المسيح جاء إلى مريم وهي جالسة تبكي عند جذعه فأراها مكان المسامير من جسده وأخبرها أن روحه رُفعت وأنّ جسده صُلب وهذا بهت وكذب واختلاق وتحريف وتبديل وزياد باطلة في الإنجيل».

المسيح ينفي الألوهية عن نفسه في الإنجيل:

قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٧].

فالمسيح هنا موصوف بصفة الرسالة واليهود ادّعوا قتله، وهذا يعني أنه عليه الصلاة والسلام إنما ادّعى النبوة ولم يدّعِ الألوهية، والأناجيل ناطقة «بأنه كان موحداً لله تعالى، مدعياً للرسالة كقوله في رواية إنجيل يوحنا (هذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته)»(١).

ومكمن السؤال عن هذه الآية ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أنهم أعطوا صفة الرسول إلى عيسى عليه السلام رغم اشتهارهم بقتل الأنبياء.

ويأتي الجواب الرباني على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ﴾ [النساء: ١٥٧].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ﴾ استثناء منقطع، وفي الأناجيل المعتمدة عند النصارى أن المسيح قال لتلاميذه: «كلكم تشكون فيّ هذه الليلة»(٢) أي: التي يطلب فيها للقتل والصلب.

= اثنان من أصحاب أصحابه وهما مرقس ولوقا وكان ممن آمن بالمسيح وصدّقه من أهل دمشق رجل يقال له ضينا وكان متخفياً في مغارة داخل الباب الشرقي قريباً من الكنيسة المصلبة خوفاً من بولص اليهودي وكان ظالماً غاشماً مبغضاً للمسيح ولما جاء به. وكان قد حلق رأس ابن أخيه حين آمن بالمسيح وطاف به في البلد. ثم رجمه حتى مات رحمه الله. ولما سمع بولص أن المسيح عليه السلام قد توجه نحو دمشق جهز بغلة وخرج ليقتله فتلقاه عند كوكبا فلما واجه أصحاب المسيح جاء إليه مَلَك فضرب وجهه بطرف جناحه فأعماه. فلما رأى ذلك وقع في نفسه تصديق المسيح فجاء إليه واعتذر مما صنع وآمن به فقبل منه وسأله أن يمسح عينيه ليرد الله عليه بصره فقال: اذهب إلى ضينا عندك بدمشق في طرف السوق المستطيل من المشرق فهو يدعو لك فجاء إليه فدعا فردّ عليه بصره وحسن إيمان بولص بالمسيح عليه السلام أنه عبد الله ورسوله وبنيت له كنيسة باسمه..». ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص١٠١.

(١) محمد رشيد رضا، عقيدة الصلب والفداء، ص٧، الفتح للإعلام العربي، القاهرة، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

(٢) إنجيل متى، الإصحاح ٢٦، العدد ٣١، وإنجيل مرقس، الإصحاح ٢٤، العدد ٢٧.

والأناجيل ناطقة بأنه أخبر أن تلاميذه وأعرف الناس به يشكون فيه في ذلك الوقت.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ أي: وما قتلوا عيسى ابن مريم قتلاً يقيناً أو متيقنين أنه هو بعينه، لأنهم لم يكونوا يعرفونه حق المعرفة، والأناجيل تصرّح بأنّ الذي أسلمه إلى الجند هو يهوذا الأسخريوطي، وأنه جعل لهم علامة أن من قبّله يكون هو يسوع المسيح فلما قبّله قبضوا عليه.

وأما إنجيل برنابا فيصرح بأن الجنود أخذوا يهوذا الأسخريوطي نفسه ظناً أنه المسيح، لأنه ألقي عليه شبهه. (فالذي لا خلاف فيه هو أن الجنود ما كانوا يعرفون شخص المسيح معرفة يقينية، وقيل: إن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ للعلم الذي نفاه عنهم، والمعنى ما لهم به من علم لكنهم يتبعون الظن، وما قتلوا العلم يقيناً وتثبيتاً به، بل رضوا بتلك الظنون التي يتخبطون فيها، يقال قتلت الشيء علماً وخبراً إذا أحطت به واستدليت عليه حتى لا ينازع ذهنك منه اضطراب ولا ارتياب)[1].

الشك بالمسيح في الإنجيل:

ذكر متى في إنجيله، في الإصحاح ٢٦، العدد ٣١ ـ ٣٤ قوله: «بينما التلاميذ يأكلون طعاماً مع يسوع قال: كلكم تشكون فيّ في هذه الليلة، فإنه مكتوب أني أضرب الراعي فتفترق الغنم.

فقال بطرس: فلو شكّ جميعهم ما أشك أنا.

فقال يسوع: الحق أقول لك، إنك في هذه الليلة تنكرني قبل أن يصيح الديك».

فقد شهد عليهم بالشك، بل على خيارهم بطرس، فإنه خليفته عليهم، فقد انعدم الوثوق بأقوالهم، وجزم بإلقاء الشبه على غير المسيح عليه السلام[2]. وصحّ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ[3] مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧].

---

(١) محمد رشيد رضا، عقيدة الصلب والفداء، ص٨ ـ ٩.

(٢) أبو عبيدة الخزرجي، المرجع السابق، ص١٦٨.

(٣) يبدو الاختلاف واضحاً بين الأناجيل الأربعة المعتمدة لدى النصارى فمتّى مثلاً يذكر في إنجيله أن عيسى عليه السلام قال مخاطباً الحواريين: «إن واحداً منكم يسلمني. فحزنوا جداً وابتدأ كل واحد منهم يقول له: أنا هو يا رب. فأجاب وقال: الذي يغمس يده معي في الصحفة ـ أي الصحن ـ =

....

= هو يسلمني. إن ابن الإنسان ماض كما هو مكتوب عنه. ولكن ويل لذلك الرجل الذي به يسلم ابن الإنسان كان خيراً لذلك الرجل لو لم يولد. فأجاب يهوذا مسلمه وقال: هل أنا هو يا سيدي، فقال له: أنت قلت». (إنجيل متّى، الإصحاح ٢٦، العدد ٢٠ ـ ٢٥).

أما يوحنا فقد ذكر في إنجيله عن المسيح ﷺ أنه قال: «.. الحق الحق أقول لكم إن واحداً منكم يسلمني. فكان التلاميذ ينظرون بعضهم إلى بعض وهم محتارون في من قال عنه. وكان متكئاً في حضن يسوع واحد من تلاميذه كان يسوع يحبه. فأومأ إليه سمعان بطرس أن يسأل من عسى أن يكون الذي قال عنه. فاتكأ ذاك على صدر يسوع وقال له يا سيد: من هو. أجاب يسوع: هو ذاك الذي أغمس أنا اللقمة وأعطيه. فغمس اللقمة وأعطاها ليهوذا سمعان الأسخريوطي». (إنجيل يوحنا، الإصحاح ١٣، العدد ٢١ ـ ٢٦).

وفي كيفية تسليم المسيح ﷺ لليهود هناك اختلاف، فقد ورد في إنجيل متّى قوله: «وفيما هو يتكلم ـ أي المسيح ـ إذا يهوذا واحد من الاثني عشر قد جاء ومعه جمع كثير بسيوف وعصي من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب.

والذي أسلمه أعطاهم علامة قائلاً: الذي أقبله هو هو امسكوه. فللوقت تقدم إلى يسوع وقال: السلام يا سيدي. وقبّله. فقال له يسوع: يا صاحب لماذا جئت؟ حينئذ تقدموا وألقوا الأيادي على يسوع وأمسكوه». (إنجيل متّى، الإصحاح ٢٦، العدد ٤٧ ـ ٥٠).

أما إنجيل يوحنا فيذكر «فأخذ يهوذا الجند وخداماً من عند رؤساء الكهنة والفريسيين وجاء إلى هناك بمشاعل ومصابيح وسلاح. فخرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتي عليه وقال لهم: من تطلبون؟ أجابوه يسوع الناصري. قال لهم يسوع: أنا هو. وكان يهوذا مسلمه أيضاً واقفاً معهم. فلما قال لهم: إني أنا هو رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض. فسألهم أيضاً: من تطلبون؟ فقالوا يسوع الناصري. أجاب يسوع: قد قلت لكم إني هو فإن كنتم تطلبونني فدعوا هؤلاء يذهبون». (إنجيل يوحنا، الإصحاح ١٨، العدد ٣ ـ ٨). ثم ذكر الإنجيل في الإصحاح نفسه «ثم إن الجند والقائد وخدام اليهود قبضوا على يسوع وأوثقوه». (إنجيل يوحنا، الإصحاح ١٨، العدد ١٢).

وقد علّق صاحب ميزان الحق في مقارنة الأديان على هذه القصة قائلاً:

«١ ـ إن الله تعالى أمسك أعينهم ومن ضمنهم يهوذا الخائن عن معرفة المسيح لذلك كانوا يجيبون السائل دون أن يعرفوه، بأنهم يطلبون يسوع الناصري، فلم يقولوا نطلبك أنت لأن هذا السائل كان المسيح نفسه.

٢ ـ ورد بهذه القصة أن المسيح لما قال لهم: إنه هو، سقطوا على الأرض دون أن يكون هناك سبب لهذا السقوط، مما يفهم منه أن هذا السقوط منهم على الأرض ومعهم مشاعلهم ما جرى وما كان إلا لأمر قد قضاه الله في تلك الساعة، وهو نجاة المسيح من كيدهم تصديقاً لما كتب عنه في المزمور ٩١، عدد ١١، قوله: (يوصي ملائكته بك لكي يحفظوك في كل طرقك)» انظر محمد عزت الطهطاوي، المرجع السابق، ص٢٢٦.

أما إنجيل برنابا فقد ذكر هذه الحادثة بقوله: «لما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذي كان فيه يسوع ـ يسمع يسوع دنو جم غفير، فلذلك انسحب إلى البيت خائفاً، وكان الأحد عشر نياماً، فلما رأى الله الخطر على عبده أمر جبريل وميخائيل ورفائيل وأوريل سفراءه أن يأخذوا =

ومما جاء حول تسليم المسيح ﷺ في إنجيل متّى، الإصحاح ٢٦، العدد ٣٩ قوله: «ثم تقدّم قليلاً وخرّ على وجهه وكان يصلي قائلاً: يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس. ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت». وقد علّق الأستاذ الدكتور محمد تقي الدين الهلالي على ذلك قائلاً: «إن ثبت هذا فإن الشخص الذي قاله كان جاهلاً بقدرة الله ومعترفاً بأنه عبد الله وهو الذي يتصرف فيه»(١).

كذلك هناك قول المصلوب على صليبه: «ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً: إيلي إيلي لما شبقتني، أي: إلهي إلهي لماذا تركتني»(٢).

ويعلق د. الهلالي على هذا النص بقوله: «من أعظم الأدلة على أن الذي قال هذا الكلام ليس من المؤمنين بالله فضلاً عن أن يكون من أنبياء الله، لأن الله لا يخلف وعده وأنبياؤه لا يشكون في وعده»(٣).

= يسوع من العالم، فجاء الملائكة الأطهار، وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب، فحملوه ووضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التي تسبّح الله إلى الأبد.. ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التي أصعد منها يسوع، وكان التلاميذ كلهم نياماً، فأتى الله العجيب بأمر عجيب، فتغير يهوذا في النطق وفي الوجه، فصار شبيهاً بيسوع حتى إننا اعتقدنا أنه يسوع، أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم، لذلك تعجبنا، وأجبنا أنت يا سيدي معلمنا، أنسيتنا الآن...» إلخ. لمزيد من التفصيل انظر محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص٢٣ ما بعدها.

هذا، وهناك طوائف من النصارى ينكرون صلب المسيح ﷺ ويعتبرون الصلب نقصاً لا يليق به، وهناك من يرفض موضوع الصلب استناداً للأدلة التاريخية، والرافضون لمبدأ الصلب لا يسلمون بأن المسيح ﷺ سمّر ومات على الصليب ومن هذه الطوائف:

«١ ـ الساطريتوسيون، ٢ ـ الكاربوكراتيون، ٣ ـ المركيرتيون، ٤ ـ البارديسانيون، ٥ ـ الثانياسيون، ٦ ـ المانيسيون، ٧ ـ البارسكاليونيون، ٨ ـ البيوليبسيون، ٩ ـ الروسيتية، ١٠ ـ المرقيونية، ١١ ـ الفلتطانيائية.

كما أورد المستشرق الإنكليزي جورج سيل في ترجمته للقرآن الكريم في سورة آل عمران أن بعض قدماء فرق النصرانية كانوا يعتقدون أن المسيح نفسه لم يُصلب وإنما صُلب واحد آخر من تلاميذه كان يشبهه تماماً». انظر محمد عزت الطهطاوي، ميزان الحق في مقارنة الأديان، ص١٦٢.

(١) د. محمد تقي الدين الهلالي، المرجع السابق، ص٣.

(٢) إنجيل متّى، الإصحاح ٢٩، العدد ٤٦.

(٣) د. محمد تقي الدين الهلالي، المرجع نفسه، ص٣.

﴿شُبِّهَ لَهُمۡ﴾ ماذا يقول الإنجيل وبينات ذلك:

هناك بينات في الإنجيل أن المسيح عليه السلام ﴿شُبِّهَ لَهُمۡ﴾ ولم يُقتل ولم يُصلب بل رفعه الله إليه منها:

١ ـ إن المسيح عليه السلام نشأ في قومه ما يزيد على الثلاثين سنة، يحاجج اليهود بالقرائن والدلائل، في مجامعهم وساحاتهم وأماكن عباداتهم. فعرفوه صغيراً وليداً ويافعاً وشاباً حكيماً، فما الذي ألجأهم إلى أن يستأجروا أحد تلاميذه بأمره حتى يعرفوه لو لم يتغير شكله.

٢ ـ (حكى يوحنا التلميذ في إنجيله: «أن الذين قبضوا على المأخوذ من بستان بوادي الأردن، خرج إليهم فقال: من تريدون؟ فقالوا: يسوع. وقد خفي شخصه عنهم، فجعلوا يكثرون السؤال، وهو يعيد الجواب[1]، وذلك دليل التشبيه، إذ أنكروا وجهه وهو الناشىء بين أظهرهم، والمربى بين جماعتهم)[2].

٣ ـ ذكر لوقا في إنجيله: («صعد يسوع إلى جبل الجليل، ومعه بطرس ويعقوب ويوحنا، فبينما هو يصلي إذ تغير منظر وجهه، وابيضت ثيابه فصارت تلمع كالبرق ونظروا موسى بن عمران وإلياس قد ظهرا لهم، وجاءت سحابة فأظلتهم. فأما الذين كانوا معه فوقع عليهم النوم فناموا»[3]. وهذا الفصل الذي نقله لوقا دليل على رفع المسيح عليه السلام وحمايته من أعدائه اليهود)[4].

٤ ـ جاء في إنجيل متّى، الإصحاح السابع، العدد ٢٧ ـ ٣١: أن «الذي أُخذ كانت قد غُيِّرت هيئته[5]، وشُوِّهَت صورته وسيق ذليلاً، وتُوِّج من الشوك إكليلاً، وأُلبس أرجواناً، وأُبلس هواناً، وجُذب وسُحب، وضُرب ونُزعت أثوابه وسُلب، وحمل خشبته التي عليها صُلب، وأُعنف به إلى من سجنه فركب وما ركب». فإن كان هذا الكلام صحيحاً فأين بشرى جبريل عليه السلام عندما أتى إلى مريم والدة المسيح عليه السلام

---

(١) إنجيل يوحنا، الإصحاح ١٨، العدد ٤ ـ ٨.

(٢) أبو البقاء صالح بن الحسين الجعفي، الرد على النصارى، ص٧٥، تحقيق د. محمد محمد حسنين، ص٧٤، ط١، دار التوفيق النموذجية، مصر، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م.

(٣) إنجيل لوقا، الإصحاح التاسع، العدد ٢٨ ـ ٣١.

(٤) أبو البقاء صالح بن الحسين الجعفي، (توفي في القرن السابع الهجري)، الرد على النصارى.

(٥) أليس هذا تطابقاً لما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡ﴾.

بأن الله يجلس ولدها على كرسي داود ويملكه على بيت يعقوب إلى الأبد[١]؟ فإن كانت هذه البشرى صحيحة كما ورد في الإنجيل فهذا يعني أن المصلوب ليس عيسى أو أن هذه البشارة باطلة مع الاعتقاد بصحة ما جاء في الإنجيل فكيف هذا؟!

٥ ـ جاء في إنجيل لوقا الإصحاح ٢٤، العدد ١٣ ـ ١٩ قوله: «وإذا اثنان منهم كانا منطلقين في ذلك اليوم إلى قرية بعيدة عن أورشليم ستين غلوة اسمها عمواس. وكانا يتكلمان بعضهما مع بعض عن جميع هذه الحوادث. وفيما هما يتكلمان ويتحاوران اقترب إليهما يسوع نفسه وكان يمشي معهما. ولكن أمسكت أعينهما عن معرفته. فقال لهما: ما هذا الكلام الذي تتطارحان به وأنتما ماشيان عابسان. فأجاب أحدهما الذي اسمه كليوباس وقال له: هل أنت متغرب وحدك في أورشليم ولم تعلم الأمور التي حدثت فيها في هذه الأيام. فقال لهما: وما هي؟ فقالا: المختصة بيسوع الناصري الذي كان إنساناً نبياً مقتدراً في الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب». أليس هذا دليلاً على تغير حاله وهيئته؟

٦ ـ كذلك ذكر لوقا في إنجيله قوله: «وفيما يتكلمون بهذا وقف يسوع نفسه في وسطهم وقال لهم: سلام لكم. فجزعوا وخافوا وظنوا أنهم نظروا روحاً. فقال لهم: ما بالكم مضطربون ولماذا تخطر أفكار في قلوبكم. انظروا يدي ورجلي أني أنا هو. جسوني وانظروا فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي. وحين قال هذا أراهم يديه ورجليه. وبينما هم غير مصدقين من الفرح ومتعجبون قال لهم: أعندكم ههنا طعام. فناولوه جزءاً من سمك مشوي وشيئاً من شهد عسل»[٢]. فإذا كان تلاميذه لم يعرفوه، أليس هذا دليلاً على تغير حاله وإلقاء الشبه عليه وقت الصلب فيما يزعمون من أنه صُلب؟

٧ ـ جاء في إنجيل يوحنا: «بعد هذا أظهر أيضاً يسوع نفسه للتلاميذ على بحر طبرية. ظهر هكذا. كان سمعان بطرس وتوما الذي يقال له التوأم ونثنائيل الذي من قانا الجليل وابنا زبدي واثنان آخران من تلاميذه مع بعضهم. قال لهم سمعان بطرس: أنا أذهب لأتصيد. قالوا له: نذهب نحن أيضاً معك. فخرجوا ودخلوا السفينة للوقت وفي تلك الليلة لم يمسكوا شيئا. ولما كان الصبح وقف يسوع على الشاطىء. ولكن التلاميذ لم يكونوا يعلمون أنه يسوع. فقال لهم يسوع: يا غلمان ألعل عندكم إداماً؟

(١) إنجيل لوقا، الإصحاح الأول، العدد ٢١ ـ ٢٢.

(٢) إنجيل لوقا، الإصحاح ٢٤، العدد ٣٦ ـ ٤٢.

أجابوه: لا. فقال لهم: ألقوا الشبكة إلى جانب السفينة الأيمن فتجدوا. فألقوا ولم يعودوا يقدرون أن يجذبوها من كثرة السمك. فقال ذلك التلميذ الذي كان يسوع يحبه لبطرس: هو الرب. فلما سمع سمعان بطرس أنه الرب اتّزر بثوبه لأنه كان عرياناً وألقى نفسه في البحر»[١]. إذا كان التلاميذ لم يعرفوا المسيح عليه السلام إلا حين كثر صيدهم، أليس هذا دليلاً آخر على تغير حاله وإلقاء الشبه على غيره؟!.

وللأستاذ عبد الكريم الخطيب تعليق على أن المصلوب هو غير عيسى عليه السلام من واقع الأناجيل حيث يقول:

١ ـ في الإنجيل «إن المصلوب استسقى اليهود فأعطوه خلاً مذاباً بمر، فذاقه ولم يشربه، ونادى: إلهي إلهي لمَ خذلتني!. والأناجيل كلها مصرحة بأن المسيح عليه السلام كان يطوي أربعين يوماً وأربعين ليلة ويقول للتلاميذ لي طعام لستم تعرفونه، ومن يصبر على العطش والجوع أربعين يوماً وليلة كيف يظهر الحاجة والمذلة والمهانة لأعدائه بسبب عطش يوم واحد؟ هذا ما لا يفعله أدنى الناس.. فكيف بخواص الأنبياء، وكيف بالرب تعالى على ما تدعونه. حينئذ يكون المدعي للعطش غيره وهو الذي شُبِّه لهم!

٢ ـ قوله إلهي إلهي لمَ خذلتني وتركتني.. هو كلام يقتضي عدم الرضا بالقضاء وعدم التسليم لأمر الله تعالى.. والمسيح عليه السلام منزَّه عن ذلك. فيكون المصلوب غيره.. لا سيما وأنتم تقولون إن المسيح إنما نزل ليؤثر العالم على نفسه ويخلصه من الشيطان ورجسه.. فكيف تروون عنه ما يؤدي إلى خلاف ذلك؟»[٢].

ويضيف الأستاذ عبد الكريم الخطيب قائلاً:

٣ ـ «ثم إن في الأناجيل أيضاً أن يسوع عليه السلام كان مع تلاميذه بالبستان فجاء اليهود فخرج إليهم وقال لهم: من تريدون؟ قالوا: يسوع! وقد خفي شخصه عنهم ففعل ذلك مرتين (يوحنا ١٨: ٥) وهم ينكرون صورته.. وما ذلك إلا دليل الشبه ورفع عيسى عليه السلام!

٤ ـ في إنجيل يوحنا (٢٩: ٣) بينما التلاميذ يأكلون طعاماً مع يسوع، قال: كلكم تشكون فيّ هذه الليلة، فإنه مكتوب: أني أضرب الراعي فتفترق الغنم. فقال

---

(١) إنجيل يوحنا، الإصحاح ٢١، العدد ١ ـ ٧.

(٢) عبد الكريم الخطيب، المسيح في القرآن والتوراة والإنجيل، ص٥٠٢ ـ ٥٠٣.

بطرس: فلو شكّ جميعهم ما أشك أنا. فقال يسوع: الحق أقول لك: إنك في هذه الليلة تنكرني قبل أن يصيح الديك!

فقد شهد بالشك على خيارهم «بطرس» إذ إنه خليفته عليهم، فقد انخرم حينئذ الوثوق بأقوالكم وجزم بإلقاء الشبه على غير عيسى ﷺ ويصح قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾، ومن هذا نعلم أن الأناجيل ليست قاطعة في صلبه، بل فيها اختلافات وشكوك كثيرة كما رأينا!

ومما يزيد الأمر وضوحاً ما فعله يهوذا، ويحتمل أن يكون قد كذب في قوله لليهود: هو ذا، ويدل على ذلك وقوع الندم منه بعد ذلك وقول المسيح له: يا صديق، ويا صاحب.. لِمَ أقبلت؟ ولو كان مصراً على الفساد لما سمّاه صديقاً.. ثم لا ننسى أن المسيح شهد للتلاميذ الاثني عشر بالسعادة (متّى ١٩: ٢٨) وشهادته حق، ولا شك أن السعيد لا يتم منه هذا الفساد العظيم إذا شرع فيه، ويهوذا أحد الاثني عشر فيلزم أن يكون يهوذا لم يدل عليه أو يكون المسيح ما نطق بالصدق أو يكون الإنجيل قد تحرّف وتبدل»[(١)].

هذا، وقد ورد في الأناجيل ما يشير إلى نجاة المسيح ﷺ من الصلب. منها ما جاء في إنجيل يوحنا، في الإصحاح السابع، العدد ٣٤، أن المسيح ﷺ قال: «ستطلبونني ولا تجدونني وحيث أكون لا تقدرون أنتم أن تأتوا».

أي: أن الله قادر على حفظه ممن يريدون الإمساك به والقضاء عليه كما في ذلك إشارة إلى رفع المسيح ﷺ، وحيث هو لا يستطيع بشر اللحاق به.

كما وصف المسيح ﷺ مسألة القبض عليه أنه حين تأتي تلك الساعة سيتفرق الجميع ويتركونه لوحده. ولكنه ليس وحده لأن الله ـ الآب في اللغة السريانية ـ يكون

---

(١) عبد الكريم الخطيب، المرجع السابق، ص٥٠٣ ـ ٥٠٤.

(حاول اليهود الاعتداء على المسيح ﷺ مرات عدة، وقد حفظه الله منهم بحفظه الكريم. وقد جاء في إنجيل لوقا، الإصحاح الرابع، العدد ٢٩ ـ ٣٠ أن اليهود أتوا إليه «فقاموا وأخرجوه خارج المدينة وجاؤوا به إلى حافة الجبل الذي كانت مدينتهم مبنية عليه حتى يطرحوه أسفل. أما هو فجاز في وسطهم ومضى».

كذلك عندما حاول أعداءه رجمه «فرفعوا حجارة ليرجموه. أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل مجتازاً في وسطهم ومضى هكذا» إنجيل يوحنا، الإصحاح ٨، العدد ٥٩. وفي مرة أخرى حاول أعداءه أن يمسكوا به وخرج من بين أيديهم «فطلبوا أيضاً أن يمسكوه فخرج من بين أيديهم» إنجيل يوحنا، الإصحاح ١٠، العدد ٣٩).

معه ويحفظه بحفظه. هذا، وقد ورد في إنجيل يوحنا أيضاً، الإصحاح السادس عشر، العدد ٣٢ ـ ٣٣، أن المسيح ﷺ قال: «هو ذا تأتي ساعة، وقد أتت الآن. تتفرقون فيها كل واحد إلى خاصته وتتركونني وحدي. وأنا لست وحدي لأن الآب معي. قد كلمتكم بهذا ليكون لكم فيّ سلام في العالم سيكون لكم ضيق. ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم».

ويتبين مما سبق وروده حول مسألة الصلب في الأناجيل:

١ ـ أن المسيح نجا من أذاهم.

٢ ـ أن يهوذا على الوجه الأول وقع في الحفرة التي حفرها للمسيح عقاباً له على خيانته.

٣ ـ أن الناس عرفوا خطأهم في الاعتقاد أن المسيح لا يموت لقول يوحنا في إنجيله في الإصحاح الثاني عشر، العدد ٣٤، «فأجابه الجمع نحن سمعنا في الناموس أن المسيح يبقى إلى الأبد: فكيف تقول أنت إنه ينبغي أن يرتفع ابن الإنسان». من هو هذا ابن الإنسان؟!

إضافة إلى أن المسيح ﷺ سيكون حاكماً دنيوياً يرد الملك لإسرائيل، وأن الله يجعله فوق نواميس الوجود كما يظنون. وفي ذلك ذكر بولس في رسالته إلى أهل أفسس، في الإصحاح الأول، رقم ٢٠ ـ ٢١ قوله: «الذي عمله في المسيح ـ أي الله ـ إذ أقامه من الأموات وأجلسه عن يمينه في السماوات. فوق كل رياسة وسلطان وقوة وسيادة وكل اسم يسمى ليس في هذا الدهر فقط بل في المستقبل أيضاً»[1].

٤ ـ أن بعض طوائفهم عرفوا «قديماً وحديثاً أنه ليس إلهاً وإلا لما صُلب ـ على زعمهم ـ رغم أنفه ولما دعا الله طلباً للنجاة ولما يئس المصلوب من رحمة الله، ولولا ذلك لكان اعتقاد ألوهيته عاماً بين أتباعه جميعاً في كل زمان ومكان، ولما قال جمهورهم إن فيه جزءاً ناسوتياً حادثاً، ولأجمعوا على اعتباره كله لاهوتاً محضاً لقرب عهد الأمم بالوثنية وشدة ميلهم إليها في زمنه»[2].

---

(١) ربما كان معنى «في المستقبل أيضاً» هو حين عودته في آخر الزمان وقبل قيام الساعة حينما يقتل الدجال. والله تعالى أعلم.

(٢) محمد رشيد رضا، عقيدة الصلب والفداء، ص١٠٨.

تعارض وتناقض في عقيدة الصلب:

من الشواهد على التعارض والتناقض في قضية الصلب أن أصل هذه العقيدة أن المسيح عليه السلام بذل نفسه باختياره فداء وكفّارة عن البشر، مع أن هذه الأناجيل تصرح بأنه حزن واكتأب عندما شعر بقرب أجله وطلب من الله أن يصرف عنه هذه الكأس[١]، وقد جاء في إنجيل متّى، الإصحاح ٢٦، العدد ٣٧ ـ ٣٩: «ثم أخذ معه بطرس وابني زبدى وابتدأ يحزن ويكتئب فقال لهم: نفسي حزينة جداً حتى الموت امكثوا هنا واسهروا معي ثم تقدم قليلاً وخرّ على وجهه، وكان يصلي قائلاً: يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس إلا أن أشربها فلتكن مشيئتك»[٢].

فكيف يصدر مثل هذا القول عن الإله ـ المسيح بزعمهم ـ وكيف يمكن أن يحدث الصلب لابن الآب ـ المسيح عليه السلام ابن الله بزعمهم ـ والآب ـ في اعتقادهم ـ يجمع بين العدل والرحمة؟

وإذا كان المصلوب هو المسيح عليه السلام باعتبار أنه إنسان (فما معنى قول النصارى بعد ذلك «إن الله لفرط محبته للبشر ضحّى بنفسه عنهم لخلاصهم»؟ مع أنه باعترافهم ما ضحّى إلا «بالإنسان يسوع» الذي أكرهه على ذلك إكراهاً!! فأين إذاً محبته هذه الزائدة للبشر وأين محبته لابنه هذا وعدله معه وهو (كما قال بولس) لم يشفق عليه ولم يرحمه)[٣].

وقد ورد في رسالة بولس إلى أهل رومية، الإصحاح الثامن، العدد ٣٢ قوله: «الذي لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين كيف لا يهبنا أيضاً معه كل شيء»، علماً أنهم يتلون في عباداتهم وصلواتهم في الصباح والمساء عبارة (واغفر لنا ذنوبنا) فكيف يكون هناك وجود للذنوب بعد مغفرتها بالخلاص عبر الصلب؟

فإن قيل: إن هذا الخلاص كان خلاصاً لهم من حساب الآخرة، فلا صحة لذلك أيضاً لأنه مكتوب في أناجيلهم: أنهم سيحشرون يوم القيامة ويقفون موقف الحساب، وهناك يميز بعضهم من بعض، كما يميز الراعي الخراف من الجداء، أي: يفصل الأبرار عن الأشرار فيأمر بالأبرار إلى الملكوت أي: إلى الجنة، وبالأشرار إلى النار الأبدية[٤].

---

(١) محمد رشيد رضا، عقيدة الصلب والفداء، ص٣٣.

(٢) انظر إنجيل لوقا، الإصحاح ٢٢، العدد ٤٣ ـ ٤٥.

(٣) محمد رشيد رضا، عقيدة الصلب والفداء.

(٤) انظر إنجيل متّى، الإصحاح ٢٦، العدد ٣١ ـ ٤٦.

«والعجيب أن الكنيسة خرجت من هذا المأزق الحرج بتفسير عجيب إذ قررت أن هذه المصالحة التي تمت بين الله وبين البشر لا تعني أنه لا تثريب على البشر في الخطأ والعصيان لأن تلك المصالحة تمت لحساب الكنيسة، فجسد المسيح ودمه الذي يكفّر عن الذنوب والخطايا محفوظ عند الكنيسة، وهي وحدها التي توزعه على من تعطيه فيصبح من الناجين، أما من تحرمه الكنيسة فلا تعطيه من جسد المسيح فيصبح من الهالكين في الدنيا، يحرق بالنار عندما تصدر عليه الكنيسة عقوبة الحرمان فضلاً عن حرقه في نار الآخرة بعد ذلك»[1].

تعليق محمد رشيد رضا على عقيدة الصلب والفداء:

كان للمرحوم الشيخ محمد رشيد رضا، تعليق على مسألة عقيدة الصلب في كتابه «عقيدة الصلب والفداء»، ص ١٧ ـ ١٩ قال فيه:

«١ ـ لا يمكن أن يقبل هذه القصة من يؤمن بالله بالدليل العقلي أن خالق العالم لا بد أن يكون بكل شيء عليماً، وفي كل صنعة حكيماً؛ لأنها تستلزم الجهل. . على الباري عزّ وجل، كأنه حين خلق آدم ما كان يعلم ما يكون عليه أمره، وحين عصى آدم ما كان يعلم ما يقتضيه العدل والرحمة في شأنه، حتى اهتدى إلى ذلك بعد ألوف من السنين مرّت على خلقه، كان فيها جاهلاً حيران لا يدري كيف يجمع بين تينك الصفتين من صفاته، وواقعاً في ورطة التناقض بينهما. ولكن قد يقبلها من يشترط في الدين عندهم أنه لا يتفق مع العقل، وأن يأخذ صاحبه بكل ما يسند إلى من نسب إليهم عمل العجائب، ويقول آمنت به وإن لم يدركه، ولم تذعن له نفسه، ومن ينقلون في أول كتاب من كتبهم الدينية (سفر التكوين) هذه الجملة (٦: ٦ فندم الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه) تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً[2].

٢ ـ يلزم من يقبل هذه القصة أن يسلم ما يحيله كل عقل مستقل من أن خالق الكون يمكن أن يحل في رحم امرأة في هذه الأرض التي نسبتها إلى سائر ملكه أقل من نسبة الذرة إليها وإلى سماواتها التي ترى منها، ثم يكون بشراً يأكل ويشرب ويتعب ويعتريه غير ذلك مما يعتري البشر، ثم يأخذه أعداؤه بالقهر والإهانة

---

(١) محمد عزت الطهطاوي، الميزان في مقارنة الأديان، ص٢٢٢.

(٢) في نسخة الكتاب المقدس «العهد القديم والعهد الجديد»، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط جاءت كما يلي: «فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض. وتأسف في قلبه».

فيصلبوه[١] مع اللصوص ويجعلوه ملعوناً بمقتضى حكم كتابه لبعض رسله (تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً).

٣ ـ تقتضي هذه القصة أن يكون الخالق الحكيم قد أراد شيئاً بعد التفكّر فيه ألوفاً من السنين فلم يتم له ذلك الشيء بل عجز عنه، ذلك أن البشر لم يخلقوا وينجوا من العذاب بوقوع هذا الصلب، فإنهم يقولون إن خلاصهم متوقف على الإيمان بهذه القصة وهم لم يؤمنوا بها.

لنا أن نقول إنه لم يؤمن بها أحد قط: لأن الإيمان هو تصديق العقل وجزمه بالشيء، والعقل لا يستطيع أن يدرك ذلك والذين يقولون إنهم مؤمنون بها يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم تقليداً لمن لقّنهم ذلك، فإن سمّينا مثل هذا القول إيماناً نقول إن أكثر البشر لا يقولونه بل يريدونه بالدلائل العقلية، ومنهم من يرده أيضاً بالدلائل النقلية من دين ثبتت أصوله عندهم بالأدلة العقلية، ومنهم من لم يعلموا بهذه القصة، ومنهم من يقول بمثلها لآلهة أخرى. فإذا عذبهم الله تعالى في الآخرة ولم يدخلهم ملكوته (كما تقول النصارى) لا يكون رحيماً على قاعدة دعاة الصلب والصليب، فكيف جمع بذلك بين العدل والرحمة؟

٤ ـ يلزم من هذه القصة شيء أعظم من عجز الخالق (تعالى وتقدّس) عن إتمام مراده بالجمع بين عدله ورحمته، وهو انتفاء كل من العدل والرحمة في صلب المسيح: لأنه عذبه من حيث هو بشر وهو لا يستحق العذاب؛ لأنه لم يذنب قط، فتعذيبه بالصلب والطعن بالحراب (على ما زعموا) لا يصدر من عادل ولا من رحيم بالأحرى، فكيف يعقل أن يكون الخالق غير عادل ولا رحيم، أو أن يكون عادلاً

---

(١) في تعليق لأبي عبيدة الخزرجي، في كتابه بين الإسلام والمسيحية، تحقيق د. محمد شامة، ص١٧٧، حول مسألة الصلب قال فيه: «من كان الممسك للسماوات والأرض، إذ كان الله (كما تزعمون) مربوطاً في خشبة الصليب؟

هل بقيتا ساكنتين؟ أم كان استخلف عليهما غيره، وهبط هو لربط نفسه في خشبة الصليب؟.. وليوجب اللعنة على نفسه، بما قال في التوراة: ملعون ملعون من تعلق بالصليب!!».

هذا، وقد جاء في سفر التثنية ٢١: ٢٢ ـ ٢٣ من التوراة: «وإذا كان على إنسان خطية حقها الموت، فقتل وعلقته على خشبة، فلا تبت جثته على الخشبة، بل تدفنه في ذلك اليوم لأن المعلق ملعون من الله...».

مما سبق يبدو العجب كل العجب من أن الإله المصلوب هو المنتقم والمنتقم منه، والحقود والمحقود عليه، وأنه الظالم يأخذ نفساً بذنب غيرها، وهو المظلوم، لأنه صلب بذنب غيره!.

رحيماً فيخلق خلقاً يوقعه في ورطة الوقوع في انتفاء إحدى هاتين الصفتين، فيحاول الجمع بينهما فيفقدهما معاً؟

٥ ـ إذا كان كل من يقول بهذه العقيدة أو القصة ينجو من عذاب الآخرة كيفما كانت أخلاقه وأعماله، لزم من ذلك أن يكون أهلها إباحيين وأن يكون الشرير المبطل الذي يعتدي على أموال الناس وأنفسهم وأعراضهم ويفسد في الأرض، ويهلك الحرث والنسل، من أهل الملكوت الأعلى، لا يعذّب على شروره وخطيئاته ولا يجازى عليها بشيء، فله أن يفعل في هذه الدنيا ما شاء هواه، وهو آمن من عذاب الله (وناهيك بهذا مفسداً للبشر) وإذا كان يعذب على شروره وخطيئاته كغيره من غير الصليبيين فما هي مزية هذه العقيدة؟ وإذا كان له امتياز عند الله تعالى في نفس الجزاء فأين العدل الإلهي؟

٦ ـ ما رأينا أحداً من العقلاء ولا من علماء الشرائع والقوانين يقول: إن عفو الإنسان عمن يذنب إليه، أو عفو السيد عن عبده الذي يعصيه ينافي العدل والكمال، بل يعدون العفو من أعظم الفضائل، ونرى المؤمنين بالله من الأمم المختلفة يصفونه بالعفوّ الغفور، ويقولون إنه أهل للمغفرة فدعوى الصليبيين أن العفو والمغفرة مما ينافي العدل مردودة غير مسلّمة عند أحد من العقلاء والحكماء».

كذلك كان للدكتور تقي الدين الهلالي أدلة على أن قصة الصلب موضوعة وأدلته هي:

«الدليل الأول: أن الإنجيل يشهد بأن عيسى ﷺ كان معروفاً عندهم، وكان يخطب في المسجد الأقصى الذي كانوا يسمونه بهيكل سليمان، فلا حاجة أن يستأجر اليهود من يدلهم عليه بثلاثين درهماً.

الدليل الثاني: أنهم حكوا أن التلميذ الثاني عشر يهوذا (الأسخريوطي) أخذ من اليهود ثلاثين درهماً على أن يدلّهم عليه، فلما دلّهم عليه وقضوا عليه ردّ لهم الدراهم وندم وتبرّأ من عملهم وخنق نفسه، كل هذا وقع في أقل من أربع وعشرين ساعة، وفيه متناقضات لا تخفى.

الدليل الثالث: وهو أعظمها، بل هو وحده كاف في بطلان هذه القصة، وذلك أنه عندما حكم عليه اليهود بالقتل وأرادوا موافقة الحاكم ـ بيلاطس ـ بعثوه إليه، فسأله الحاكم هل أنت ملك اليهود؟ فقال له: أنت تقول، ولما اشتكاه رؤساء اليهود ورجال الدين عندهم بأنه كفر، وقال في الدين ما استوجب به القتل، سأله ـ بيلاطس ـ: ألا

تسمع إلى ما يقولون وما يشهدون به عليك؟ فأبى أن يتكلم أو ينطق ولو بكلمة واحدة. فسيؤول ذلك النصارى على أنه كان يريد الصلب لأجل فداء الناس ومغفرة ذنوبهم. إذن فلماذا سأل الله أن يصرف عنه تلك الكأس، يعني القتل؟ ولماذا صاح وهو على الصليب يا إلهي لماذا غدرتني؟ كيف يسكت عن بيان الحق ولو لم تكن فيه تبرئة نفسه وأتباعه وتبرئة الحق وهو الفصيح اللسان الذي كان يخطب الخطب الطويلة ويملؤها تقريعاً وتوبيخاً لعلماء اليهود؟ لا يستطيع عاقل أن يصدّق ذلك، وإذا بطلت قصة الصلب والفداء انهدم ما يبني عليه النصارى عقيدتهم من الأساس»[١].

حول قيامة المسيح ورفعه عند النصارى:

ذكرت كتب النصارى حول قيامة المسيح عليه السلام ورفعه أن اليهود عندما رأوا من أعاجيبه ومعجزاته ما هالهم وأخافهم صمّموا على قتله وتآمروا عليه وشكوه ظلماً إلى الوالي حيث تمّ صلبه ودفن، وبعد أن مكث في القبر ثلاثة أيام في عيد الفصح، ومكث أربعين يوماً ارتفع بعدها إلى السماء أمام تلاميذه الذين عيّنهم لنشر ديانته، إذ قال لهم اذهبوا إلى العالم، واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها[٢]...

غير أن هناك قولاً لبعض النصارى من أن المسيح عليه السلام لم يمت بالصلب حيث «رووا أن القبر الذي دُفن فيه المصلوب وُجد في صباح الأحد خالياً، واللفائف ملقاة، وأن اليهود والوثنيين لما علموا بذلك قالوا: إن الجثة سُرقت.

ويروى عن بعض المدققين من علماء أوروبا الأحرار، وكذا الذين يسمون المسيحيين العقليين أن الذي صُلب لم يمت بل أُغمي عليه، فلمّا أُنزل ولُفّ باللفائف ووُضع في ذلكم الناووس أفاق وألقى اللفائف حتى إذا جاء الذين رفعوا الحجر لافتقاده خرج واختفى عن الناس حتى لا يعلم به أعداؤه، ومما أوردوا من التقريب على هذا أن المصلوب لم يجرح منه إلا كفّاه ورجلاه، وهي ليست من المقاتل، ولم يمكث معلقاً إلا ثلاث ساعات، كان يمكن أن يعيش على هذه الصفة عدة أيام، وأنه لما جُرح بالحربة خرج منه دم وماء، والميت لا يخرج منه ذلك، بل قالوا إن ذلك لم يكن صلباً تاماً كالمعتاد في تلك الأزمنة»[٣].

---

(١) د. محمد تقي الدين الهلالي، البراهين الإنجيلية على أن عيسى عليه السلام داخل في العبودية ولا حظ له في الألوهية، ص٤.

(٢) محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص٢٧.

(٣) محمد رشيد رضا، عقيدة الصلب والفداء، ص٣٨ ـ ٣٩.

أما رأي الإسلام فواضح كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

وقال تعالى أيضاً: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [آل عمران: ٥٥ ـ ٥٧].

والوفاة هنا تحمل أكثر من معنى منها: أن الوفاة هنا بمعنى النوم أي: أن معنى متوفيك في هذه الآيات تحمل معنى منيّمك وذلك اعتماداً على آية أخرى إذ إن القرآن يفسر بالقرآن وهذا أقوى التفاسير[١] والله أعلم. وتفسير الآية هنا يبرز في سورة الزُّمَر بقوله تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: ٤٢][٢].

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]. فالوفاة هنا بمعنى النوم.

وقال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٥ ـ ١٥٩] (فأخبر تعالى أنه رفعه إلى السماء بعدما توفاه بالنوم على الصحيح المقطوع به وخلّصه ممن كان أراد أذيته من اليهود الذين وشوا به إلى بعض الملوك الكفرة في ذلك الزمان)[٣].

---

(١) انظر مقدمة ابن كثير، فتح الباري، تحقيق محمد كنعان.

(٢) وكلمة الزُّمر: تعني جماعات وأفواجاً.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٩١.

والمراد بالرفع ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] في هذه الآية أي: إلى محل كرامتي، وجعل ذلك رفعاً للتفخيم والتعظيم، ومثله قوله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصافات: ٩٩]، وإنما ذهب من العراق إلى الشام؛ كذلك المراد رفعه إلى مكان لا يملك الحكم فيه عليه غير الله[١].

وفي إنجيل برنابا ورد أن المسيح عليه السلام رأى أمه وتلاميذه قبل رفعه نهائياً إلى السماء وبيّن لهم حقيقة نجاته وكيف أن الله سبحانه وتعالى أنجاه من كيد اليهود وأنه لم يُصلب بل إن الذي وشى به شُبّه بصورته.

وقد ذكر برنابا ذلك في إنجيله في الفصل العشرين بعد المائتين «أجاب يسوع معانقاً أمه: صدقيني يا أماه لأني أقول لك بالحق إني لم أمت قط لأن الله قد حفظني إلى قرب انقضاء العالم. ولما قال هذا رغب إلى الملائكة الأربعة أن يظهروا ويشهدوا كيف كان الأمر. فظهر من ثم الملائكة كأربع شموس متألقة حتى إن كل أحد خرّ من الهلع ثانية كأنه ميّت. فأعطى حينئذ يسوع الملائكة أربع ملاءات من كتان ليستروا بها أنفسهم لتتمكن أمه ورفاقها من رؤيتهم وسماعهم يتكلمون. وبعد أن أنهض كل واحد منهم عزاهم قائلاً: إن هؤلاء هم سفراء الله. جبريل الذي يعلن أسرار الله. وميخائيل الذي يحارب أعداء الله. ورافائيل الذي يقبض أرواح الميتين. وأوريل الذي ينادي إلى دينونة الله في اليوم الآخر. ثم قصّ الملائكة الأربعة على العذراء كيف أن الله أرسل إلى يسوع وغيّر (صورة) يهوذا ليكابد العذاب الذي باع له آخر. حينئذ قال الذي يكتب: يا معلم إذا كان الله رحيماً فلماذا عذّبنا بهذا المقدار بما جعلنا نعتقد أنك كنت ميتاً؟. ولقد بكتك أمك حتى أشرفت على الموت. وسمح الله أن يقع عليك عار القتل بين اللصوص على جبل الجمجمة وأنت قدوس الله. أجاب يسوع: صدقني يا برنابا إن الله يعاقب على كل خطيئة مهما كانت طفيفة عقاباً عظيماً لأن الله يغضب من الخطيئة. فلذلك لما كانت أمي وتلاميذي الأمناء الذين كانوا معي أحبوني قليلاً حباً عالمياً أراد الله البرّ أن يعاقب على هذا الحب بالحزن الحاضر حتى لا يعاقب عليه بلهب الجحيم. فلما كان الناس قد دعوني الله وابن الله عليّ أنّي كنت بريئاً في العالم، أراد الله أن يهزأ الناس بي في هذا العالم بموت يهوذا معتقدين أنني أنا الذي

(١) محمد رشيد رضا، عقيدة الصلب والفداء، ص١٠.

متّ على الصليب لكي لا تهزأ الشياطين بي في يوم الدينونة. وسيبقى هذا إلى أن يأتي محمد رسول الله الذي متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله. وبعد أن تكلم يسوع بهذا قال: إنك لعادل أيها الرب إلهنا لأن لك وحدك الإكرام والمجد بدون نهاية»(١).

رفع المسيح عند المسلمين:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المسيح ﷺ «لما رُفع إلى السماء جاءته سحابة فدنت منه حتى جلس عليها وجاءته مريم فودّعته وبكت ثم رُفع وهي تنظر وألقى إليها عيسى برداً له وقال: هذا علامة ما بيني وبينك يوم القيامة وألقى عمامته على شمعون(٢)، وجعلت أمه تودعه بإصبعها تشير بها إليه حتى غاب عنها وكانت تحبه حباً شديداً لأنه توفر عليها حبه من جهتي الوالدين إذ لا أب له وكانت لا تفارقه سفراً ولا حضراً»(٣).

وفي رواية لابن عساكر من طريق يحيى بن حبيب فيما بلغه «أن مريم سألت من بيت الملك بعدما صُلب المصلوب بسبعة أيام وهي تحسب أنه ابنها أن يُنزل جسده فأجابهم إلى ذلك ودُفن هنالك فقالت مريم لأم يحيى: ألا تذهبين بنا نزور قبر المسيح فذهبتا فلما دنتا من القبر قالت مريم لأم يحيى: ألا تستترين؟ فقالت: وممن أستتر؟ فقالت: من هذا الرجل الذي هو عند القبر. فقالت أم يحيى: إني لا أرى أحداً فرجت مريم أن يكون جبريل وكانت قد بعد عهدها به فاستوقفت أم يحيى وذهبت نحو القبر فلما دنت من القبر قال لها جبريل وعرفته: يا مريم أين تريدين؟ فقالت: أزور قبر المسيح فأسلم عليه وأحدث عهداً به. فقال: يا مريم إن هذا ليس المسيح إن الله قد رفع المسيح وطهّره من الذين كفروا ولكن هذا الفتى الذي ألقي شبهه عليه وصُلب وقُتل مكانه. وعلامة ذلك أن أهله قد فقدوه فلا يدرون ما فعل به فهم يبكون عليه فإذا كان يوم كذا وكذا فإنك تلقين المسيح. قال: فرجعت إلى

---

(١) إنجيل برنابا ودراسات حول وحدة الدين عند موسى وعيسى ومحمد ﷺ، تحقيق سيف الله أحمد فاضل، دار القلم، الكويت، ط١، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

(٢) شمعون من أتباع المسيح ﷺ المخلصين.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٩٥.

أختها[١] وصعد جبريل. فأخبرتها عن جبريل، وما قال لها من أمر الغيضة. فلما كان ذلك اليوم ذهبت فوجدت عيسى في الغيضة[٢] فلما رآها أسرع إليها وأكبّ عليها فقبّل رأسها وجعل يدعو لها كما كان يفعل وقال: يا أمه[٣] إن القوم لم يقتلوني ولكن الله رفعني إليه وأذن لي في لقائك والموت يأتيك قريباً فاصبري واذكري الله كثيراً. ثم صعد عيسى فلم تلقه إلا تلك مرة حتى ماتت. قال: وبلغني أن مريم بقيت بعد عيسى خمس سنين وماتت ولها ثلاث وخمسون سنة»[٤] رضي الله عنها وأرضاها.

(١) أي أم يحيى بن زكريا عليهما السلام ويقال أختها كما قيل إنها خالتها. والله أعلم.
(٢) الغيضة: البستان.
(٣) المقصود: يا أماه.
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٩٤ ـ ٩٥.

الفصل السادس

اختلاف الناس في المسيح بعد رفعه

اختلاف الناس في المسيح بعد رفعه

بعد رفع المسيح ﷺ، انقسم النصارى بمعتقدهم فيه إلى ثلاث فرق:

١ - منهم من قال إنه الله.

٢ - منهم من قال إنه ثالث ثلاثة.

٣ - منهم من قال إنه عبد الله ورسوله.

فأما الفريق الأول الذي اعتبر أن المسيح ﷺ هو الله، فقد كفر بنص القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ اعْبُدُوا۟ اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢]. وأما الفريق الثاني الذي اعتبر أن الله ثالث ثلاثة، فخاطبهم القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة: ٧٣].

فقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ﴾.

قال ابن جرير وغيره المراد بذلك «قولهم بالأقانيم الثلاثة[١]. أقنوم الأب وأقنوم

(١) نقل الكاتب محمد عزت الطهطاوي في المرجع السابق، ص٢٣٦ رأياً لـ«أدولف هرنك» أستاذ تاريخ الكنيسة في جامعة برليني حول صيغة التثليث فقال: «إن صيغة التثليث هذه التي تتكلم عن الآب والابن والروح القدس غريب ذكرها على لسان المسيح، ولم يكن لها وجود في عصر الرسل، وهو الشيء الذي كانت تبقى جديرة به لو أنها صدرت عن المسيح شخصياً». =

الابن وأقنوم الكلمة المنبثقة من الآب إلى الابن على اختلافهم في ذلك ما بين الملكية واليعقوبية والنسطورية»[(١)].

وقد توعد الله تبارك وتعالى النصارى بقوله جلّ وعلا: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، ثم دعاهم برحمته ولطفه إلى التوبة والاستغفار من هذه الادعاءات والعظائم التي توجب النار فقال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: ٧٤]. ثم بيّن حال المسيح وأمّه وأنه عبد رسول وأمّه صدّيقة وأفضل نساء زمانها على الأرض قاطبة وليست فاجرة كما يقول اليهود لعنهم الله بكفرهم.

وخاطب القرآن الكريم الذين قالوا بأن المسيح ﷺ هو ابن الله قائلاً: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الزخرف: ٨١، ٨٢].

وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: ١١١].

وقال جلّ من قائل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يذكر المولى سبحانه أن السماوات تكاد تنشق والجبال تخرّ وتتفجّر من هول كلام الناس بأن الله قد اتخذ ولداً، وذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾

= وقد ورد في قاموس الكتاب المقدّس الذي ألّفه نخبة من الأساتذة ذوي الاختصاص ومن اللاهوتيين، وهم الدكتور بطرس عبد الملك أستاذ الدراسات الشرقية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، والدكتور جون الكسندر طومسن، والأستاذ إبراهيم مطر، وقدم له د. فيليب حتي الأستاذ الشرقي في جامعة برنستون، عن عقيدة التثليث ما يلي:

«اعترف كبار علماء اللاهوت أنها لم ترد في الكتاب المقدس، ويظن أن أول من صاغها واخترعها واستعملها هو ترتليان في القرن الثاني للميلاد وقد خالفه كثيرون، ولكن مجمع نيقية أقر التثليث سنة ٣٢٥ ميلادية، ثم استقر التثليث بعد ذلك عند الكنائس النصرانية على يد أوغسطينوس في القرن الخامس الميلادي. انظر قاموس الكتاب المقدس ـ التثليث ـ وانظر محمد عزت الطهطاوي، المرجع السابق، ص٢٣٦.

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٧٣.

إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٥].

وقال تعالى عن المشركين: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾﴾ حكاية لجناية القائلين: عُزَيْر ابن الله. وعيسى ابن الله. والملائكة بنات الله من اليهود والنصارى والعرب، تعالى شأنه عما يقولون علواً كبيراً[(١)].

﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾﴾ رد لمقالتهم الباطلة وتهويل لأمرها بقصد الالتفات من الغيبة إلى الخطاب المتنبىء عن كمال السخط وشدة الغضب المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح وتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجراة[(٢)].

إن السماوات تكاد تتشقق وكذلك الأرض والجبال تكاد تخرّ وتهدم من ادعاء بعض الناس أن لله ولداً وذلك من شدة التقوّل على الله.

«فمن أضاف إليه ولداً فقد جعله كبعض خلقه وأخرجه بذلك عن استحقاق اسم الرحمٰن، هو من دعا بمعنى سمى المتعدي إلى مفعولين، فاقتصر على أحدهما الذي هو الثاني طلباً للعموم والإحاطة بكل ما دعا له ولداً، أو من دعا بمعنى نسب الذي مطاوعه في قوله عليه الصلاة والسلام: «من ادعى إلى غير مواليه...» أي: لا ننسب إليه»[(٣)].

(وثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: شتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك يزعم أن لي ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد»[(٤)]. وفي الصحيح أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم» ولكن ثبت في الصحيح أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»[(٥)]. وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ

---

(١) الألوسي، روح المعاني، ج١٦، ص١٣٩.

(٢) الألوسي، المرجع السابق، ج١٦، ص١٣٩ وما بعدها.

(٣) الزمخشري (٤٦٧هـ ـ ٥٣٨هـ)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج٢، ص٥٢٦، مطبعة البابي الحلبي وأولاده، مصر، طبعة أخيرة، ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٧٤.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١، ص٧٤. جاء في صحيح مسلم نحو هذا، حديث رقم ١٩٢٨، باب: ما أحد أصبر على أذى نفسه من الله تعالى.

أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج: ٤٨]. وقال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠]. وقال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ١٧][1].

وتبين الآيات الكريمة أن الله تبارك وتعالى رحم عباده الكافرين في الدنيا، إذ وضع الرحمة لهم مع كفرهم، عبر الرزق والمعافاة. ثم يأخذهم بالعقاب الشديد بعد ذلك في الدنيا والآخرة ما لم يتوبوا. فهو الذي يغفر الذنوب لعباده التائبين العائدين إليه، الطالبين المغفرة منه ويقبل توبتهم.

قال تعالى في أول سورة غافر: ﴿حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [غافر: ١ - ٣].

ويبدو للناظر أن الإشراك بالله كان ظاهراً في حياة المسيح عليه السلام، بينما كان المسيح عليه السلام يدعو الناس إلى وحدانية الله وأن المشرك بالله حُرّمت عليه الجنة وجُعل من القوم الكافرين.

وفي ما ذكره القرآن الكريم عن حياة السيد المسيح عليه السلام قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة: ٧٢، ٧٣][2].

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٧٤.

(٢) وقد ورد في إنجيل يوحنا، الإصحاح السابع عشر، العدد ٣، قول المسيح عليه السلام في مناجاته لله تبارك وتعالى: «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته». فذكر المسيح عليه السلام أن الحياة الأبدية، عبارة عن أن يعرف الناس أن الله واحد أحد، فرد صمد وأن المسيح عليه السلام رسوله. ولم يقل إن الحياة الأبدية أن يعرفوا أن الله ثلاثة أقانيم، وأن المسيح إنسان وإله أو أنه إله مجسم.

هذا وخلال مناظرة في استكهولم بين الشيخ أحمد ديدات وكبير قساوسة السويد القسيس استانلي شوبيرج، أورد الشيخ ديدات قول الله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] وشرح موضحاً «أن المسيح عيسى ابن مريم وأمه كانا يأكلان الطعام ويستحيل أن يكون المسيح إلهاً، ويستحيل أن يكون هو وأمه إلهين، لأن أي شخص يتناول الطعام ويأكله يستحيل أن يكون إلهاً. إن الكاثوليك يعتبرون أن العذراء مريم إلّهة كما أن عيسى إله. ولقد كان المسيح، وكانت أمه تأكل الطعام. وكل شخص يأكل الطعام يحتاج الذهاب إلى دورة المياه في وقتنا الراهن. وكان الناس في الماضي يذهبون إلى الغائط خلف بعض الأشجار أو الشجيرات بعد انقضاء مدة على تناولهم الطعام. وليس هذا شأن الله... لقد أوضحت هذه الآية من القرآن الكريم أن عيسى ابن مريم هو المسيح وأنه رسول الله ولكنه ليس إلهاً، كما أوضحت السبب في استحالة أن يكون المسيح إلهاً وأن تكون أمه العذراء مريم إلّهة بسبب أنهما كانا يأكلان الطعام.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران: ٤٥].

في هذا الموضع أيضاً من القرآن الكريم يتبين أن عيسى ابن مريم هو المسيح، وقد أنعم الله عليه في الدنيا والآخرة ومن المقربين إلى الله سبحانه وتعالى، وليس المسيح عيسى ابن مريم إلهاً يحق لأحد من الناس أن يتوجه إليه بالعبادة. وليس معنى ذلك أنه يجلس على يمين الله كما يقول المسيحيون(١)، لأن الله ليس رجلاً محدوداً جغرافياً وفسيولوجياً بمكان، يجلس على كرسي، وعيسى المسيح يجلس عن يمينه... كلا... إن عيسى ابن مريم من المقربين إلى الله على سبيل التكريم كما تقول عن رجل يساعدك: إن هذا الرجل هو الساعد الأيمن لي.

ولم يقل عيسى للناس: «أنا إله» ولقد رأيتم أن ماستر استانلي كان يقول إنني تحديته، وأنا لا أتحدى أحداً. إنني عندما ألتقي من آنس منه القدرة على المعرفة في أي مكان من العالم فإنني أسأل: أيها الإخوة... أيتها الأخوات: لو كان عيسى إلهاً، أطلعوني ـ من فضلكم ـ على أي جملة بالإنجيل يقول فيها عيسى بنفسه: «أنا إله» أو

(١) ذكر في القرآن الكريم عن الله سبحانه وتعالى قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ في تعبير مجازي.

يقول: «اعبدوني». وأُقْسِمُ بالله أنني لم أجد ما أنشده حتى هذه اللحظة، هذه الليلة. . . وأكون سعيداً كل السعادة لو أن ماستر استانلي فتح إنجيله في أي وقت وقال لي: اقرأ. ها هو ذا إنجيل يوحنا مثلاً يقول بالجملة الأولى من الإصحاح الأول مثلاً على لسان عيسى «أنا إله» أو يقول: «اعبدوني». هذا مستحيل»(١).

وقد بيّن الله تبارك وتعالى أنه قادر على أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً بقوله جلّ وعلا: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧]. أي: فمن يمنع من قدرة الله تعالى وإرادته شيئاً ﴿إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾. والمراد هنا الإهلاك والإماتة والإعدام مطلقاً لا عن سخط وغضب، «وإظهار المسيح على الوجه الذي نسبوا إليه الألوهية حيث ذكرت معه الصفة في مقام الإضمار لزيادة التقدير والتنصيص على أنه من تلك الحيثية بعينها داخل تحت قهره تعالى وملكوته سبحانه، وقيل: وصفه بذلك للتنبيه على أنه حادث تعلقت به القدرة بلا شبهة لأنه تولد من أم، وتخصيص الأم بالذكر مع اندراجها في عموم المعطوف لزيادة تأكيد عجز المسيح، ولعل نظمها في سلك من فرض إهلاكهم مع تحقق هلاكها قبل لتأكيد التبكيت وزيادة تقرير مضمون الكلام بجعل حالها أنموذجاً لحال بقية من فرض إهلاكه، وتعميم إرادة الإهلاك مع حصول الغرض بقصرها على عيسى عليه الصلاة والسلام لتهويل الخطب وإظهار كمال العجز ببيان أن الكل تحت قهره وملكوته تعالى لا يقدر على دفع ما أريد به فضلاً عما أريد بغيره، وللإيذان بأن المسيح أسوة لسائر المخلوقات في كونه عرضة للهلاك كما أنه أسوة لهم في العجز وعدم استحقاق الألوهية»(٢).

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الزخرف: ٨٥] أي: ما بين طرفي العالم الجسماني فيتناول ما في السماوات من الملائكة وغيرها، وما في أعماق الأرض والبحار من المخلوقات(٣).

---

(١) مناظرتان في استكهولم بين داعية العصر أحمد ديدات وكبير قساوسة السويد: استانلي شوبيرج، ص١٣٤ و١٣٥، علي الجوهري، دار الفضيلة، القاهرة، ١٩٩٢م.
(٢) الألوسي، المرجع السابق، ج٦، ص٩٩.
(٣) الألوسي، المرجع السابق، ج٦، ص٩٩.

وقيل: هناك دليل آخر على نفي ألوهية عيسى ﷺ لأنه لو كان إلهاً كان له ملك السماوات والأرض وما بينهما، «وقيل: دليل على نفي كونه عليه الصلاة والسلام ابناً ببيان أنه مملوك لدخوله تحت العموم، ومن المعلوم أن المملوكية تنافي النبوة»[(١)]. بينما الألوهية والربوبية لا ينبغي أن تكون إلا لله من دون البشر. قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠].

والأنبياء المرسلون الذين أعطاهم الله النبوة والحكمة هم السفراء بين الله وخلقه، ليبلغوهم رسالات الله.

وقوله: ﴿وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ أي: أهل عبادة وتقوى فتعلمونه لغيركم ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ تحفظون ألفاظه. وحول هذه الآية الكريمة ذكر القرطبي الربّانيون، واحدهم: ربّاني منسوب إلى الرب، والربانيون: أرباب العلم، واحدهم: ربّان، من قولهم: ربه يربه فهو ربّان إذا دبّره وأصلحه، فمعناه على هذا يدبّرون أمور الناس ويصلحونها. وقيل: الرباني الذي يجمع إلى العلم البصر بالسياسة. ويوم مات ابن عباس قال محمد بن الحنفية: «اليوم مات ربّاني هذه الأمة».

أما قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ فقد روي عن الحبيب محمد ﷺ أنه قال: «ما من مؤمن ذكر ولا أنثى ولا مملوك إلا ولله عزّ وجل عليه حق أن يتعلم القرآن ويتفقه في دينه - ثم تلا هذه الآية[(٢)] - ﴿وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾».

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران: ٨٠] أي: ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله، لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: لا يفعل ذلك إلا من دعا إلى عبادة غير الله، ومن دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر، والأنبياء إنما يأمرون بالإيمان وهو عبادة الله وحده لا شريك له[(٣)].

---

(١) الألوسي، المرجع نفسه، ج٦، ص٩٩ و١٠٠.

(٢) القرطبي، مختصر تفسير القرطبي (أبو عبد الله محمد أحمد الأنصاري القرطبي)، اختصار محمد كريم راجح، ج١، ص٣٢٣، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٣) ابن كثير، فتح القدير تهذيب ابن كثير، تحقيق محمد أحمد كنعان، ج١، ص٩٩.

اختلاف الأحزاب من بينهم (النصارى) ومجمع نيقية:

قال تعالى في الذين اختلفوا في أمر المسيح ﷺ: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ٣٧﴾. أي: اختلف قول أهل الكتاب في المسيح ﷺ وهم الأحزاب في هذه الآية الكريمة، وذلك بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فصممت طائفة منهم، وهم جمهور اليهود عليهم لعنة الله، على أنه ولد زنا، وقالوا: كلامه هذا سحر، وقال آخرون: بل هو ابن الله، وقال آخرون: ثالث ثلاثة، وقال غيرهم: بل هو عبد الله ورسوله، وهذا هو قول الحق الذي أرشد الله إليه المؤمنين، وقد روي نحو هذا عن عمرو بن ميمون، وابن جريج، وقتادة، وغيرهم[1].

وهذا التوجيه الرباني لم ينتهِ عند هذه الآية، بل استمر في موضع آخر من القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ [النساء: ١٧١].

الكلام هنا موجَّه إلى النصارى الذين اختلفوا في عيسى، حيث قال بعضهم: عيسى ﷺ ابن الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وبعضهم قالوا: إنه الله سبحانه، وآخرون اعتقدوا أنه ثالث ثلاثة ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ أي: لا تذكروا ولا تعتقدوا إلا القول الحق دون القول المتضمن لدعوى الاتحاد والحلول واتخاذ الصاحبة والولد.

---

(١) فتح القدير تهذيب ابن كثير، ج٤، ص٧٣ و٧٤، تحقيق محمد أحمد كنعان. وأضاف المرجع قائلاً: «وقد ذكر غير واحد من علماء التاريخ من أهل الكتاب وغيرهم: أن قسطنطين جمعهم في محفل كبير من مجامعهم الثلاثة المشهورة عندهم، فكان جماعة الأساقفة منهم: ألفين ومائة وسبعين أسقفاً، فاختلفوا في المسيح ابن مريم ﷺ اختلافاً متبايناً جداً، فقالت كل شرذمة فيه قولاً، فمائة تقول فيه شيئاً، وسبعون تقول فيه قولاً آخر، وخمسون تقول شيئاً آخر، ومائة وستون تقول شيئاً، ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلاثمائة وثمانية منهم، اتفقوا على قول وصمموا عليه، فمال إليهم الملك وكان فيلسوفاً، فقدّمهم ونصرهم وطرد من عداهم، فوضعوا له الأمانة الكبيرة بزعمهم، ووضعوا له كتب القوانين وشرعوا له أشياء، وابتدعوا بدعاً كثيرة، وحرّفوا دين المسيح وغيّروه، فابتنى لهم حينئذ الكنائس الكبار في مملكته كلها: بلاد الشام والجزيرة والروم، فكان مبلغ الكنائس في أيامه ما يقارب اثني عشر ألف كنيسة، وبنت أمه هيلانة على المكان الذي صُلب فيه المصلوب الذي يزعم اليهود أنه المسيح كنيسة القيامة.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ فمعناه أنه عليه السلام مقصور على رتبة الرسالة لا يتخطاها إلى ما يقولون ﴿وَكَلِمَتُهُۥ﴾ عطف على ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ ومعنى كونه «كلمة» أنه حصل بكلمة كن من غير مادة معتادة، وأورد أبو حامد الغزالي حول هذا الأمر ما يلي: «ومحال أن يريد بالكلمة، لفظاً ذا حروف، وإنما يريد بالكلمة، سرًّا منه، يهبه لمن يشاء من عباده، يحصل لهم به التوفيق إلى ما يصيّرهم غير مباينين لله عزّ وجل، بل يصيّرهم لا يحبون إلا ما يحبه، ولا يبغضون إلا ما يبغضه، ولا يكرهون إلا ما يكرهه، ولا يريدون إلا ما يريده من الأقوال والأعمال اللائقة بجلاله.

فإذا أصارهم[١] التوفيق إلى هذه الحالة، حصل لهم المعنى المصحح للتجوز، ويدل على صحة هذا التأويل الصارف إلى المجاز المذكور أنه عليه السلام احترز عن إرادة ظاهر هذا النص الدال على الاتحاد...

فصرّح بأنه رسول، متبرئاً من الإلهية التي تخيل اليهود أنه ادعاها، مثبتاً لنفسه خصوصية الأنبياء، وعلوّ درجاتهم على غيرهم، ممن ليسوا أنبياء»[٢].

وقوله تعالى: ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ أي: أوصلها إليها وحصلها فيها، وقيل: معناه أنه يهتدي بها كما يهتدي بكلام الله تعالى[٣]. ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ عطف على ما قبله وسمي ابن مريم عليه السلام روحاً لأنه حدث عن نفخة جبرائيل عليه السلام في درع مريم عليها السلام بأمر الله سبحانه.

وحول «روح منه» يروى «أن طبيباً نصرانياً حاذقاً للرشيد ناظر علي بن الحسين الواقدي المروزي ذات يوم فقال له: إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى عليه السلام جزء منه تعالى، وتلا هذه الآية، فقرأ الواقدي قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] فقال: إذن يلزم أن يكون جميع الأشياء جزءاً منه سبحانه وتعالى علواً كبيراً فانقطع النصراني فأسلم، وفرح الرشيد فرحاً شديداً، وحصل الواقدي بصلة فاخرة»[٤].

---

(١) أصارهم: صار بهم.
(٢) أبو حامد الغزالي، الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل، تحقيق د. محمد عبد الله الشرقاوي، ص١٠٣، دار الهداية، القاهرة، لا.ت.
(٣) لمزيد من التفصيل انظر الألوسي، روح المعاني، ج٦، ص٢٤.
(٤) الألوسي، المرجع السابق، ج٦، ص٢٥.

وقال جلّ من قائل: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ﴾ [النساء: ١٧١] أي: آمنوا بالله وخصوه بالألوهية وآمنوا برسله أجمعين ولا تخرجوا أحداً منهم إلى ما يستحيل وصفه به من الألوهية ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ﴾ أي: الآلهة ثلاثة: الله سبحانه، والمسيح، ومريم كما ينبىء عنه قوله تعالى مخاطباً عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ [المائدة: ١١٦]، إذ معناه (إلهين) غير الله تعالى فيكون معه ثلاثة[(١)].

الناجون في القرآن الكريم:

إن الناجين في القرآن الكريم هم الذين اعتبروا المسيح عليه السلام عبد الله ورسوله، وشهدوا لله بالوحدانية واليوم الآخر. قال تعالى في كتابه المجيد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٦٢].

وفي هذه الآية الكريمة عدة شروط للنجاة يوم القيامة أولها: الإيمان بالله ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾، وشرط الإيمان بالله: الإيمان بملائكته وكتبه ورسله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فأركان الإيمان هذه يجب أن تتوافر في النصارى الواردين في الآية الكريمة.

وثانيها: الإيمان بيوم الحساب والجزاء «اليوم الآخر»، والإيمان باليوم الآخر يستدعي العمل بما يؤهّل للنجاة فيه، وأول ما يؤهّل للنجاة فيه: حبّ الله تعالى ورسوله ﷺ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وثالثها: العمل الصالح ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ وأولى الأعمال الصالحة: عبادة الله حق عبادته، والبر بمخلوقاته[(٢)]، والإحسان إليهم بالمعاملة الحسنة.

أما من اتخذ مع الله ولداً ولم يكن من المؤمنين بوحدانية الله عزّ وجل وتنزيهه، فإنه مهما أتى من الأعمال الصالحة لنفسه أو حتى للبشرية جمعاء فإنما عمله هباءً منثوراً، لا يلقى من ربه أي ثواب. قال تعالى: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ﴾ [إبراهيم: ١٨].

---

(١) الألوسي، روح المعاني، ج٦، ص٢٦.

(٢) ابن الخطيب، هذا هو الحق رد على مفتريات كاهن كنيسة، ص٩٠ ـ ٩١.

خطاب الله لعيسى يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٨].

يخبر تعالى أنه يسأل عيسى ابن مريم يوم القيامة على سبيل الإكرام له والتقريع والتوبيخ لعابديه ممن كذب عليه وافترى وزعم أنه ابن الله أو أنه الله أو أنه شريك الله، تعالى الله عما يقولون. فيسأله وهو يعلم أنه لم يقع منه ما يسأله عنه ولكن لتوبيخ من كذب عليه فيقول له: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: تعاليت أن يكون معك شريك. ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ أي: ليس هذا يستحقه أحد سواك».

وقيل: كان هذا الخطاب بعد الغروب فصلّى ﷺ المغرب ثلاث ركعات شكراً لله تعالى حين خاطبه بذلك، وكانت الركعة الأولى لنفي الألوهية عن نفسه، والركعة الثانية لنفيها عن أمه. والركعة الثالثة لإثباتها لله عزّ وجل. فهو عليه الصلاة والسلام أول من صلّى المغرب[(١)]. والله تعالى أعلم.

وذكر الألوسي في تمام هذه الآية ص٦٥ من جزئه السابع قائلاً: «واستشكلت الآية بأنه لا يعلم أن أحداً من النصارى اتخذ مريم ﷺ إلهاً. وأجيب عنه بأجوبة: الأول: أنهم لما جعلوا عيسى عليه الصلاة والسلام إلهاً لزمهم أن يجعلوا والدته أيضاً كذلك لأن الولد من جنس من يلده فذكر ﴿إِلَٰهَيْنِ﴾ على طريق الإلزام لهم. والثاني: أنهم لما عظموها تعظيم الإله أطلق عليها اسم الإله كما أطلق اسم الرب على الأحبار والرهبان في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لما أنهم عظموهم تعظيم الرب. والثالث: أنه يحتمل أن يكون فيهم من قال بذلك. ويعضد هذا القول ما حكاه أبو جعفر الإمامي عن بعض النصارى أنه قد كان فيما مضى قوم يقال لهم: المريمية يعتدّون في مريم أنها إله»[(٢)].

---

(١) الألوسي، روح المعاني، ج٧.

(٢) الألوسي، روح المعاني، ج٧، ص٦٤.

﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦]. وهذا تأدب عظيم في الخطاب والجواب ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ [المائدة: ١١٧] حين أرسلتني إليهم وأنزلت عليّ الكتاب الذي كان يتلى عليهم ثم فسر ما قال لهم بقوله: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ أي: خالقي وخالقكم ورازقي ورازقكم ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى﴾ أي: رفعتني إليك حين أرادوا قتلي وصلبي فرحمتني وخلّصتني منهم وألقيت شبهي على أحدهم حتى انتقموا منه فلما كان ذلك ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾. ثم قال على وجه التفويض إلى الرب عزّ وجل والتّبرّي من أهل النصرانية: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ أي: وهم يستحقون ذلك، ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وهذا التفويض والإسناد إلى المشيئة بالشرط لا يقتضي وقوع ذلك ولهذا قال: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ولم يقل الغفور الرحيم(١).

وذكر الألوسي في تفسيره روح المعاني حول هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى قادر قدير، عن قوله تعالى: (﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ على معنى إن تعذبهم لم يلحقك بتعذيبهم اعتراف لأنك المالك المطلق لهم ولا اعتراف على المالك المطلق فيما يفعله بملكه، وقيل: على معنى «بأن تعذبهم» لم يستطع أحد منهم دفع ذلك عن نفسه لأنهم عبادك الأرقاء في أسر ملكك وماذا تبلغ قدرة العبد في جنب قدرة مالكه، وقيل: المعنى إن تعذبهم فإنهم يستحقون ذلك لأنهم عبادك وقد عبدوا غيرك وخالفوا أمرك وقالوا ما قالوا)(٢).

﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] أي: فإن تغفر لهم ما كان منهم لا يلحقك عجز بذلك ولا استقباح فإنك القوي القادر على جميع المقدورات التي من جملتها الثواب والعقاب، الحكيم الذي لا يريد ولا يفعل إلا ما فيه حكمة، والمغفرة للكافر لم يعدم فيها وجه حكمة لأن المغفرة حسنة لكل مجرم في المعقول بل متى كان المجرم أعظم جرماً كان العفو عنه أحسن لأنه أدخل في

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٧٤. وقد جاء في السنة الشريفة عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قام بهذه الآية الكريمة ليلة حتى أصبح ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ وقال: إني سألت ربي عزّ وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها وهي نائلة إن شاء الله تعالى لمن لا يشرك بالله شيئاً.

(٢) الألوسي، روح المعاني، ج٧، ص٧٠.

الكرم وإن كانت العقوبة أحسن في حكم الشرع من جهات أخر، وعدم المغفرة للكافر بحكم النص والإجماع لا للامتناع الذاتي فيه ليمتنع الترديد والتعليق[١].

«وقد نقل الإمام أن غفران الشرك عندنا جائز. وعند جمهور البصريين من المعتزلة قالوا: لأن العقاب حق الله تعالى على المذنب وليس في إسقاطه على الله سبحانه مضرة. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن السدّي أن معنى الآية: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ فتميتهم بنصرانيتهم فيحق عليهم العذاب فإنهم عبادك ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فتخرجهم من النصرانية وتهديهم إلى الإسلام ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[٢].

وحول هذه الآية الكريمة ذكر القرطبي في تفسيره قائلاً: «كان عند عيسى عليه السلام أنهم أحدثوا معاصي، وعملوا بعده بما لم يأمرهم به، إلا أنهم على عمود دينه، فقال: وإن تغفر لهم ما أحدثوا بعدي من المعاصي. وقال: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ولم يقل: فإنك أنت الغفور الرحيم على ما تقتضيه القصة من التسليم لأمره، والتفويض لحكمه. ولو قال: فإنك أنت الغفور الرحيم لأوهم الدعاء بالمغفرة لمن مات على شركه وذلك مستحيل، فالتقدير إن تبقهم على كفرهم حتى يموتوا وتعذبهم فإنهم عبادك، وإن تهدهم إلى توحيدك وطاعتك فتغفر لهم فإنك أنت العزيز الذي لا يمتنع عليك ما تريده؛ الحكيم فيما تفعله؛ تضل من تشاء وتهدي من تشاء»[٣].

بعض الفرق التي اختلفت بالمسيح:

بعد رفع المسيح عليه السلام افترقت النصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة، وكانت من أهم فرقهم وأكبرها ثلاث: الملكائية واليعقوبية والنسطورية والتي أنشئت منها الأليانية والبليارسية والمقدانوسية والسبالية والبوطينوسية والبولية إلى سائر الفرق.

الملكائية:

قالت الملكائية إن المسيح عليه السلام جوهران، أقنوم واحد، لأن الاتحاد وقع بالإنسان الكلي لا الجزئي. والمراد بالأقنوم هو الشخص.

والملكائية هم «أصحاب ملكا الذي ظهر بالروم واستولى عليها؛ ومعظم الروم ملكائية وقالوا: إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح وقد رعت بناسوته. ويعنون بالكلمة:

---

(١) الألوسي، روح المعاني، ج٧، ص٧٠.
(٢) الألوسي، المرجع السابق، ج٧، ص٧٠.
(٣) القرطبي، تفسير القرطبي، ج٦، ص٣٧٨.

أقنوم العلم. ويعنون بروح القدس: أقنوم الحياة ولا يسمعون العلم قبل تدرعه به ابناً بل المسيح مع ما تدرع به ابن فقال بعضهم: إن الكلمة مازجت جسد المسيح كما يمازج الخمر اللبن أو الماء اللبن. وصرحت الملكائية بأن الجوهر غير الأقانيم وذلك كالموصوف والصفة وعن هذا صرحوا بإثبات التثليث، وقد أخبر عنهم القرآن الكريم بقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ١٧]. وقالت الملائكة: المسيح ناسوت كلي لا جزئي وهو قديم أزلي من قديم أزلي ولقد ولدت مريم عليها السلام إلهاً أزلياً والقتل والصلب وقع على الناسوت واللاهوت وأطلقوا لفظ الأبوة والبنوة على الله عزّ وجل وعلى المسيح لما وجدوا في الإنجيل حيث قال: «إنك أنت الابن الوحيد، وحيث قال شمعون الصفا: إنك ابن الله حقاً. ولعل ذلك من مجاز اللغة كما يقال لطلاب الدنيا: أبناء الدنيا، ولطلاب الآخرة: أبناء الآخرة»[1].

اليعقوبية:

هم أتباع يعقوب، وقد نظر اليعاقبة للمسيح عليه السلام على «أنه بمعنى الممازجة والمخالطة ـ مع الله حتى صار منهما شيء ثالث، كما تمتزج النار بالفحمة فيصير منهما جمرة، والجمرة ليست ناراً خالصة ولا فحمة خالصة. وجعلوا ذلك بمعنى التركيب الارتباطي، وإن كان من جسماني وروحاني كحال النفس المجرّدة والبدن، فإن أحدهما ارتبط بالآخر حتى صارا شخصاً واحداً. فقالوا: إن المسيح جوهر من جوهرين وأقنوم من أقنومين»[2].

النسطورية:

النساطرة هم «أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في زمان المأمون وتصرّف في الأناجيل بحكم رأيه وإضافتهم إليه إضافة المعتزلة إلى هذه الشريعة. قال: إن الله تعالى واحد ذو أقانيم ثلاثة: الوجود والعلم والحياة. وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذات ولا هي هو، واتحدت الكلمة بجسد عيسى عليه السلام لا على طريق الامتزاج كما قالت الملكائية، ولا على طريق الظهورية كما قالت اليعقوبية، ولكن كإشراق الشمس في كوّة أو على بلّور أو كظهور النّقش في الخاتم»[3].

---

(١) ابن حزم، الملل والأهواء والنحل، ج٢، هامش ص٦٢.

(٢) حواشي ابن المحرومة لابن كمونة، ص١٩١ ـ ١٩٢.

(٣) هامش كتاب ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج٢، ص٦٤.

وقد ذكر في كتاب حواشي ابن المحرومة لابن كمونة، ص١٩٢، أن رأي النساطرة في الاتحاد: «هو على معنى أن الكلمة جعلته هيكلاً ومحلاً وادّعته ادّراعاً. ولذلك قالوا: إن المسيح جوهران أقنومان». هذا، وقد ذكر الألوسي، أن نسطور الحكيم ذهب «إلى أن الله تعالى واحد والأقانيم الثلاثة ليست غير ذاته ولا نفس ذاته، وأن الكلمة اتحدت بجسد المسيح لا بمعنى الامتزاج بل بمعنى الإشراق، أي: أشرقت عليه كإشراق الشمس على كوّة أو على بلّور.

ومن النّسطورية من قال: إن كل واحد من الأقانيم الثلاثة حيّ ناطق موجود، وصرّحوا بالتثليث كالملكائية، ومنهم من منع ذلك ومنهم من أثبت صفات أخرى، كالقدرة والإرادة ونحوها لكن لم يجعلوها أقانيم، وزعموا أن الابن لم يزل متولداً من الآب وإنما تجسده وتوحده بجسد المسيح حين ولد، والحدوث راجع إلى الناسوت، فالمسيح إله تام وإنسان تام، وهما قديم وحادث، والاتحاد غير مبطل لقدم القديم ولا لحدوث الحادث، وقالوا: إن الصلب ورد على الناسوت دون اللاهوت، وذهب بعض اليعقوبية إلى أن الكلمة انقلبت لحماً ودماً فصار الإله هو المسيح، وقالوا: إن الله هو المسيح عيسى ابن مريم وأوردوا عن يوحنا الإنجيلي أنه قال في صدر إنجيله: إن الكلمة صارت جسداً وحلّت فينا، وقال: في البدء كانت الكلمة والكلمة عند الله والله تعالى هو الكلمة، ومنهم من قال: ظهر اللاهوت بالناسوت بحيث صار هو هو وذلك كظهور الملك في الصوَر المشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]. ومنهم من قال: جوهر الإله القديم وجوهر الإنسان المحدث تركّبا تركّب النفس الناطقة مع البدن وصارا جوهراً واحداً، وهو المسيح، وهو الإله، ويقولون: صار الإله إنساناً وإن لم يصر الإنسان إلهاً كما يقال في الفحمة الملقاة في النار: صارت ناراً، ولا يقال: صارت النار فحمة، ويقولون: إن اتحاد اللاهوت بالإنسان الجزئي دون الكلي، وإن مريم ولدت إلهاً وإن القتل والصلب واقع على اللاهوت والناسوت جميعاً إذ لو كان على أحدهما بطل الاتحاد، ومنهم من قال: المسيح مع اتحاد جوهره قديم من وجه محدث من وجه، ومن اليعقوبية من قال: إن الكلمة لم تأخذ من مريم شيئاً وإنما مرّت بها كمرور الماء بالميزاب، ومنهم من زعم أن الكلمة كانت تداخل جسد المسيح فتصدر عنه الآيات التي كانت تظهر عنه وتفارقه تارة فتحله الآفات والآلام، ومن النصارى من زعم أن معنى اتحاد اللاهوت بالناسوت ظهور اللاهوت على الناسوت وإن لم ينتقل من اللاهوت إلى الناسوت شيء ولا حلّ فيه، وذلك كظهور الطابع على الشمع والصور المرئية في

المرآة، ومنهم من قال: إن الوجود والكلمة قديمان والحياة مخلوقة. ومنهم من قال: إن الله تعالى واحد وسماه أباً وإن المسيح كلمة الله تعالى وابنه على طريق الاصطفاء وهو مخلوق قبل العالم وهو خالق للأشياء كلها»(١).

العنّانية:

كانت فرقة العنّانية من الفرق التي آمنت بالمسيح عليه السلام، وكان أعضاء هذه الفرقة فئة من اليهود آمنت بالمسيح عليه السلام كمصدق للتوراة، وقالت: هو ولي من أولياء الله وليس بنبي و«نسبوا إلى رجل يقال له: عنان بن داود رأس الجالوت يخالفون سائر اليهود في السبت والأعياد ويقتصرون على أكل الطير والظباء والسمك ويذبحون الحيوان على القفا ويصدقون عيسى عليه السلام في مواعظه وإشاراته ويقولون إنه لم يخالف التوراة البتّة بل قرّرها ودعا الناس إليها وهو من بني إسرائيل المتعبدين بالتوراة ومن المستجيبين لموسى عليه السلام إلا أنهم لا يقولون بنبوته ورسالته ومن هؤلاء من يقول إن عيسى عليه السلام لم يدّع أنه نبي مرسَل وأنه صاحب شريعة ناسخة لشريعة موسى عليه السلام بل هو من أولياء الله المخلصين العارفين أحكام التوراة. والإنجيل ليس كتاباً منزلاً عليه ووحياً من الله تعالى بل هو جمع أحواله من مبدئه إلى كماله وإنما جمعه أربعة من أصحابه الحواريين فكيف يكون كتاباً منزلاً؟ قالوا: واليهود ظلموا حيث كذّبوه أولاً ولم يعرفوا بعد دعواه وقتلوه آخراً ولم يعلموا بعد محله ومغزاه»(٢).

الدوستيون:

تعتقد فرقة الدوستية بأن شبه عيسى عليه السلام ألقي على المصلوب معتمدة على ما جاء في يوحنا عن المسيح عليه السلام أنه قال: «... أنا معكم زماناً يسيراً بعد، ثم أمضي إلى الذي أرسلني. ستطلبونني ولا تجدونني حيث أكون أنا. لا تقدرون أنتم أن تأتوا...»(٣) وفي ذلك تبيان أن المسيح عليه الصلاة والسلام ذكر لتلاميذه وحوارييه أن اليهود عندما يريدون صلبه لن يجدوه لأن الله سيرفعه عندها إلى السماء وحيث هو لن تستطيع يد الوصول إليه، لأن السماء ليس عليها سلطان اليهود وغيرهم.

---

(١) الألوسي، روح المعاني، ج٦، ص٢٧. وهناك تعليق حول اليعاقبة والنساطرة في كتاب «حواشي ابن المحرومة على كتاب تنقيح الأبحاث لابن كمونة» ص٢٠١ وما بعدها. انظر أبا البقاء صالح بن الحسين الجعفي، المرجع السابق، ص٧٢.

(٢) هامش صفحة ٥٤ و٥٥ من كتاب ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج٢.

(٣) إنجيل يوحنا، إصحاح ٧، العدد ٣٣ ـ ٣٤.

وهذا الرأي أورده المفكر برتراند راسل بقوله: «. . . كانت طائفة الدوستيين المشبهين قد ذهبوا إلى أن المسيح لم يكن هو الذي صُلب، بل بديل أشبه به، وقد ظهر رأي مماثل لذلك في الإسلام»[١].

الأبيونيون:

أورد الشيخ محمد رشيد رضا في كتابه عقيدة الصلب والفداء عن الفرقة الأبيونية ما نصه: «إن الفرقة الأبيونية من فرق النصارى في القرن الأول للميلاد كانت تصدق بإنجيل متّى وحده وتنكر ما عداه، ولكن كان ذلك الإنجيل مخالفاً لأنجيل متّى الذي ظهر بعد ظهور قسطنطين»[٢].

المارسيونيون:

«إن الفرقة المارسيونية من فرق النصارى القديمة كانت تأخذ بإنجيل لوقا، وكانت النسخة التي تؤمِن بها مخالفة للموجودة الآن، وكانت تنكر سائر الأناجيل، وهي عندهم من المبتدعة»[٣].

(١) سعيد أيوب، عقيدة المسيح الدجال في الأديان قراءة في المستقبل، ص٤٥، دار الهادي، ط١، بيروت، ١٤١١هـ - ١٩٩١م نقلاً عن برتراند راسل، حكمة الغرب، ص٢٤٢.

(٢) محمد رشيد رضا، عقيدة الصلب والفداء، ص٣٢.

(٣) محمد رشيد رضا، المرجع السابق، ص٣٢.

الفصل السابع

حول القول بألوهية المسيح

دليل النصارى على ألوهية المسيح

اعتمد النصارى في ألوهية المسيح عليه السلام[1] على ما جاء في سفر (أشعياء ٩)، الإصحاح ٩، العدد ٦، حيث ورد فيه: «لأنه يولد لنا ولد ونعطي ابناً. وتكون الرئاسة على كتفه. ويدعى اسماً عجيباً مشيراً. إلهاً قديراً. أباً أبدياً. رئيس السلام».

وبتحليل نص العدد ٦ هذا يتبين ما يلي:

«لأنه يولد لنا ولد»: تطلق على بني الإنسان بأنه يأتيه مولود وتطلق بالمعنى المجازي على كافة بني إسرائيل من قبل الله، عندما يدّعون أنهم أبناء الله[2] وأحباؤه، «ونعطي ابناً»: لما كانت كلمة الابن تعني العبد البار، كان المعنى أن الله سبحانه وتعالى أراد إرسال عبدٍ بار نبيٍ مرسلٍ إلى بني إسرائيل وعلامته إشارة على كتفه «وتكون الرئاسة على كتفه». كما كان ختم النبوة بين أكتاف سيدنا محمد ﷺ «ويدعى اسماً عجيباً» وهو المسيح لأنه كان يمسح الناس بالزيت أو يقوم بالمعجزات فيمسح على عين الأعمى فيرى بإذن الله.. الخ.

أما قوله: «مشيراً. إلهاً قديراً» أي: مشيراً إلى قدرة الله تبارك وتعالى. «أباً أبدياً. رئيس السلام»: تشير إلى قدرة الله تبارك وتعالى وأنه يرأس كل المخلوقات..

---

(١) ابن الخطيب، هذا هو الحق رد على مفتريات راهب كنيسة، ص٦٩.

(٢) إن لفظة أبناء الله: كانت معروفة زمن نزول الإنجيل وتعني عباد الله الصالحين المخلصين له. وقد جاء ذكر ذلك في إنجيل متّى قوله: «طوبى لصانعي السلام. لأنهم أبناء الله يدعون. طوبى للمطرودين من أجل البر. لأن لهم ملكوت السماوات». انظر إنجيل متّى، الإصحاح ٥، العدد ٩ ـ ١٠.

المسيح يقول عن نفسه: لست صالحاً بل الصالح هو الله:

ورد في الإصحاح العاشر من إنجيل مرقس، العدد ١٧ ـ ١٨: «وفيما هو خارج إلى الطريق ركض واحداً وجثا له وسأله: أيها المعلم الصالح ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟ فقال له يسوع: لماذا تدعوني صالحاً؟ ليس أحد صالحاً إلا واحداً وهو الله»(١).

فلو كان المسيح عليه السلام هو الله أكان يضل الرجل ويقول له: لماذا تدعوني صالحاً؟ ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله كما جاء في إنجيل متّى(٢) أيضاً(٣)؟!.

وفي ذلك ذكر صاحب كتاب «إظهار الحق» أن هذا القول «يقلع أصل التثليث وما رضي تواضعاً أن يطلق عليه لفظ الصالح أيضاً ولو كان إلهاً لما كان لقوله معنى ولكان عليه أن يبيّن أنه لا صالح إلا الآب وأنا وروح القدس، ولم يؤخر البيان عن وقت الحاجة، وإذا لم يرضَ بقوله الصالح فكيف يرضى بأقوال التثليث التي يتفوهون بها في أوقات صلاتهم (يا ربنا وإلهنا يسوع المسيح لا تضيع من خلقت بيدك) حاشا جنابه أن يرضى بها»(٤).

هذا، وبينما يردّ المسيح عليه السلام على السائل الذي يقول له صالح، يذكر يوحنا في إنجيله، الإصحاح العاشر، العدد ١١ عن المسيح عليه السلام قوله: «أنا هو الراعي الصالح. والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف». فمرة ينكر أن يكون صالحاً وأن لا صالح إلا الله ومرة يقول إنه صالح»(٥). فكيف يتفق هذان الأمران مع بعضهما؟!

---

(١) ورد هذا النص في كتاب إظهار الحق، ج٢، ص٣٠، عن إنجيل متّى، الإصحاح ١٩، العدد ١٦ بلفظ مختلف.

(٢) ونص العدد كما ورد في إنجيل متّى هو «وإذا واحد تقدم وقال له: أيها المعلم الصالح أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية؟ فقال له: لماذا تدعوني صالحاً. ليس أحد صالحاً إلا واحداً وهو الله ولكن إن أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا». إنجيل متّى، الإصحاح ١٩، العدد ١٦ ـ ١٧.

(٣) د. ممدوح جاد، المسيح في الإنجيل بشر، ص١٥.

(٤) رحمة الله بن خليل الكيرواني، ج٢، ص٣٠، تحقيق عمر الدسوقي.

(٥) لمزيد من التفصيل انظر ابن حزم، المرجع السابق، ج٢، ص٥٥. يذكر ابن حزم أن إنجيل يوحنا ذكر كلامه في الإصحاح التاسع ولدى التحقيق تبين أنه في الإصحاح العاشر.

المسيح يصلي لله:

جاء في إنجيل يوحنا، الإصحاح السادس والعشرون، العدد ٣٦ ـ ٤١، عن المسيح ﷺ قوله: «حينئذ جاء معهم يسوع إلى ضيعة يقال لها: جشيماني. فقال للتلاميذ: اجلسوا ههنا حتى أمضي وأصلي[(١)] هناك. ثم أخذ معه بطرس وابني زبدى وابتدأ يحزن ويكتئب. فقال لهم: نفسي حزينة جداً حتى الموت امكثوا ههنا واسهروا معي. ثم تقدم قليلاً وخرّ على وجهه وكان يصلي قائلاً: يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس ليس كما أريد بل كما تريد أنت. ثم جاء إلى التلاميذ...» ثم يمضي العدد ٤٢ ليكمل مسار الأعداد السابقة «فمضى أيضاً ثانية وصلّى قائلاً: يا أبتاه إن لم يمكن أن تعبر عني هذه الكأس ألاّ أشربها فلتكن مشيئتك» والعدد ٤٤ يذكر ذلك بقوله: «فتركهم ومضى أيضاً وصلّى ثالثة قائلاً ذلك الكلام بعينه»، فأقواله وأحواله المندرجة في هذه العبارات تدل على عبوديته ونفي ألوهيته.

وجاء في إنجيل متّى، الإصحاح ١١، العدد ٢٥: «في ذلك الوقت أجاب يسوع وقال: أحمدك أيها الآب رب السماء والأرض لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال». فها هو ذا المسيح ﷺ يحمد ربّه ويقرّ بوحدانيته ويحمده كأيّ من البشر بقوله: «أحمدك أيها الآب رب السماء والأرض». فإن كان إلهاً فهل يحمد الإله نفسه؟

كذلك نرى تعبّده لربه في إنجيل متّى أيضاً في الإصحاح ١٤، العدد ٢٣ حيث ورد فيه: «وبعدما صرف الجموع صعد إلى الجبل منفرداً ليصلي. ولما صار المساء كان هناك وحده». المسيح ﷺ يصلي. ولمن يصلي هل يصلي لنفسه أو لأبيه وهل يريد الإله من ابنه أن يصلي وقد قدّمه ذبيحة عن خطايا البشر وهل يكافأ المصلي بالصلب أم بالقرب إلى الله ودخول ملكوت الله كما يعتقد النصارى؟!

وقد علّق الدكتور محمد تقي الدين الهلالي على ذلك قائلاً: (إذا كان المسيح ﷺ هو الله أو جزء من الله، فكيف يصلي فالصلاة لا تكون إلا من العبد الفقير

---

(١) جاء في إنجيل مرقس، الإصحاح الأول، العدد ٣٥ «وفي الصبح باكراً جداً قام وخرج ومضى إلى موضع خلاء وكان يصلي هناك».
لمن كان يصلي المسيح ﷺ في الصباح الباكر كعادة اليهود؟ وصلاة اليهود بها سجود فلمن كان يصلي ويسجد إن كان هو الله؟! لمزيد من التفصيل انظر د. ممدوح جاد، المسيح في الإنجيل بشر، ص١٤، لا.ت.

المحتاج إلى رحمة الله كما قال تعالى في سورة فاطر، الآية ١٥: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾، وقال تعالى في سورة مريم، الآية ٩٣: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾[١].

مناظرة تبطل ألوهية المسيح:

وقعت مناظرة بين الإمام الفخر الرازي رحمه الله وبين أحد القسيسين وهي مذكورة في تفسيره من سورة آل عمران تحت قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٦١].

ومما جاء في هذه المناظرة «. . . فقال النصراني: لا أقول في عيسى عليه السلام إنه كان نبياً، بل أقول إنه كان إلهاً. فقلت ـ الكلام للرازي ـ له: الكلام في النبوة لا بد أن يكون مسبوقاً بمعرفة الإله، وهذا الكلام الذي تقوله باطل ويدل عليه أن الإله عبارة عن موجود واجب الوجود لذاته، يجب ألا يكون جسماً ولا متحيزاً ولا عَرَضاً. وعيسى عبارة عن هذا الشخص البشري الجسماني الذي وُجد بعد أن كان معدوماً، وقُتل بعد أن كان حياً على قولكم، وكان طفلاً أولاً ثم صار مترعرعاً، ثم صار شاباً. وكان يأكل ويشرب ويُحدِث وينام ويستيقظ. وقد تقرر في بداهة العقول أن المُحْدَث لا يكون قديماً، والمحتاج لا يكون غنياً، والممكن لا يكون واجباً والمتغير لا يكون دائماً».

كما ورد في المناظرة أيضاً قول الرازي للنصراني: «إنكم تعترفون بأن اليهود أخذوه وصلبوه وتركوه حياً على الخشبة وقد مزقوا ضلعه، وإنه كان يحتال في الهرب منهم وفي الاختفاء عنهم، وحين عاملوه بتلك المعاملات أظهر الجزع الشديد. فإن كان إلهاً أو كان الإله حالاً فيه أو كان جزءاً من الإله حالاً فيه فلِمَ لَمْ يدفعهم عن نفسه ولِمَ لَمْ يهلكهم بالكلية. . . وبالله إنني لأتعجب جداً أن العاقل كيف يليق به أن يقول هذا القول، ويعتقد صحته. فتكاد أن تكون بداهة العقل شاهدة بفساده».

ثم يتابع قوله: «وهو أنه إما أن يقال بأن الإله هو هذا الشخص الجسماني المشاهد، أو يقال حلّ الإله بكليته، أو حلّ بعض الإله وجزء منه فيه، والأقسام الثلاثة باطلة:

---

(١) محمد تقي الدين الهلالي، المرجع الرابع، ص٢.

أما الأول: فلأن إله العالم لو كان هو ذلك الجسم فحين قتله اليهود كان ذلك قولاً بأن اليهود قتلوا إله العالم فكيف بقي العالم بعد ذلك من غير إله. ثم إن أشد الناس ذلاً ودناءة اليهود فالإله الذي تقتله اليهود إله في غاية العجز.

وأما الثاني: وهو أن الإله بكليته حلّ في هذا الجسم فهو أيضاً فاسد لأن الإله إن لم يكن جسماً ولا عرضاً امتنع حلوله في الجسم، وإن كان جسماً فحينئذ يكون حلوله في جسم آخر عبارة عن اختلاط أجزائه بذلك الجسم، وذلك يوجب وقوع التفرق في أجزاء ذلك الإله. وإن كان عرضاً كان محتاجاً إلى المحل وكان الإله محتاجاً إلى غيره وكل ذلك سخيف.

وأما الثالث: وهو أنه حلّ فيه بعض من أبعاض الإله وجزء من أجزائه فذلك أيضاً محال، لأن ذلك الجزء إن كان معتبراً في الإلهية فعند انفصاله عن الإله وجب أن لا يبقى الإله إلهاً وإن لم يكن معتبراً في تحقيق الإلهية لم يكن جزءاً من الإله. فثبت فساد هذه الأقسام فكان قول النصارى باطلاً».

وتكمل المناظرة مسارها بقول الرازي: «في بطلان قول النصارى ما ثبت بالتواتر من أن عيسى عليه السلام كان عظيم الرغبة في العبادة والطاعة لله تعالى ولو كان إلهاً لاستحال ذلك لأن الإله لا يعبد نفسه. فهذه وجوه في غاية الجلاء والظهور دالّة على فساد قولهم.. ثم قلت للنصراني: وما الذي دلّك على كونه إلهاً؟ فقال: الذي دلّ عليه ظهور العجائب عليه من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وذلك لا يمكن حصوله إلا بقدرة الإله تعالى...»[١].

ويدحض الرازي أن تكون معجزات عيسى عليه السلام من الألوهية، وبرهانه على ذلك المقارنة بين معجزة عيسى عليه السلام في إحياء الموتى بإذن الله ومعجزة موسى عليه السلام في قلب العصا حيّة بإذن الله. وفي ذلك يقول للنصراني في مناظرته: «إن قلب العصا حيّة أبعد في العقل من إعادة الميت حيًّا، لأن المشاكلة بين بدن الحيّ وبدن الميت أكثر من المشاكلة بين الخشبة وبين بدن الثعبان، فإذا لم يوجب قلب العصا حيّة كون موسى عليه السلام إلهاً وابناً للإله فبأن لا يدل إحياء الموتى على الألوهية كان ذلك أولى»[٢].

---

(١) وردت المناقشة كاملة عند رحمة الله بن خليل الكيرواني، إظهار الحق، ج٢، تحقيق عمر الدسوقي، ص٥٨ وما بعدها.

(٢) انظر رحمة الله بن خليل الكيرواني، إظهار الحق، ج٢، تحقيق عمر الدسوقي، ص٦٠.

وقد ذكر الزمخشري في تفسيره الكشاف، ج١، ص٤٣٣ تحت الآية: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ ما يلي: «وعن بعض العلماء أنه أسر بالروم فقال لهم: لمَ تعبدون عيسى؟ قالوا: لأنه لا أب له، قال: فآدم أولى لأنه لا أبوين له، قالوا: كان يحيي الموتى، قال: فحزقيل أولى لأن عيسى عليه السلام أحيا أربعة نفر وأحيا حزقيل ثمانية آلاف، فقالوا: كيف يبرىء الأكمه والأبرص، قال: فجرجيس أولى لأنه طبخ وأحرق ثم قام سالماً».

غاية الصلب عند النصارى للتكفير عن خطيئة آدم:

يذهب النصارى إلى أن المسيح عليه السلام مات على الصليب ليكفر عن خطيئة آدم عليه السلام. وما هذه الخطيئة إلا أنه نسي وأكل من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها.

فالمسيح عليه السلام ابن الله كما يقول النصارى، فهل من المنطق أن يضحي أحد بولده لإنقاذ هرة مثلاً أو لإنقاذ أحد من الناس مهما كان عزيزاً على قلبه؟

فكيف يضحي الإله بابنه الوحيد ليكفّر عن البشر الذين خلقهم وهو قادر على إهلاكهم والإتيان بخلق جديد يطيعونه ولا يعصونه. ثم إذا كان هناك صلب حقيقة، أيعقل أن يرى أحد ابنه يتعذب ولا يسعى لإنقاذه ويخلصه. فكيف بابن الله يُصلب على الصليب ويراه أبوه وهو يقول له: «إلهي إلهي لمَ تركتني»[1] فرغم هذا التضرع الأليم لا يسعى هذا الأب الرحيم لإنقاذ ولده الوحيد بل يتركه لآلامه ولا يسعى لإنقاذه؟!

فغاية الصلب عند النصارى هي فداء المسيح عليه السلام لأجيال البشرية التي ورثت خطيئة آدم عليه السلام بأكله من الشجرة التي نهي عنها. وهل يأثم الأبناء بما عمله الآباء؟

إن الشرائع السماوية لا تقر ذلك ولا حتى القوانين الوضعية التي سنّها البشر. فكيف يكون ذلك في شريعة المسيح عليه السلام ولم يقل هو نفسه بذلك بل قالها من قالها بعد ذهابه من هذا العالم؟

فالشريعة الموسوية مثلاً ذكرت في التوراة أنه «لا يُقتل الآباء عن الأولاد ولا يُقتل الأولاد عن الآباء، كل إنسان بخطيئته يُقتل».

كما ورد في سفر حزقيال ما نصه: «النفس التي تخطىء هي تموت، الابن لا يحمل من إثم الأب، والأب لا يحمل من إثم الابن، برّ البار عليه يكون وشرّ الشرير عليه يكون».

---

(١) إنجيل متّى، الإصحاح ٢٧، العدد ٤٦.

وهذا ما يذكره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

وقال تعالى أيضاً: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

وقد أورد محمد عزت الطهطاوي تعليقاً حول هذا الموضوع في كتابه «الميزان في مقارنة الأديان» ص٢٢٠ ـ ٢٢١ قائلاً: «لما كان المبدأ المعترَف به في الديانات جميعاً وفي القوانين الوضعية وأعراف جميع الناس أنه لا يورث عن الآباء سوى ثرواتهم، أما جرائمهم فلا تورث عنهم ولا تؤاخذ به ذرياتهم فإنه يترتب على ذلك:

١ ـ أنه لا علاقة لذرية آدم بخطيئة آدم عليه السلام إذ لا شأن للذرية بما ارتكبه والدها تطبيقاً لما ورد في سفر التثنية، وسفر حزقيال.. وتطبيقاً لبداهة العقول وأعراف الناس وقوانينهم.

٢ ـ فساد القول بالمعمودية التي يقول عنها النصارى: إنها تطهر المصطبغ بها من خطيئة آدم إذ لا شأن لذرية آدم بما ارتكبه أبوهم من خطيئة».

ويتابع الطهطاوي قائلاً: «إذا كان ابن الله قد تجسّد لمحو الخطيئة الأصلية على زعمهم فما العمل في الخطايا التي تجدّ بعد ذلك، ومنها ما هو أقسى من عصيان آدم، حتى لقد أنكر البعض وجود الله سبحانه، وهاجمه آخرون، فلماذا كانت حكاية التجسد لخطيئة واحدة ثم تُركت باقي خطايا البشر التي لا تُعد ولا تُحصى؟»(١).

هذا، وقد اعتنق الإسلام في القرن التاسع عشر الميلادي أسقف كاثوليكي عراقي يدعى الأب عبد الواحد داود الأشوري العراقي من بلدة نصيبين قام ينقد فكرة التكفير عن الخطيئة في كتابه «الإنجيل والصليب» فكتب يقول: «من العجب أن يعتقد النصارى أن هذا السر اللاهوتي، وهو خطيئة آدم وغضب الله على الجنس البشري بسببها، ظلّ مكتوماً عن كل الأنبياء السابقين ولم تكتشفه إلا الكنيسة بعد حادثة الصليب»(٢).

وفي تعليق لصاحب «الميزان في مقارنة الأديان» حول عقيدة الفداء، ص٢٢٢ أن نظرية الصلب هي: «خلاص النصارى من محن الدنيا ومشاغلها فما بالنا نراهم مثل جميع البشر يجري عليهم ما يجري على غيرهم من معتنقي الديانات الأخرى من سعي على الرزق وإصابتهم بالهموم والأمراض والموت».

(١) محمد عزت الطهطاوي، الميزان الحق في مقارنة الأديان، ص٢٢١.

(٢) محمد عزت الطهطاوي، المرجع السابق، ص٢٢٢.

هذا، وذكر محمد رشيد رضا في كتابه عقيدة الصلب والفداء، ص١٦، أن هذه القصة عند النصارى تَمْثُل في أصل الدين وأساسه ويليها التثليث؛ لأن أصل الدين وأساسه هو الذي يدعى إليه أولاً، ويجعل ما عداه تابعاً له.

وغاية الصلب من أجل فداء البشر أن آدم ﷺ عندما أكل من الشجرة التي نهاه الله عنها، صار هو وجميع ذريته خطاة مذنبين فكانوا مستحقين للعقاب أيضاً بذنوبهم كما أنهم مستحقون له بذنب أبيهم الذي هو الأصل لذنوبهم، وأضاف قائلاً: (ولما كان الله تعالى متصفاً بالعدل والرحمة جميعاً طرأ عليه ـ سبحانه وتعالى عن ذلك ـ مشكل منذ عصى آدم، وهو أنه إذا عاقبه هو وذريته كان ذلك منافياً لرحمته فلا يكون رحيماً!! فكأنه منذ عصى آدم كان يفكر في وسيلة يجمع بها بين العدل والرحمة!! فلم يهتدِ إلى ذلك سبيلاً إلا منذ ألف وتسعمائة واثنتي عشرة سنة بالنسبة إلى سنتنا هذه[1] ـ سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ـ، وذلك بأن يحل ابنه تعالى الذي هو نفسه في بطن امرأة من ذرية آدم ويتحد بجنين في رحمها ويولد منها فيكون ولدها إنساناً كاملاً من حيث هو ابنها، وإلهاً كاملاً من حيث هو ابن الله ـ وابن الله هو الله ـ ويكون معصوماً من جميع معاصي بني آدم، ثم بعد أن يعيش زمناً معهم يأكل مما يأكلون منه ويشرب مما يشربون ويتلذذ كما يتلذذون، ويتألم كما يتألمون، يسخر أعداءه لقتله أفظع قتلة، وهي قتلة الصلب التي لعن صاحبها في الكتاب الإلهي، فيحتمل اللعن والصلب لأجل فداء البشر وخلاصهم من خطاياهم كما قال يوحنا في رسالته الأولى: وهو كفّارة لخطايانا، ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم أيضاً، ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠﴾ [الصافات: ١٨٠])[2].

فيبدو إذن أن الله تبارك وتعالى قد غضب من فعل آدم، وبقي بعده مدة غاضباً عليه، وساكتاً عن معاقبته، حتى ولد لنفسه ولداً، فعمد إلى قتله بذنب العبد الذي كان أذنب له.

أليس ذلك مستغرباً أنه أراد أن يشقّي نفسه على ذلك العبد، فأصبح ذلك زائداً في كربه، وداعياً إلى دوام حزنه؟!

وما دعوى صلب المسيح ﷺ إلا ما أقررتم به من الفداء حين قلتم: (إن آدم وجميع ولده إلى زمان عيسى كانوا كلهم ثاوين في الجحيم بخطيئة أبيهم آدم، حتى

---

(١) وهي السنة التي كتب فيها محمد رشيد رضا مقولته هذه.

(٢) محمد رشيد رضا، عقيدة الصلب والفداء، ص١٦.

فداهم عيسى بإهراق دمه عنهم في خشبة الصليب، ثم نزل في ذلك الوقت إلى الجحيم، وأخرج منها جميعهم إلا «يهوذا الأسخريوطي»»[١].

ولو كان ذنب آدم بقي في أعناق أولاده، حتى أنقذوا منه بدم إله لنطقت به التوراة، ولصرحت به الأنبياء! لأنه أمر شنيع، ومصاب للعالم بشيع: ففي أي موضع من التوراة ذُكر؟ وفي أي صحيفة من صحف الأنبياء سُطّر؟

أم ذلك قد أُوِّل من التوراة وكتب الأنبياء وحمّل تأويلاً لا يخفى ضعفه وعجزه[٢].

قيامة المسيح عند النصارى هل تجعله إلهاً:

يروي إنجيل لوقا أن المسيح ﷺ بعد أن قام من الموت بزعمهم قابل رجلين ووجدهما يقولان عنه: إنه نبي فلم يصحح معتقدهما فيه بل أقرهما على ذلك.

فقد جاء في الإنجيل المذكور، في الإصحاح الرابع والعشرين، العدد ١٩: «فقال لهما: وما هي[٣]؟ فقالا: المختصة بيسوع الناصري الذي كان إنساناً نبياً مقتدراً في الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب»[٤]. وذهب

(١) أبو عبيدة الخزرجي، بين الإسلام والمسيحية، تحقيق د. محمد شامة، ص١٧٤.

(٢) أبو عبيدة الخزرجي، المرجع السابق، ص١٧٤ ـ ١٧٥ (بتصرف).

(٣) أي: الحوادث التي حدثت في بيت المقدس ومنها قيامة المسيح حسب معتقد النصارى. لمزيد من التفصيل انظر إنجيل لوقا، الإصحاح ٢٤، العدد ١٣ ـ ١٩.

(٤) جاء في إنجيل متى في الإصحاح ٢١، العدد ١٠ ـ ١١، قوله: «ولما دخل أورشليم ارتجّت المدينة كلها قائلة: من هذا؟ فقالت الجموع: هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل». فهذا يدل على أن الجموع التي عاصرته وشاهدته كانت تؤمن بأنه نبي من أنبياء الله.

وهذا بنص الإنجيل فكيف يقال بعد ذلك إنه الله؟

كما جاء في إنجيل لوقا، الإصحاح ٤، العدد ٢٣ و٢٤، عن عيسى المسيح ﷺ «فقال لهم: على كل حال تقولون لي هذا المثل: أيها الطبيب اشفِ نفسك. كما سمعنا أنه جرى في كفرناحوم فافعل ذلك هنا أيضاً في وطنك، وقال: الحق أقول لكم إنه ليس نبي مقبولاً في وطنه».

وفي إنجيل يوحنا، الإصحاح ٤، العدد ٤٤، ذكر قوله: «لأن يسوع نفسه شهد أن ليس لنبي كرامة في وطنه».

وفي الإنجيل نفسه أيضاً، الإصحاح ٨، العدد ٢٦، قال المسيح ﷺ حسب رواية الإنجيل: «إن لي أشياء أتكلم وأحكم بها من نحوكم. لكن الذي أرسلني هو حق. وأنا ما سمعته منه فهذا أقوله للعالم» فهذا إقرار منه ﷺ أمام اليهود بأنه رجل يؤدي ما سمع فقط مع إشهادهم على ما يقول. =

الرجلان للتلاميذ الأحد عشر وأثناء الكلام معهم جاء المسيح ثم صعد إلى السماء.

من ذلك يبدو أنه حتى اللحظات الأخيرة للمسيح كان رأي كل من عاصره أنه نبي ولم ترد أي معلومات أنه أخبر أحداً بعد قيامته حسب معتقدهم بأنه إله. فلو سلّمنا جدلاً أن كلامه مع هذين الرجلين يحمل معنى أنه الله فهل يقدر هؤلاء أن يغيروا رأي كل من عاصره ولم يقل لهم المسيح إنه الله بل تركهم يعتقدونه غير ذلك. ولو صحّ ذلك لكان المسيح مضلاً للناس إذ ترك بعضهم يقول أمامه إنه نبي ولا ينكر ذلك ثم يخبر قلة قليلة أنه الله فهذا التناقض بين الأمرين ـ الألوهية والنبوة ـ يولد الاضطراب والصراع بين الناس، ولكن تعالى الله عن ذلك، والمسيح صادق في كونه نبياً.

المسيح بشر مرسَل من عند الله في أعمال الرسل:

ورد في أعمال الرسل في الإصحاح الخامس، العدد ٣٠ ـ ٣١، أن بطرس قال للكاهن: «إله آبائنا أقام يسوع الذي أنتم قتلتموه معلقين إياه على خشبة، هذا رفعه الله بيمينه رئيساً ومخلصاً ليعطي إسرائيل التوبة وغفران الخطايا».

(هل هناك أكثر من هذا ليدل على سيطرة الله على المسيح ﷺ لا أن يكونا واحداً ومتساويين أو نفس الشيء؟ فالله «وليس الآب كالأقنوم» رفعه وأقامه ولم يقم الله نفسه بل الله أقام المسيح ورفعه، واضح أن الله يُقصد به شيء والمسيح يُقصد به شيء آخر نبياً مسيطراً عليه يحييه الله ويميته)[١].

ومن قال إن عيسى ﷺ إله! يقال له: «أربّ يُقبَر وإله يُلحَد، أفٍّ لتراب يغشى وجه هذا الإله، وتباً لكفن ستر محاسنه، وعجباً للسماء كيف لم تَبِد ـ وهو سامكها ـ وللأرض لمَ تَمِد ـ وهو ماسكها ـ وللبحار كيف لم تغض ـ وهو مجريها ـ وللجبال كيف لم تسر ـ وهو مرسيها ـ وللحيوان كيف لم يصعق ـ وهو مشبعه ـ وللكون كيف لم يمحق ـ وهو مبدعه ـ.

= وفي إنجيل متّى الإصحاح ١٢، العدد ١٨، يقول أشعياء النبي في المسيح ﷺ: إن الله تعالى قال فيه: «هوذا فتاي الذي اخترته حبيبي الذي سُرّت به نفسي. أضع روحي عليه فيخبر الأمم بالحق». فصحّ أنه نبي من الأنبياء وعبد الله. وإن كان من روح الله فما مثله عند الله إلا كمثل آدم، «كلكم لآدم وآدم من تراب» كما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام.

(١) د. ممدوح جاد، المسيح في الإنجيل بشر، ص٩٠.

سبحان الله كيف استقام الوجود والرب في اللحود، وكيف ثبت العالم على نظام والإله في الرغام، ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾(١) على المصيبة بهذا الرب والرزية بهذا الإله، لقد ثكلته أمّه، وعدمه لا أبا لك قومه؟! وقوله: إلهي إلهي لمَ خذلتني فإنه ينافي الرضا بمرّ القضاء، ويناقض التسليم لأحكام الحكيم، وذلك لا يليق بالصالحين فضلاً عن المرسلين على أنه يبطل دعوى الربوبية التي تزعمونها والألوهية التي تعتقدونها»(٢).

المسيح يأكل ويشرب في السماء بعد القيامة في الإنجيل:

جاء في إنجيل لوقا الإصحاح الثاني والعشرون، العدد ١٦، قوله: «لأني أقول لكم إني لا آكل منه بعد حتى يكمل في ملكوت الله» وفي إنجيل لوقا، الإصحاح الثاني والعشرون، العدد ٢٩ ـ ٣٠: «وأنا أجعل لكم كما جعل لي أبي ملكوتاً. لتأكلوا وتشربوا على مائدة في ملكوتي وتجلسوا على كراسي تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر» فيبدو من تلك الكلمات أن المسيح عليه السلام سيأكل ويشرب ويُجلس ضيوفه على مائدته يوم القيامة يأكلون معه ويحاكمون أسباط بني إسرائيل وهذا إقرار من المسيح على بشريته لأن الله تبارك وتعالى لا يأكل ولا يشرب.

وجاء في إنجيل مرقس الإصحاح الرابع عشر، العدد ٢٥ قوله: «الحق أقول لكم إني لا أشرب بعد من نتاج الكرمة إلى ذلك اليوم حينما أشربه جديداً في ملكوت الله»، لو كان المسيح إلهاً أكان يشرب من نتاج الكرمة في السماء؟! وهل الله يأكل ويشرب ولو كان هو الله لقال في ملكوتي بدلاً من ملكوت الله(٣).

المسيح عبد الله في الإنجيل والقرآن:

ورد عن عبودية المسيح عليه السلام لله تعالى في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧] أي: ما قلت لقومي إلا ما أمرتني به أن اعبدوا إلهاً واحداً هو ربي وربكم، ويقابله في إنجيل يوحنا في

---

(١) قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة: ١٥٦].

(٢) الألوسي، روح المعاني، ج٣، ص١٨١.

(٣) يعتقد النصارى أن الحساب في الآخرة والنعيم يكون بالروح فقط دون الجسد، فإن كان كذلك فلماذا الأكل والشرب، وهل الروح تأكل وتشرب أم أن الجسد وعاء الروح هو الذي يشتهي ويأكل ويشرب... إلخ.

الإصحاح العشرين، العدد ١٧، قول المسيح ﷺ ـ كما يقول النصارى ـ عندما خاطب مريم المجدلية قائلاً: «لا تلمسيني لأني لم أصعد بعد إلى أبي ولكن اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم». فهو يذكر ههنا قوله أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم، فهذا يدل على أنه كسائر البشر. وقول أبي تعني عند أهل عصره وبلغتهم إلهي وفي هذا تأكيد على وحدانية الله وأنه كسائر البشر بقوله أبي وأبيكم. ولم يقل أبي فقط فإن كان هو من روح الله فكذلك سائر الناس. قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ [آل عمران: ٥٩]. وفي حديث شريف مروي عن رسول الله محمد ﷺ قوله: «كلكم لآدم وآدم من تراب».

أما بالنسبة للمعجزات التي أتى بها فقد كان جواب القرآن واضحاً وضوح الشمس في الظهيرة في سماء صافية لا شية فيها. وذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾ [الزخرف: ٥٩].

المسيح وتجربته مع إبليس:

ورد في إنجيل متّى، الإصحاح الرابع، العدد ١ ـ ١١، عن المسيح ﷺ وإبليس ما نصه: «ثم أصعد يسوع إلى البرية من الروح ليجرب من إبليس. فبعدما صام أربعين نهاراً وأربعين ليلة جاع أخيراً. فتقدم إليه المجرب وقال له: إن كنت ابن الله فقل أن تصير هذه الحجارة خبزاً. فأجاب وقال: مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل كلمة تخرج من فم الله. ثم أخذه إبليس إلى المدينة المقدسة وأوقفه على جناح الهيكل. وقال له: إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل. لأنه مكتوب أنه يوصي ملائكته بك. فعلى أياديهم يحملونك لكي لا تصدم بحجر رجلك. قال له يسوع: مكتوب أيضاً لا تجرّب الرب إلهك. ثم أخذه أيضاً إبليس إلى جبل عالٍ جداً وأراه جميع ممالك العالم ومجدها. وقال له: أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي. حينئذ قال له يسوع: اذهب يا شيطان. لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد. ثم تركه إبليس وإذا ملائكة قد جاءت فصارت تخدمه».

كما جاء في إنجيل لوقا، الإصحاح الرابع، عن تجربة المسيح ﷺ مع إبليس في العدد ١ ـ ١٣، ما نصه: «أما يسوع فرجع من الأردن ممتلئاً من الروح القدس وكان يقتات بالروح في البرية، أربعين يوماً يجرّب من إبليس. ولم يأكل شيئاً في تلك الأيام ولما تمت جاع أخيراً. وقال له إبليس: إن كنت ابن الله فقل لهذا الحجر أن

يصير خبزاً. فأجابه يسوع قائلاً: مكتوب أن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة من الله. ثم أصعده إبليس إلى جبل عال وأراه جميع ممالك المسكونة في لحظة من الزمان. وقال له إبليس: لك أعطي هذا السلطان كله ومجدهن لأنه إليّ قد دفع وأنا أعطيه لمن أريد. فإن سجدت أمامي يكون لك الجميع. فأجابه يسوع وقال: اذهب يا شيطان إنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد. ثم جاء به إلى أورشليم وأقامه على جناح الهيكل وقال له: إن كنت ابن الله فاطرح نفسك من هنا إلى أسفل. لأنه مكتوب أنه يوصي ملائكته بك لكي يحفظوك. وأنهم على أياديهم يحملونك لكي لا تصدم بحجر رجلك. فأجاب يسوع وقال له: إنه قيل لا تجرب الرب إلهك. ولما أكمل إبليس كل تجربة فارقه إلى حين».

من هذين النصين يظهر أن المسيح عليه السلام أضفى على نفسه صفة العبودية لله ربه وخالقه، مع الإقرار بوحدانيته تبارك وتعالى بقوله لإبليس: «لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد». ولم يقل للرب ولابنه تسجد وإياهما تعبد.

هذا، وقد علّق ابن حزم على ذلك بالتساؤل كيف أن «إبليس قاد المسيح مرة إلى جبل منيف وانقاد له ومضى معه وقاده مرة أخرى إلى أعلى صخرة في بيت المقدس، فما نراه إلا ينقاد لإبليس حيث قاده، ولا يغلو من أن يكون قاده فانقاد له مطيعاً سامعاً فما نراه إلا منصرفاً تحت حكم الشيطان، وهذه والله منزلة رذيلة جداً أو يكون قاده كرهاً، فهذه منزلة المصروعين الذين يتخبطهم الشيطان من المس، حاشى الأنبياء من كلتا الصفتين فكيف إله وابن إله بزعمهم»[1]؟!

المسيح مرسَل من عند الله في الأناجيل:

ورد في إنجيل يوحنا، الإصحاح السابع، العدد ١٦ ـ ١٨ ما يلي: «أجابهم يسوع وقال: تعليمي ليس لي بل الذي أرسلني. إن شاء أحد أن يعمل مشيئته يعرف التعليم هل هو من الله أم أتكلم أنا من نفسي. من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه. وأما من يطلب مجد الذي أرسله فهو صادق وليس فيه ظلم».

هنا أمران واضحان كل الوضوح:

(١ ـ «تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني»، هنا يثبت أنه مرسل من الله وليس من نفسه، وهذا قوله ولا يحتاج لصعوبة في فهم أن هناك آخر أرسله وأن المسيح ليس الله نفسه ولكن الله هو الذي أرسله. . فهو ـ أي المسيح عليه السلام ـ غير الله.

(١) الكلام لابن حزم، المرجع نفسه، ج٢، ص٢١.

٢ ـ «هل هو من الله أم أتكلم من نفسي». هل الله ينزل للأرض ويقول إنه لا يتكلم من نفسه بل الله أرسله، إنه هنا يضل الناس ولا يقول لهم إنه الله، والمسيح الذي لم يقل مطلقاً إنه الله ولكن كما هو واضح أنه مرسل وليس من نفسه بل من الله وهل يعقل أن ينكر الله نفسه ويقول إنه لا يتكلم من نفسه بل من الذي أرسله.. سبحان الله أن يتهم بهذا الوصف. بل الله صادق والمسيح صادق في أنه رسول ونبي)[١].

٣ ـ وقد جاء في الإصحاح السابع أيضاً من الإنجيل نفسه، العدد ٢٨ ـ ٢٩، قوله: «فنادى يسوع وهو يعلم في الهيكل قائلاً: تعرفونني وتعرفون من أين أنا ومن نفسي لم آت بل الذي أرسلني هو حق الذي أنتم لستم تعرفونه. أنا أعرفه لأني منه وهو أرسلني». هنا يصرّ المسيح ﷺ ويقول: «الذي أرسلني هو حق» فهل لهذا الكلام تفسير آخر؟! «أنا أعرفه لأني منه وهو أرسلني»، وعندما يقول هذا الكلام رسول من الله فهل هذا يعني أنه جزء من الله أو أن معناه رسول من عند الله؟ سبحان الله عن التجزؤ لأنه خالق واجب لا مخلوق صائر[٢].

المسيح يطلب العون من الله في الإنجيل:

جاء في الإصحاح السابع عشر من إنجيل يوحنا، العدد ١ ـ ٣ قوله: «تكلم يسوع بهذا ورفع عينيه نحو السماء وقال: أيها الآب قد أتت الساعة مجّد ابنك ليمجّدك ابنك أيضاً إذ أعطيته سلطاناً على كل جسد ليعطي حياة أبدية لكل من أعطيته. وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته».

ويتضح من هذا النص ما يلي:

١ ـ المسيح ﷺ يطلب العون من الله «مجّد ابنك» لكي يمجّد الله وينصره «يمجّدك ابنك أيضاً» فإن كان هو الله هل سيطلب من نفسه؟

٢ ـ إن الله أعطاه السلطة والسلطان لكي يعطي الحياة الأبدية وهي معرفة الله لمن أراد الله له وليس المسيح ﷺ «ليعطي الحياة الأبدية لكل من أعطيته».

٣ ـ هنا إقرار من المسيح ﷺ لله تبارك وتعالى بأنه هو الإله الحقيقي وحده وأن المسيح ﷺ هو رسوله.

(١) د. ممدوح جاد، المسيح في الإنجيل بشر، ص٤٦.

(٢) د. ممدوح جاد، المرجع السابق، ص٤٦.

المسيح ليس كسائر الأنبياء في الإنجيل بل من أولي العزم:

ورد في إنجيل لوقا، الإصحاح السابع، العدد ٢٦ على لسان يوحنا المعمدان ـ يحيى عليه السلام ـ أنه قال: «بل ماذا خرجتم لتنظروا. أنبياً. نعم أقول لكم وأفضل من نبي». وكان يعني أنه ليس كسائر الأنبياء بل نبي مرسل من أولي العزم(١). فيحيى عليه السلام الذي بشّر بقريبه المسيح عليه السلام كان يصفه بأنه نبيّ بنص الإنجيل لأنه قال: نعم، وذكر أنه أفضل من نبيّ لأن الأنبياء كانوا كثر في وقت واحد(٢). والمسيح عليه السلام ليس كواحد منهم بل هو أفضل منهم.

وقد ورد في الإصحاح الثالث عشر من الإنجيل نفسه، العدد ٣٣ قول المسيح عليه السلام: «بل ينبغي أن أسير اليوم وغداً وما يليه لأنه لا يمكن أن يهلك نبيّ خارجاً عن أورشليم».

فالمسيح عليه السلام يقول عن نفسه إنه نبيّ وإنه يهلك، فهل يكون هو الله ويخادع الناس بقوله: إنه نبي؟ لا.. فالله ليس مخادعاً ولا المسيح عليه السلام. وما ينبغي له أن يتكلم إلا بالصدق(٣).

وحدانية الله في الإنجيل:

ذكر في إنجيل مرقس، الإصحاح الثاني عشر، العدد ٢٨ ـ ٣٠ قوله: «فجاء واحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون فلما رأى أنه أجابهم حسناً سأله أية وصية هي أول الكل. فأجابه يسوع أن أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل الربّ إلهنا ربّ واحد. وتحب الربّ إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك. هذه هي الأصية الأولى».

كذلك ذكر في الإنجيل نفسه وحدانية الله عندما سأل أحد التلاميذ المسيح عليه السلام: «فقال له الكاتب جيداً يا معلم بالحق قلت لأن الله واحد وليس آخر سواه»(٤).

---

(١) أولو العزم من الرسل خمسة، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلى الله وسلم عليهم أجمعين.

(٢) كان في ذلك الزمن ثلاثة أنبياء وهم: زكريا، ويحيى، والمسيح عليهم السلام، وقد كان ذلك طبيعياً في بني إسرائيل.

(٣) لمزيد من التفصيل انظر د. ممدوح جاد، المرجع نفسه، ص٢٥.

(٤) إنجيل مرقس، الإصحاح ١٢، العدد ٣٢.

وفي إنجيل لوقا ورد أيضاً: «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته»[١].

وورد أيضاً عند لوقا قوله: «فكونوا رحماء كما أن أباكم أيضاً رحيم»[٢]. وقد أورد صاحب «الميزان في مقارنة الأديان» أن كل مؤمن بالله يستطيع أن «يقف ويناجي أباه، أي: ربه، الذي دعاه المسيح أبانا بصيغة الجمع، ويتخلق بصفة الرحمة، لأن ربّ الجميع رحمٰن رحيم. أي: أنه أب لجميع المؤمنين وليس ذلك قاصراً على المسيح، ولذا جاء في بعض نصوص الإنجيل: من أطاع الله كان ابناً لله، ومن أطاع الشيطان كان ابناً للشيطان»[٣].

وفي رسالة يوحنا الأولى نجد أن يوحنا الحواري يعلن فيها بأن الله سبحانه وتعالى لم يره أحد قط، وهذا نص كلامه في الإصحاح الرابع، العدد ١٢، أن «الله لم ينظره أحد قط». فيبدو هنا أن كلمة المسيح عليه السلام لبطرس الرسول[٤] من رآني فقد رأى الآب أنها لا تدل على أن المسيح هو الآب وذلك لأن آلافاً من الناس رأوا المسيح من الذين عاصروه.

كما أن يوحنا الرسول يقول في رسالته: «الله لم ينظره أحد قط»، فإما أن تكون أقوال العهد الجديد متضاربة، وإما أن نفهمه الفهم الصحيح وهو أن المسيح بشر رآه الناس، وأن بطرس كان يطلب من المسيح عليه السلام أن يريهم الله الآب لريبة مرت به فأجابه المسيح عليه السلام: «كل هذا الوقت ولم تعرفني»، أي: لم تعرف أني مرسل من عند الله»[٥].

---

(١) إنجيل لوقا، الإصحاح ١٧، العدد ٣.

(٢) إنجيل لوقا، الإصحاح ٦، العدد ٣٦. هذا النص يقابله حديث شريف عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الراحمون يرحمهم الرحمٰن».

(٣) محمد عزت الطهطاوي، المرجع السابق، ص٢٢٨.

(٤) النصارى يدعون تلاميذ المسيح عليه السلام رسلاً.

(٥) د. ممدوح جاد، المرجع السابق، ص١٤١.

الفصل الثامن

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾

عيسى كآدم عند الله

قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٥٩ ـ ٦٤].

يقول جلّ وعلا: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ من حيث قدرة الله حين خلقه من غير أب كخلقه آدم من غير أب ولا أم، ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، فالذي خلق آدم من غير أب ولا أم قادر على أن يخلق عيسى عليه السلام بطريق أولى، وإن جاز ادعاء النبوة في عيسى لكونه مخلوقاً من غير أب، فجواز ذلك في آدم أولى، وفي هذه الآية الكريمة أراد الله تبارك وتعالى أن يُظهر قدرته لخلقه حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، كما خلق بقية الخلق من ذكر وأنثى(١). ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي: هذا هو القول الحق في عيسى عليه السلام الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه. وقوله تعالى: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ جملة مفسرة لما له من شبه عيسى بآدم، أي: خلق آدم من تراب ولم يكن ثمة أب ولا أم فكذلك حال عيسى(٢) عليه السلام وقد شُبّه به وإن كان خُلق من غير أب، وخلق آدم من غير أب وأم؟

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، م١، ص٣٢٣.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر سيد قطب، في ظلال القرآن، م١، ص٣٩٧ ـ ٣٩٨.

يقول الزمخشري: «هو مثيله في أحد الطرفين فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به، لأن المماثلة مشاركة في بعض الأوصاف ولأنه شُبِّه به في أنه وُجِد وجوداً خارجاً عن العادة المستمرة وهما في ذلك نظيران، ولأن الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود من غير أب، فشبه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبيهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه»[١].

هذا ويذكر «كتاب حواشي ابن المحرومة على كتاب تنقيح الأبحاث للملل الثلاث لابن كمونة» قوله: ويقال لهم: «إن اتُّخِذ المسيح إلهاً لكونه، على رأيكم، من غير والد فآدم وحواء أعجب منه في ذلك، وكذا أصل كل دابة خلقها الله تعالى. وإن اتُّخِذ إلهاً من أجل رفعه إلى السماء فقد رُفع قبله إيليا النبي بعدما ظهرت على يده المعجزات الكثيرة ولم يصبه في بشريّته سوء. فلو جازت عبادة البشر لكان أحق بذلك من الذي حُبس وأُهين وعُذّب وصُلب. والملائكة أيضاً ما زالوا مرفوعين إلى أن يؤمروا بالنزول. وإن كان ذلك لأنه سمّي في الإنجيل ابن الله، فأنتم تقررون أن إسرائيل سمّاه الله ابني بِكْري، وقد سمّى السيد المسيح الحواريين إخوته. وفي الإنجيل ـ أحبوا من أحبكم ـ إلى قوله: تكونون مثل أبي وأبيكم الذي في السماء»[٢].

أما صاحب كتاب «الحق الذي يقود إلى الحياة الأبدية»، فقال ص٥١: «ولذلك أرسل الله ابنه على الأرض. وولد يسوع إنساناً، لأن ما كان لازماً هو حياة بشرية، لكنه ولد دون أب بشري، ليكون كاملاً[٣] كما كان آدم. وكان الله وحده أباً للإنسان، يسوع، كما كان أيضاً أباً لآدم. (لوقا ٣:٣٨)»[٤].

وفي إنجيل لوقا، الإصحاح الثالث، العدد ٣٨، يظهر في نسب المسيح عليه السلام كما يعتقد النصارى بالتسلسل إلى آدم قوله: «... بن أنوش بن شيث بن آدم بن الله.

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٤٣٣. وانظر ابن الخطيب، هذا هو الحق رد على مفتريات كاهن كنيسة، ص٦٧ وص٨٩، المطبعة المصرية، مصر، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

(٢) حواشي ابن المحرومة على كتاب تنقيح الأبحاث للملل الثلاث لابن كمونة، ص٢٠٥.

(٣) إن برنامج الاستنساخ الذي حصل مؤخراً ونتج عنه استنساخ حيوانات طبق الأصل عن الأم وتمّت ولادتهم دون أب وكانوا ذا خلقة كاملة.

(٤) مؤلف مجهول، الحق الذي يقود إلى الحياة الأبدية، ط١، ص٥١.

فإن كان العدد متغايراً بين الفقرة الأولى والثانية إلا أنها تفيد معنى واحداً وهو قوله: «ابن آدم بن الله». فهنا نسبة بنوة المسيح عليه السلام لله كبنوّة آدم لله. وهي تعني عبداً من عباد الله. وفي هذا المعنى تصدقها الآية القرآنية: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾.

وقد ذكر أبو عبيدة الخزرجي في حوار مع أحد النصارى حول هذه الآية قوله: «أنتم تقولون وتوافقون: إن الله تعالى نفخ فيه من روحه بعد أن سوّاه من تراب.

وتقولون: إن المسيح عليه السلام نفخة من روح الله في رجل سوّاه الله تعالى من لحمة مريم، المتخذة من آدم، فلحمه إذن بمنزلة ترابه، ونفخه من روح الله بمنزلة نفخة من روح الله، فلماذا أوجبت الألوهية لعيسى ولم توجبها لآدم، وأنت تقر له بروح من الله في حجاب من تراب»[(١)].

وفي رد من ابن حزم على من قال من النصارى بأن عيسى عليه السلام ابن الله قال: «قل لهم والحواريون أيضاً أتوا بالعجائب وموسى قبله وإلياس وسائر الأنبياء قد أتوا بمثل ما أتى به من إحياء الموتى وغيره فأيّ فرق بينه وبينهم على أنه ليس في شيء من الإنجيل نص الأمانة التي لا يصح الإيمان عندهم إلا بها[(٢)] من ذكر أب وابن وروح قدس معاً وسائر ما فيها وإنما هي تفكير لأسلافهم من الأساقفة»[(٣)].

---

(١) أبو عبيدة الخزرجي (ت٥٥٢)، بين الإسلام والمسيحية، حققه وقدّم له وعلّق عليه د. محمد شامة، ص١٢٩، مكتبة وهبة، مصر، لا.ت.

(٢) نص الأمانة: «وهي تؤمن بالله تعالى الواحد الأب صانع كل شيء: مالك كل شيء صانع ما يرى وما لا يرى، وبالرب الواحد المسيح ابن الله تعالى الواحد بكر الخلائق كلها الذي ولد من أبيه قبل العوالم كلها وليس بمصنوع، إله حق. من إله حق. من جوهر أبيه الذي بيده أتقنت العوالم؛ وخلق كل شيء الذي من أجلنا معاشر الناس، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسّد من روح القدس ومريم وصار إنساناً وحبل به وولد من مريم البتول واتجع، وصلب أيام بيلاطس ودفن وقام في اليوم الثالث ـ كما هو مكتوب ـ وصعد إلى السماء وجلس على يمين أبيه. وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء، ونؤمن بروح القدس الواحد روح الحق الذي يخرج من أبيه وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا، والجماعة واحدة قدسية كاثوليكية والحياة الدائمة إلى أبد الآبدين». انظر الألوسي، روح المعاني، ج٦، ص٢٧.

(٣) ابن حزم، المرجع السابق، ج١، ص٥٦.

أما سبب ورود هذه الأعداد فهو أن نصارى نجران كانوا يجعلون من مولد المسيح عليه السلام المعجز دليلاً على ألوهيته وبنوته لله تعالى. لذا أجابهم القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ [آل عمران: ٥٩].

فقارن القرآن الكريم، في الرد عليهم، الغريب بالأغرب: المسيح عليه السلام وُلد بدون أب، وآدم عليه السلام خُلِق بقدرة الله تعالى دون أب وأم! فكما أن مولد آدم عليه السلام لا يجعله إلهاً، كذلك مولد المسيح عليه السلام لا يجعله إلهاً وابناً لله.

تفسير ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ...﴾:

قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ(١) مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ(٢) فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

فقد ذكر الألوسي في هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: «إن وفد نجران من النصارى قدموا على رسول الله ﷺ وهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، منهم السيد ـ وهو كبير ـ والعاقب ـ وهو الذي يكون بعده وصاحب رأيهم ـ فقال رسول الله ﷺ: أسلما، قالا: أسلمنا، قال: ما أسلمتما؟ قالا: بلى قد أسلمنا قبلك. قال: كذبتما يمنعكما من الإسلام ثلاث فيكما: عبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير، وزعمكما أن لله ولداً، ونزل ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾ الآية فلما قرأها عليهم قالوا: ما نعرف ما تقول، ونزل ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ﴾ الآية فقال لهم رسول الله ﷺ: إن الله تعالى قد أمرني إن لم تقبلوا هذا أن أباهلكم فقالوا: يا أبا القاسم بل نرجع فننظر في أمرنا ثم نأتيك فخلا بعضهم ببعض وتصادقوا فيما بينهم. قال السيد للعاقب: والله قد علمتم أن الرجل نبيٌّ مرسَل ولئن لاعنتموه لاستأصلكم، وما لاعن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم فإن أنتم لن تتبعوه وأبيتم إلا إلف دينكم فوادعوه وارجعوا إلى بلادكم. وقد كان رسول الله ﷺ

---

(١) في أمر عيسى عليه السلام.

(٢) نبتهل: أي نباهل، فالافتعال هنا بمعنى المفاعلة، وافتعل وتفاعل أخوان في كثير من المواضع. وهي بمعنى اللعنة. الألوسي، روح المعاني، ج٣، ص١٨٨.

خرج ومعه عليّ، والحسن، والحسين، وفاطمة، فقال رسول الله ﷺ: إن أنا دعوت فأمّنوا أنتم فأبوا أن يلاعنوه وصالحوه على الجزية»[١].

وروي أنهم صالحوه على أن يعطوه في كل عام ألفي حلّة وثلاثة وثلاثين درعاً وثلاثة وثلاثين بعيراً وأربعاً وثلاثين فرساً[٢].

رسالة رسول الله محمد ﷺ إلى أهل نجران:

«أخرج البيهقي في الدلائل من طريق سلمة بن عبد يسوع عن أبيه عن جده: «أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل نجران... (بسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب) من محمد رسول الله إلى أسقف نجران وأهل نجران إن أسلمتم فإني أحمد الله إليكم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب أما بعد فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد فإن أبيتم فالجزية فإن أبيتم فقد أذنتم بحرب والسلام، فلما قرأ الأسقف الكتاب فظع به وذعر ذعراً شديداً فبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له شرحبيل بن وداعة فدفع إليه كتاب رسول الله ﷺ فقرأه فقال له الأسقف: ما رأيك؟ فقال شرحبيل: قد علمت ما وعد الله تعالى إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة فما يؤمن أن يكون هذا الرجل نبياً وليس لي في النبوة رأي لو كان أمر من أمر الدنيا أشرت عليك فيه وجهدت لك. فبعث الأسقف إلى واحد بعد واحد من أهل نجران فكلهم قال مثل قول شرحبيل، فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا شرحبيل، وعبد الله بن شرحبيل، وحيار بن قنص فيأتونهم بخبر رسول الله ﷺ. فانطلق الوفد حتى أتوا رسول الله ﷺ فسألهم وسألوه فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا: ما تقول في عيسى ابن مريم؟ فقال رسول الله ﷺ: ما عندي فيه شيء يومي هذا فأقيموا حتى أخبركم بما يقال لي في عيسى صبح الغداة، فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فأبوا أن يقروا بذلك، فلما أصبح رسول الله ﷺ الغد بعدما أخبرهم الخبر أقبل مشتملاً على الحسن والحسين في خميلة له وفاطمة تمشي عند ظهره للملاعنة وله يومئذ عدة نسوة. فقال شرحبيل لصاحبيه: إني أرى أمراً ثقيلاً إن كان هذا الرجل نبياً مرسلاً فلاعنّاه لا يبقى على ظهر

(١) الألوسي، المرجع السابق، ج٣، ص١٨٨.

(٢) لمزيد من التفصيل عن تفسير هذه الآية انظر الألوسي، روح المعاني، ج٣، ص١٨٧ وما بعدها. وانظر الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٤٣٤.

الأرض منّا شعر ولا ظفر إلا هلك. فقالا له: ما رأيك؟ فقال: رأيي أن أحكّمه فإني أرى رجلاً لا يحكم شططاً أبداً. فقالا له: أنت وذاك، فلقي شرحبيل رسول الله ﷺ فقال: إني رأيت خيراً من ملاعنتك. قال: وما هو؟ قال: حكمك اليوم إلى الليل وليلك إلى الصباح فما حكمت فينا فهو جائز. فرجع رسول الله ﷺ ولم يلاعنهم وصالحهم على الجزية»[١].

الرد على من قال بأن عيسى ليس كآدم:

علّق عبد الكريم الخطيب على من قال بألوهية عيسى عليه السلام وأنه ليس كآدم بقوله: (وقد أنكر الذين قالوا بألوهية المسيح عليه السلام أن يقول القرآن عقب هذه الآيات: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾.

أنكروا على القرآن هذا القول.. وقالوا: كيف يرفعه إلى مقام الألوهية في الآيات السابقة، ثم يعود في هذه الآية فيجعل خلقه شبيهاً بخلق آدم؟ إن هذا النص (يعني هذه الآية) قد ألحقت في زمن متأخر، لتدفع هذا الشعور الذي تعطيه الآيات السابقة عن المسيح عليه السلام، وعن المدخل الذي يدخل به إلى الألوهية!

وهذا خلط عجيب. ومغالطة صريحة لا شفيع لها، ولا عذر لمن يساق إليها..

فهذه الآية والآيات التي سبقتها نسق واحد، يمسك بعضه بحجز بعض.. لا ينخرم منه حرف، ولا تنحرف منه كلمة إلى يوم القيامة!.

فالخلق الذي خُلق عليه عيسى عليه السلام والآيات التي جاءت تحدّث به.. لا يخرجه شيء من ذلك عن أن يكون بعض ما خلق الله.. وإذا ضلّ ضال أو غوى غاو فأراه عقله أن هذا الإنسان العجيب في خلقه، والمعجب بآياته ومعجزاته التي بين يديه - هو شيء يتطاول إلى حمى الألوهية، ويشارك فيها.. فلينظر في خلق آدم الذي خُلق من لا شيء.. من غير أب ولا أم.. من تراب هامد، فكان بشراً سوياً! ثم لينظر إلى المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام الذي خُلق من أم، من غير أن يتصل بها رجل.. عندئذ يرى[٢] أن خلق آدم أُدخل في باب أعجب من خلق عيسى عليه السلام.. وأنه إذا كان لعيسى عليه السلام مدخل واحد يدخل به إلى الألوهية، فلآدم أكثر من مدخل إليها! ولم يقل أحد عن آدم إنه إله أو ابن إله!!

(١) الألوسي، المرجع السابق، ج٣، ص١٨٦.

(٢) عبد الكريم الخطيب، المرجع السابق، ص١٨٧.

وموقف القرآن من المسيح عليه السلام واحد لم يتغير في حال منه عن حال، فهو عبد الله ورسوله، ليس له مع الله شركة في نسب، ولا مشاركة في خلق شيء مما خلق! ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزخرف: ٥٩].

والقرآن ليس هو الكتاب الذي يقال عنه: (إن فيه نصاً إلحاقياً، أو إضافياً، دخل عليه لخدمة غاية ذاتية، أو تحقيق أمر وراء الدعوة التي جاء بها.. إذ هو كلمات الله، تلقاها رسول الله ﷺ وألقاها إلى صدور صحابته وأودعها صحفاً مطهّرة.. وإن الله سبحانه قد وعد وعداً لا يخلفه، بأنه نزّل القرآن وتولّى حفظه، وقد جعل هذا الوعد قرآناً كريماً يتلوه التالون، ويرتله المرتلون، ويتعبد به المتعبدون، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩])[1].

إن مقطع القول في القرآن، هو أن تقوم بيّنة على أن كلمة واحدة من كلماته قد حُرِّفت أو بُدِّلت، أو أن آية من آياته قد ذهبت، أو أن آية منه دخيلة عليه، وليست من كلام الله رب العالمين.. كلمة واحدة، أو آية واحدة، هي مناط الفصل في القرآن كله! فمن تسعفه الأيام بهذه أو تلك، فقد أمسك بيده الحكم الذي يقضي على القرآن كله، ويسقط كل حجة له بأنه كلام الله، وأنه من عند الله!

لقد تحدّى القرآن العرب بأن يأتوا بسورة من مثله.. وقد ظلّ هذا التحدي قائماً، وسيظل قائماً إلى يوم الدين، دون أن يقوم لهذا التحدي أحد من عباد الله!

والقرآن يتحدّى الناس جميعاً.. وما معهم من علم ومعرفة أن يقيموا شاهداً يشهد بأن آية من آيات الله قد بُدِّلت أو حُرِّفت!

وسيظل هذا التحدّي قائماً لا تنقضه الأيام، ولا يقوم له الناس، ولو اجتمعوا لـــــه.. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: ١١٥])[2].

تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾:

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

---

(١) عبد الكريم الخطيب، المسيح في القرآن والتوراة والإنجيل، ص١٨٧.

(٢) عبد الكريم الخطيب، المرجع نفسه، ص١٨٨.

فهذا خطاب من رب العالمين إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: كلمة عدل وإنصاف بيننا وبينكم ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[١] لا وثناً ولا صليباً ولا

---

(١) وردت هذه الآية الكريمة في رسالة رسول الله ﷺ إلى عظيم الروم الذي يدعوه فيها بدعوة الإسلام. ونص الرسالة:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام. أسلِم تسلَم. يؤتك الله أجرك مرتين (يؤتك الله أجرك مرتين: مرة لإيمانك بمحمد ﷺ، ومرة لإيمان قومك بما آمنت به، والمراد تعظيم الأجر خصوصاً أن إيمان الزعيم يكون سبباً في إيمان الرعية. والناس على دين ملوكها كما هو معروف في التاريخ) فإن تولّيت، فإن عليك إثم الأريسيين (الأريسيين مفردها أريسي نسبة إلى الأريس أي: الفلاح، والأريسيون هم الفلاحون زرّاع الأرض أي الرعية) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ لمزيد من التفصيل انظر د. إبراهيم إبراهيم هلال، حديث هرقل وكتاب رسول الله إليه، ص١٦، دار الصحوة، ط١، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

هذا، وقد وردت عبارة أرباباً من دون الله في موضع آخر من القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة: ٣١، ٣٢].

وقد ذكر ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من أئمة التفسير في هذه الآية ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرّموا ـ أي: اتبعوا أئمتهم من الرهبان. وقال السدّي: استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ الذي إذا حرّم الشيء فهو الحرام وما حلّله فهو الحلال ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تعالى الله عن الشركاء والأعوان والأضداد والأولاد، لا إله إلا هو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ انظر محمد أحمد كنعان، فتح القدير تهذيب تفسير ابن كثير، ج٣، ص٩٧.

هذا، وقد روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق، عن عديّ بن حاتم رضي الله عنه «أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرّ إلى الشام وكان تنصّر في الجاهلية فأسِرَتْ أخته وجماعة من قومه. ثم منّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها فرجعت إلى أخيها فرغّبته في الإسلام، وفي القدوم على رسول الله ﷺ فقدم عديّ إلى المدينة وكان رئيساً في قومه طيىء وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم فتحدث الناس بقدومه فدخل على رسول الله ﷺ ـ وفي عنق عديّ صليب من فضة ـ وهو يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم. فقال: «بلى إنهم حرّموا عليهم الحلال وأحلّوا لهم الحرام=

طاغوتاً ولا ناراً ولا شيئاً، بل تفرد العبادة له وحده، وهذه دعوة جميع الرسل. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾؛ قال ابن جريج: يعني يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله[1]. وقال عكرمة: يسجد بعضنا لبعض. ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ أي: فإن تولوا عن هذا النصف وهذه الدعوة؛ فاشهدوا أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم[2].

= فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم». وقال رسول الله ﷺ: «يا عديّ ما تقول؟ أيضرك أن يقال: الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ ما يضرك؟ أيضرك أن يقال: لا إله إلا الله، فهل تعلم إلهاً غير الله؟». ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق. قال: «فلقد رأيت وجهه استبشر». انظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، م٢، ص٣١٨.

(١) وفي تعليق لسيد قطب في تفسيره «في ظلال القرآن»، م١، ص٤٠٧ (إن الناس في جميع النظم الأرضية يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله.. يقع هذا في أرقى الديمقراطيات كما يقع في أحط الديكتاتوريات سواء.. إن أول خصائص الربوبية هو حق تعبد للناس. حق إقامة النظم والمناهج والشرائع والقوانين والقيم والموازين. وهذا الحق في جميع الأنظمة الأرضية يدّعيه بعض الناس ـ في صورة من الصور ـ ويرجع الأمر فيه إلى مجموعة من الناس وعلى أي وضع من الأوضاع، وهذه المجموعة التي تخضع الآخرين لتشريعها وقيمها وموازينها وتصوراتها هي الأرباب الأرضية التي يتخذها بعض الناس أرباباً من دون الله؛ ويسمحون لها بادعاء خصائص الألوهية والربوبية، وهم بذلك يعبدونها من دون الله، وإن لم يسجدوا لها ويركعوا. فالعبودية عبادة لا يتوجه بها إلا لله. وفي النظام الإسلامي وحده يتحرر الإنسان من هذه الربقة.. ويصبح حراً. حراً يتلقى التصورات والنظم والمناهج والشرائع والقوانين والقيم والموازين من الله وحده، شأنه في هذا شأن كل إنسان آخر مثله. فهو وكلّ إنسان آخر على سواء. كلهم يقفون في مستوى واحد، ويتطلعون إلى سيّد واحد، ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله. والإسلام بهذا المعنى هو الدين عند الله. وهو الذي جاء به كل رسول من عند الله.. لقد أرسل الله الرسل بهذا الدين ليُخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله. ومن جور العباد إلى عدل الله.. فمن تولى عنه فليس مسلماً بشهادة الله. مهما أوّل المؤولون، وضلّل المضللون.. «إن الدين عند الله الإسلام»).

هذا، ويبدو أن وجود أرباب من دون الله ووساطة القديسين للقربة من الله، وجعلهم واسطة بين الله والناس، إلا تعبيراً عن شيئين كانا في زمن نزول الإنجيل وما بعده:

الأول: عمل الكهنة في المعابد ومنها المعابد المصرية التي كانت تحافظ على عملها وهو الوساطة بين الآلهة والناس.

الثاني: المحافظة على الطبقية وكان الأشراف هم الواسطة بين عامة الناس والملك وهو الشخصية المقدسة.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، م١، ص٣٢٦. وانظر الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٤٣٥.

المسيح كلمة الله ونهي النصارى أن يقولوا ثلاثة:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ[1] ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ﴾ [النساء ١٧١، ١٧٢].

إن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام هو عبد الله ورسوله بنص القرآن الكريم وكلمته. «فالمعجزة لديه أنه من روح الله كالنطفة المنفصلة من الأب الحي ولكن من غير أب فهو من عند الله سبحانه وتعالى وقدرته التي تقول للشيء كن فيكون بإذن الله. ومعنى ﴿أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ﴾ أي: أوصلها إليها والنصارى يقولون: إن المسيح عليه السلام هو جوهر أحد ثلاثة أقانيم: أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم روح القدس. وإنهم يريدون بأقنوم الأب الذات، وبأقنوم الابن العلم، وبأقنوم روح القدس الحياة. فتقديره الله ثلاثة وإلا فتقديره الآلهة ثلاثة، والذي يدل عليه القرآن التصريح منهم بأن الله والمسيح عليه السلام ومريم ثلاثة آلهة، وأن المسيح عليه السلام ولد الله من مريم: ألا ترى[2] إلى قوله: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ وقالت النصارى: المسيح ابن الله، والمشهور المستفيض عنهم أنهم يقولون: إن للمسيح لاهوتية وناسوتية من جهة الأب والأم، ويدل عليه قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ فأثبت أنه ولد لمريم اتصل بها اتصال الأولاد بأمهاتهم، وأن اتصاله بالله تعالى من حيث إنه رسوله وإنه موجود بأمره وابتداعه جسداً حياً من غير أب، فنفى أن يتصل به اتصال الأبناء بالآباء، وقوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ وحكاية الله أوثق من حكاية غيره. ومعنى ﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ سبّحه تسبيحاً من أن يكون له ولد»[3].

---

(١) جاء في قاموس الكتاب المقدس حول التثليث والثالوث ص٣٣٢ ـ ٣٣٣، ما يلي: «والكلمة نفسها (التثليث والثالوث) لم ترد في الكتاب المقدس، ويظن أن أول من صاغها واخترعها واستعملها هو ترتليان في القرن الثاني للميلاد. ثم ظهر سبيليوس ببدعته في منتصف القرن الثالث وحاول أن يفسر العقيدة بالقول (إن التثليث ليس أمراً حقيقياً في الله لكنه مجرد إعلان خارجي، فهو حادث مؤقت وليس أبدياً). ثم ظهرت بدعة آريوس الذي نادى بأن الآب وحده هو الأزلي بينما الابن والروح القدس مخلوقان متميزان عن سائر الخليقة، وأخيراً ظهر أثناسيوس داحضاً هذه النظريات وواضعاً أساس العقيدة السليمة التي قبلها واعتمدها مجمع نيقية في عام ٣٢٥م. ولقد تبلور قانون الإيمان الاثناسيوسي على يد أغسطينوس في القرن الخامس، وصار القانون عقيدة الكنيسة الفعلية من ذلك التاريخ إلى يومنا هذا».

(٢) القول للزمخشري. (٣) الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٥٨٥.

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني أن كل ما فيهما خلقه وملكه فكيف يكون بعض ملكه جزءاً منه، على أن الجزء إنما يصح في الأجسام وهو متعال عن صفات الأجسام والأعراف، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: يكل إليه الخلق كلهم في جميع أمورهم فهو الغني عنهم وهم الفقراء إليه، ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: لن يأنف ولن يذهب بنفسه عزة عن عبادة الله ولا الملائكة المقرّبون الذين حول العرش كجبرائيل وميكائيل وإسرافيل ومن في طبقتهم[1] عن أن يكونوا عباداً لله.

وبيّن المولى عزّ وجلّ شأن المسيح ﷺ بقوله جلّ من قائل: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: ٧٥].

(﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ استئناف مسبوق لتحقيق الحق الذي لا محيد عنه، وبيان حقيقة حاله ﷺ وحال أمّه بالإشارة أولاً إلى ما امتازا به من نعوت الكمال حتى صارا من أكمل أفراد الجنس، وآخراً إلى الوصف المشترك بينهما وبين أفراد البشر، بل أفراد الحيوانات، وفي ذلك استنزال لهم بطريق التدريج عن رتبة الإصرار، وإرشاد إلى التوبة والاستغفار، أي: هو ﷺ مقصور على الرسالة لا يكاد يتخطاها إلى ما يزعم النصارى فيه عليه الصلاة والسلام، وهو قوله سبحانه: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ صفة رسول منبّئة عن اتصافه بما ينافي الألوهية، فإن خلوّ الرسل قبله منذر بخلوّه، وذلك مقتضٍ لاستحالة الألوهية أي: ما هو إلا رسول كالرسل الخالية قبله خصّه الله تعالى ببعض الآيات كما خصّ كلاً منهم ببعض آخر منها، ولعل ما خصّ به غيره أعجب وأغرب مما خصه به، فإنه عليه الصلاة والسلام إن أحيا من مات من الأجسام التي من شأنها الحياة، فقد أحيا موسى عليه الصلاة والسلام الجماد، وإن كان قد خُلق من غير أب، فآدم عليه الصلاة والسلام قد خُلق من غير أب وأم، فمن أين وصفه بالألوهية؟! ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾: وما أمه أيضاً إلا كسائر النسائي اللواتي يلازمن الصدق.. والمراد بالصدق هنا صدق حالها مع الله تعالى، وقيل: صدقها في براءتها مما رمتها به اليهود، والمراد بالتصديق تصديقها بما حكى الله تعالى عنها بقوله سبحانه: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾)[2].

---

(١) الزمخشري، المرجع السابق، ج١، ص٥٨٥ ـ ٥٨٦.

(٢) الألوسي، المرجع نفسه، ج٦، ص٢٠٨.

ويبدو مما سبق أنه بعد انقراض الأجيال الأولى من النصارى انتشر معتنقو النصرانية ودعاتها بين الأمم الأجنبية خصوصاً في بلاد اليونان وفي بلاد الرومان، اللتين كانتا تدينان بالوثنية، وفي مصر حيث الفلسفات الوثنية، فاختلّ نظام الدعوة التي جاء بها المسيح ﷺ، واستُحدِثت فيها الأفكار الغريبة عنها، وشُوِّهت دعوة المسيح ﷺ إلى الوحدانية، واختلطت بها الآراء الفلسفية، فشاعت مع الوحدانية عقيدة مستحدَثة هي عقيدة الثالوث التي لم تكن تعرفها الأجيال الأولى للمسيحية، وإن كانت هذه العقيدة سائدة في المجتمعات الوثنية[١].

«ولو كان اعتقاد التثليث مدار النجاة لكان مبيناً في التوراة وجميع كتب الأنبياء لأنه أول الوصايا، ولقال عيسى ﷺ: أول الوصايا الرب واحد ذو أقانيم ثلاثة ممتازة بامتياز حقيقي، لكنه لم يُبيّن في كتاب من كتب الأنبياء صراحة ولم يقل عيسى ﷺ هكذا فلم يكن مدار النجاة. فثبت أن مدارها هو اعتقاد التوحيد الحقيقي لا اعتقاد التثليث، وهوسات التثليثيين باستنباطه من بعض كتب الأنبياء لا يتم على المخالف لأن هذا الاستنباط خفيّ جداً مردود بمقابلة النص، وغرض المخالف هذا أن اعتقاد التثليث لو كان له دخل ما في النجاة لبيّنه الأنبياء الإسرائيليون بياناً واضحاً، كما بيّنوا التوحيد في الباب الرابع[٢] من كتاب الاستثناء[٣] ٣٥ ـ (لتعلم أن الرب هو الله وليس غيره) ٣٩ ـ (فاعلم اليوم واقبل بقلبك أن الرب هو الإله في السماء من فوق وعلى الأرض من تحت وليس غيره)[٤].

وفي الباب السادس من السفر المذكور ٤ ـ (اسمع يا إسرائيل إن الرب إلهنا فإنه رب واحد) ٥ ـ (حبّ الربّ إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوّتك)[٥]. وفي الباب الخامس والأربعين من كتاب أشعياء ٥ ـ (أنا هو الرب وليس غيري وليس

(١) محمد عزت الطهطاوي، الميزان الحق في مقارنة الأديان، ص٢٢٨ ـ ٢٢٩.

(٢) كلمة باب تعني إصحاح.

(٣) أي: سفر التثنية في التوراة العهد القديم. والعدد نصه في نسخة الكتاب المقدس، الصادرة عن دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط: «إنك قد رأيت لتعلم أن الرب هو الإله. ليس آخر سواه».

(٤) ذكر نحوها في نسخة دار الكتاب المقدس وهي: «فاعلم اليوم وردد في قلبك أن الرب هو الإله في السماء من فوق وعلى الأرض من الأسفل. وليس سواه».

(٥) جاء الكلام في نسخة الكتاب المقدس كما يلي: «اسمع يا إسرائيل. الربّ إلهنا ربّ واحد. فتحب الربّ إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوّتك». سفر التثنية، الإصحاح ٦، العدد ٤ ـ ٥.

دوني إله..) ٦ ـ (ليعلم الذين من مشرق الشمس والذين هم من المغرب أنه ليس غيري أنا الربّ وليس آخر)(١).

فالواجب على أهل المشرق والمغرب أن يعلموا أن لا إله إلا الله وحده لا أن يعلموا أن الله ثالث ثلاثة. وفي الآية التاسعة من الباب السادس والأربعين من كتاب أشعياء (إني أنا الله وليس غيري إلهاً وليس لي شبه(٢))(٣). فكل هذه الأوصاف والكلمات لا تمت إلى الثالوث بصلة.

ولمّا بُعث النبي محمد ﷺ لم يُرسل إلى قوم بعينهم أو إلى بقعة من الأرض بعينها، ولكن أرسله الله تبارك وتعالى إلى الناس كافة، إلى كل الناس وإلى كل أهل العقائد السابقة.

وأُنزل عليه القرآن ليتبيّن للناس ما أرسل الله إليهم بعدما لحق بالرسالات السابقة بعض التغيير والتبديل، وبعد أن تعهد ربّ العزة أن يحفظ القرآن بحفظه ليكون هذا الكتاب خاتمة الرسالات السماوية، وبعد أن ضمّ في حناياه الحقيقة، كل الحقيقة بكل ما تساءل حوله أهل العقائد السابقة.

فكان النبي محمد ﷺ لم يُرسَل فقط للمسلمين بل أُرسِلَ إلى أهل العقائد السابقة على رسالة الإسلام، وبيّن لهم ما ألبس عليهم من حقائق.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

---

(١) ورد في نسخة الكتاب المقدس، سفر أشعياء، الإصحاح ٤٥، العدد ٥ ـ ٦ قوله: «أنا الرب وليس آخر. لا إله سواي.. لكي يعلموا من مشرق الشمس ومن مغربها أن ليس غيري. أنا الرب وليس آخر».

(٢) في نسخة الكتاب المقدس، سفر أشعياء، الإصحاح ٤٦، العدد ٩، «اذكروا الأوليات منذ القديم لأني أنا الله وليس آخر. الإله وليس مثلي».

(٣) رحمة الله بن خليل الكيرانوي، إظهار الحق، ص٢٧ ـ ٢٨، تحقيق عمر الدسوقي، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، لا.ت. ذكر في المرجع نفسه، ص٢٨، تبنيه مفاده أن: «حرّف صاحب الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١م قول المسيح ﷺ بتبديل ضمير المتكلم بضمير الخطاب، وترجم هكذا: (الربّ إلهك إله واحد) وضع بهذا التحريف المقصود الأعظم لأن ضمير المتكلم ههنا دال على أن عيسى ﷺ ليس بربّ بل عبد مربوب بخلاف ضمير الخطاب والظاهر أن هذا التحريف قصدي».

الفصل التاسع

نزول المسيح
إلى الأرض بعد رفعه

عودة المسيح المنتظر عند اليهود والنصارى

كان سواد اليهود ينتظرون مسيحياً سياسياً وبطلاً عسكرياً، يعينهم وينصرهم ويبطش بأعدائهم.

ولما جاء المسيح ﷺ يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة كذّبوه وطردوه ظانّين أنه ليس الذي بُشّروا به، بحجة أن المُبَشَّر به تؤمن به الأمم كلها، وألقوا القبض عليه وصلبوه بزعمهم، إنما رفعه الله إليه وأنجاه من كيدهم.

هذا، وقال ابن كمونة اليهودي في تنقيح الأبحاث، ص٦١: «وقد جاء في كتب الأنبياء من علامات المسيح وما يكون في زمانه ما لم يظهر في يشوع ولا في زمانه. مثل ما جاء في كلام بعضهم أنه يضرب الأرض بسوط فيه، وبريح شفتيه يميت الخاطىء، وأنه يجلس على منبر داود فيقضي بين الناس بعدل وحق. وأن الحروب ترتفع، ولا يرفع أحد على أحد سيفاً، وأن الذئب والكبش يربضان معاً، ويرعيان جميعاً، وأن الأسد يأكل التبن مع البقر.

ثم أضاف قائلاً: وهذا إن كان على ظاهره فلم يجر ولم يقع في أيام يشوع ولا بعده، وإن كان مثلاً، فهو مثل لارتفاع الشرور من العالم وزوال العدوان من بين الخلق. ولم يجرِ في زمانه إلا خلاف ذلك من زيادة العداوة بين الناس بسبب ظهوره، وارتكابهم الذنوب العظيمة فيه وفي أصحابه»[1].

ولعل ما ورد من أن الحروب ترتفع، ولا يرفع أحد على أحد سيفاً، وأن الذئب والكبش يربضان معاً ويرعيان جميعاً، وأن الأسد يأكل التبن مع البقر.. فإن هذا والله أعلم يكون في زمن عيسى ﷺ بعد عودته إلى الأرض لأن هذا الأمر يتطابق مع الأحاديث الشريفة التي تروي مثل هذا.

---

(١) السموأل بن يحيى بن عباس المغربي ت٥٧٠هـ، بذل المجهود في إفحام اليهود، تعليق عبد الوهاب طويلة، دار القلم، دمشق ـ الدار الشامية ـ بيروت، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

ولا يزال اليهود ينتظرون مسيحهم الذي يجعل بالقوة من أورشليم[١] محور العالم، ويحيي الموتى. وهذا الذي ينتظرونه ما هو إلا المسيح الدجال فيتبعونه. وقد ورد في السنة الشريفة أن أكثر أتباع الدجال وناصريه هم من اليهود.

أما النصارى فإنهم يؤمنون بعودة المسيح عليه السلام في آخر الزمان ليدين الناس يوم الدينونة أي: يوم القيامة، «وكانوا يظنون أن هذا سيكون قبل موت جميع الحواريين. بل إن بعضهم ليشهد ذلك»[٢]. ولكن الزمن انقضى وتوالت القرون حتى زادت على العشرين قرناً ولكن يوم الدينونة لم يأتِ ليأتي المسيح ويدين الناس علماً أنه عندما رُفع المسيح عليه السلام إلى السماء، لم يكن الوقت قد حان بعد ليمارس سلطته الملكية كما يقول النصارى. وكان عليه أن ينتظر الوقت المعين من أبيه. ومع ذلك، أشار إلى الوقت الذي سيعود فيه بسلطة الملكوت قائلاً: «وحتى جاء ابن الإنسان في مجده وجميع الملائكة القديسين معه فحينئذ يجلس على كرسي مجده. ويجتمع أمامه جميع الشعوب فيميز بعضهم من بعض كما يميز الراعي الخراف من الجداء»[٣].

ويقول صاحب كتاب «الحق الذي يقود إلى الحياة الأبدية»: «وعما قريب سيستعمل المسيح الجالس على عرشه السماوي سلطته الملكية ليهلك الأشرار وينقذ الأشخاص المشبَّهين بالخراف، الذين سيرثون الحيّز الأرضي للملكوت»[٤].

وقد جاء ذكر يوم الدينونة في إنجيل متّى، الإصحاح ٢٥، العدد ٣٤ و٤١ و٤٦، على لسان المسيح عليه السلام بقوله: «ثم يقول الملك ـ أي المسيح عليه السلام ـ للذين عن يمينه: تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المُعَد لكم منذ تأسيس العالم.. ثم يقول أيضاً للذين عن اليسار: اذهبوا عني ملاعين إلى النار الأبدية المعدَّة لإبليس وملائكته[٥].. فيمضي هؤلاء إلى عذاب أبدي والأبرار إلى حياة أبدية».

(١) أورشليم: أور كلمة أرامية: تعني مدينة، وكلمة شليم بالعبرية: تعني السلام، فتكون كلمة أورشليم: كلمة تعني مدينة السلام.

(٢) السموأل بن يحيى بن عباس المغربي، المرجع السابق، ص١٠٩.

(٣) إنجيل متّى، الإصحاح ٢٥، العدد ٣١ ـ ٣٢.

(٤) مؤلف مجهول، الحق الذي يقود إلى الحياة الأبدية، ط١، ص٥٣ ـ ٥٤.

(٥) ملائكة إبليس تعني جنده.

وفي إنجيل مرقس يرد النص بقوله: «وفيما هو جالس على جبل الزيتون، تجاه الهيكل، سأله بطرس ويعقوب ويوحنا وأندراوس على انفراد: قل لنا متى يكون هذا وما هي العلامة عندما يتم جميع هذا؟ فأجابهم يسوع وابتدأ يقول: انظروا لا يضلكم أحد. فإن كثيرين سيأتون باسمي قائلين: إني أنا هو. ويضلون كثيرين. فإذا سمعتم بحروب وبأخبار حروب فلا ترتاعوا. لأنها لا بد أن تكون. ولكن ليس المنتهى بعد. وينبغي أن يكرز أولاً بالإنجيل في جميع الأمم»[١].

«متى نظرتم رجسة الخراب التي قال عنها دانيال النبي قائمة حيث لا ينتهي. ليفهم القارىء[٢] فحينئذ ليهرب الذين في اليهودية إلى الجبال. والذي على السطح فلا ينزل إلى البيت ولا يدخل ليأخذ من بيته شيئاً. والذي في الحقل فلا يرجع إلى الوراء ليأخذ ثوبه»[٣]. . «حينئذ إن قال لكم هو ذا المسيح هنا أو ذا هناك فلا تصدقوه لأنه سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة ويعطون آيات وعجائب لكي يضلُّوا لو أمكن المختارين أيضاً. فانظروا أنتم. ها أنا قد سبقت وأخبرتكم بكل شيء.

وأما في تلك الأيام بعد ذلك الضيق فالشمس تظلم والقمر لا يعطي ضوءه ونجوم السماء تتساقط والقوات التي في السماء تتزعزع[٤]. وحينئذ يبصرون ابن الإنسان آتياً في سحاب بقوة كثيرة ومجد. فيرسل حينئذ ملائكته ويجمع مختاريه من الأربع الرياح من أقصاء الأرض إلى أقصاء السماء»[٥].

«الحق أقول لكم. . لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كله. السماء والأرض تزولان ولكن كلامي لا يزول. وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الأب.

---

(١) إنجيل مرقس، الإصحاح ١٣، العدد ٣ ـ ١٠.

(٢) وفي تعليق لعبد الكريم الخطيب، المرجع السابق، ص٥٣٠ فيقول: «هذه العبارة واردة في الإنجيل هكذا، وهي لا شك ليست من كلام المسيح فيساق الحديث أخذ طريقاً غير طريق هذه العبارة! ولا أدري ما حكمة وضعها هنا، إلا أن يكون أحد نسّاخ الأناجيل قد ألحقها بالنص الأصلي ليلفت القارىء إلى ما يجب أن يكون منه من التدقيق والنظر في التعرف على رجسة الخراب!».

(٣) إنجيل مرقس، الإصحاح ١٣، العدد ١٤ ـ ١٦.

(٤) إشارة إلى المسيح الدجال الذي يأمر السماء بالمطر فتمطر. والله تعالى أعلم.

(٥) إنجيل مرقس، الإصحاح ١٣، العدد ٢١ ـ ٢٧.

انظروا. اسهروا وصلُّوا لأنكم لا تعلمون متى يكون الوقت»[١]. ويعني به متى وقت عودته ﷺ إلى الأرض.

وقد ذكر إنجيلا متّى[٢] ولوقا هذا الخبر على صورته تلك مع اختلاف قليل..

وقال المسيح عليه السلام أيضاً: «إني لست أدعكم أيتاماً لأني سآتيكم عن قريب». وهذا القول مطابق لقول رسول الله محمد ﷺ عندما قال: «والذي نفسي بيده ليوشكنّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد»[٣].

وفي حديث آخر: «كيف تهلك أمة أنا في أولها وعيسى في آخرها»[٤].

قتل المسيح للدجّال عند النصارى:

ذكر إنجيل متّى، في الإصحاح ٢٤، العدد ٢٤، عن المسيح عليه السلام قوله: «لأنه سيقوم مسحاء كذَبة وأنبياء كذَبة ويعطون آيات عظيمة وعجائب حتى يضلُّوا لو أمكن المختارين أيضاً»، كما جاء ذكر الدجّال وعودة المسيح عليه السلام في رسالة بولس الثانية إلى أهل تسالونيكي، الإصحاح الثاني، العدد ١ ـ ١٢، عندما قال بولس: «ثم نسألكم أيها الإخوة من جهة مجيء ربنا يسوع المسيح ـ على زعمهم ـ واجتماعنا إليه، أن لا تتزعزعوا سريعاً عن ذهنكم ولا ترتاعوا لا بروح ولا بكلمة ولا برسالة كأنها منّا أي: أن يوم المسيح قد حضر. لا يخدعنكم أحد على طريقة ما. لأنه لا يأتي إن لم يأتِ الارتداد أولاً ويستعلن إنسان الخطيئة ابن الهلاك. المقاوم والمرتفع على كل ما يدعى إلهاً أو معبوداً حتى إنه يجلس في هيكل الله كإله مظهراً نفسه أنه إله. أما تذكرون أني وأنا بعد عندكم كنت أقول لكم هذا. والآن تعملون ما يحجز حتى يستعلن في وقته. لأن سر الإثم الآن يعمل فقط إلى أن يرفع من الوسط الذي يحجز الآن. وحينئذ سيستعلن الأثيم الذي الرب يبيده بنفخة فمه[٥] ويبطله بظهور مجيئه. الذي مجيئه

---

(١) إنجيل مرقس، الإصحاح ١٣، العدد ٣٠ ـ ٣٣.

(٢) انظر إنجيل متّى، الإصحاح ٢٦، العدد ٦٤. وانظر الإصحاح ٢٤، العدد ٣ ـ ٤١.

(٣) الجامع الصحيح، ج٤، كتاب الفتن، باب ما جاء في نزول عيسى ابن مريم عليه السلام، ص٥٠٦، رقم ٢٢٣٣.

(٤) ابن قيم الجوزية، هداية الحيارى، ص٨٣ ـ ٨٤.

(٥) إشارة إلى عودة المسيح عليه السلام إلى الأرض وقتله الدجال كما جاء عند المسلمين.

بعمل الشيطان بكل قوة وبآيات وعجائب كاذبة. وبكل خديعة الإثم في الهالكين لم يقبلوا محبة الحق حتى يخلصوا. ولأجل هذا سيرسل إليهم الله عمل الضلال حتى يصدقوا الكذب. لكي يدان جميع الذين لم يصدقوا الحق بل سرُّوا بالإثم».

آيات تشير إلى نزول المسيح إلى الأرض:

قال تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٦].

ذكر صاحب عقيدة أهل الإسلام في نزول عيسى عليه السلام حول هذه الآية التعبير التالي: «وفي الآية نكتتان لطيفتان الأولى الإخبار بأن عيسى عليه السلام يكلم الناس كهلاً، وقد قال المفسرون إن هذا وعد من الله بأنه سيعيش إلى سن الكهولة وهو معنى صحيح. وفي الآية مع هذا معنى آخر لم يعرجوا عليه وهو الإشارة إلى أن كلامه كهلاً يأتي على خلاف المعهود فإن الناس يتكلمون كهولاً وشباناً ليس في ذلك ما يدعو إلى العجب، ولكن العجب في شأن عيسى عليه السلام أن يُرفع شاباً ويغيب مئات السنين في عالم لا تجري عليه الأغيار الجسمانية ثم ينزل ويكلم الناس بعد ذلك كهلاً لا جرم أن هذا أمر غريب استحق لغرابته أن ينوّه الله به في آيتين من كتابه بطريق البشارة والامتنان. ولذا قابله بأمر لا يقل غرابة وهو كلامه في المهد فاشتملت الآية على معجزتين عظيمتين.

وإلى هذا أشار أحمد بن يحيى ثعلب إمام الكوفيين في النحو واللغة حيث قال: «ذكر الله لعيسى آيتين: تكليم الناس في المهد فهذه معجزة، والأخرى نزوله إلى الأرض عند اقتراب الساعة كهلاً ابن ثلاثين سنة يكلم أمّة محمد ﷺ فهذه الآية الثانية.. وقوله ابن ثلاثين سنة سبق لسان عن قوله أربعين لأن عيسى عليه السلام نبيء ابن ثلاثين ورُفع ابن ثلاث وثلاثين وبضعة أشهر كما هو معلوم، الثانية: التعبير بالناس حيث قال تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾ ولم يقل بني إسرائيل أو قومه مع أن المعهود في كل رسول أنه يكلم قومه الذين أُرسل إليهم خاصة للإشارة إلى أن الذين يكلمهم عيسى ليسوا قومه فحسب بل هم وغيرهم ممن ينزل عليهم آخر الزمان واقرأ قوله تعالى في البشارة بعيسى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وانظر كيف خصّ رسالته بقومه ثم قابله بقوله تعالى في البشارة به أيضاً: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ تجد بينهما تخالفاً بالخصوص والعموم مع أنهما في سياق واحد فليس هذا التخالف للتفنن في التعبير كما يتوهم من لا تحصيل عنده بل للنكتة التي أبديناها وللإشارة إلى أن كلامه في المهد وكهلاً ليس بوصف كونه رسولاً فتأمّل هذا جيداً فإنه من أسرار الكتاب

الكريم»[(١)]. كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩].

وحول هذه الآية الكريمة ذكر أيضاً صاحب كتاب «عقيدة أهل الإسلام في نزول عيسى عليه السلام»، عن ابن المنذر أخرج عن شهر بن حوشب عن أم سلمى[(٢)] قال: «قال لي الحجاج: يا شهر آية من كتاب الله ما قرأتها إلا اعترض في نفسي منها شيء، قال الله: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ وإني أوتى بالأسارى فأضرب أعناقهم ولا أسمعهم يقولون شيئاً. فقلت: رُفِعَتْ إليك على غير وجهها، إن النصراني إذا خرجت روحه، ضربته الملائكة من قُبله ومن دُبره وقالوا: أي خبيث إن المسيح الذي زعمت أنه الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة عبد الله وروحه وكلمته فيؤمن به حين لا ينفعه إيمان، وإن اليهودي إذا خرجت روحه ضربته الملائكة من قلبه ومن دبره وقالوا: أي خبيث إن المسيح الذي زعمت أنك قتلته عبد الله وروحه فيؤمن به حين لا ينفعه إيمان، فإذا كان عند نزول عيسى آمنت به أحياؤهم كما آمنت به موتاهم فقال: من أين أخذتها؟ فقلت: عن محمد بن علي[(٣)]..»[(٤)].

كذلك ذكر سيد قطب في تفسيره هذه الآية «في ظلال القرآن»، م٢، ص٨٠٢، ما نصه: «وقد اختلف السلف في مدلول هذه الآية، باختلافهم في عائد الضمير في «موته» فقال جماعة: وما من أهل الكتاب من أحد إلا يؤمن بعيسى عليه السلام قبل موته ـ أي عيسى ـ وذلك على القول بنزوله قبيل الساعة.. وقال جماعة: وما من أهل الكتاب من أحد إلا يؤمن بعيسى قبل موته ـ أي موت الكتابي[(٥)] ـ وذلك على القول بأن الميت ـ وهو في سكرات الموت ـ يتبين له الحق، حيث لا ينفعه أن يعلم»[(٦)].

من هنا يبدو أن تفسير الآية يأخذ اتجاه وتبيان حقيقة المسيح عليه السلام قبل موت النصراني أو اليهودي، مع وجود اتجاه آخر وهو إيمان أهل الكتاب بعد نزول عيسى عليه السلام ومعرفة حقيقته بأنه عبد الله ورسوله: لأن المقصود من الآية الكريمة هو «تقرير

---

(١) أبو الفضل عبد الله محمد الصديق الغماوي الحسني، المرجع السابق، ص٢٦ ـ ٢٧.

(٢) أم سلمى زوج النبي محمد ﷺ.

(٣) لعله محمد بن علي زين العابدين بن الحسين رضي الله عنه.

(٤) أبو الفضل عبد الله محمد الصديق الغماوي الحسني، المرجع السابق، ص١٣ ـ ١٤.

(٥) الكتابي: من أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

(٦) وانظر القرطبي، مختصر تفسير القرطبي، ج١، ص٥١٢.

بطلان ما ادّعته اليهود من قتل عيسى عليه السلام وصلبه، وتسليم من سلّم لهم من النصارى الجهلة ذلك، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما شُبّه لهم فقتلوا الشبه وهم لا يتبيّنون ذلك، ثم إنه رفعه إليه، وإنه باق حيّ، وإنه سينزل قبل يوم القيامة.. فيقتل مسيح الضلالة، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية يعني: لا يقبلها من أحد من أهل الأديان، بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فأخبرت هذه الآية الكريمة: أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ، ولا يتخلّف عن التصديق به واحد منهم، ولهذا قال: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ أي: قبل موت عيسى عليه السلام الذي زعم اليهود ومن وافقهم من النصارى أنه قُتل وصُلب ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي: بأعمالهم التي شاهدها منهم قبل رفعه إلى السماء وبعد نزوله إلى الأرض وقال قتادة: يشهد عليهم أنه قد بلغهم الرسالة من الله، وأقرّ بعبوديته لله عزّ وجل»[(١)].

هذا، وقد ذكر الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير هذه الآية في «المنار»، ج٦، ما يلي: (﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: وما من أهل الكتاب أحد ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ أي: ليؤمنن بعيسى إيماناً صحيحاً وهو أنه عبد الله ورسوله وآيته للناس ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ أي: قبل موت ذلك الأحد الذي هو نكرة في سياق النفي فيفيد العموم. وحاصل المعنى: أن كل أحد من أهل الكتاب عندما يدركه الموت ينكشف له الحق[(٢)] في أمر عيسى وغيره من أهل الإيمان فيؤمن بعيسى إيماناً صحيحاً.

فاليهودي يعلم أنه رسول صادق غير دعي ولا كذّاب، والنصراني يعلم أنه عبد الله ورسوله، فلا هو إله ولا ابن الله ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ يشهد عليهم بما تظهر به حقيقة أمره معهم، ومنه ما حكاه الله عنه في آخر سورة المائدة ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] وقد يشهد للمؤمن منهم في حال الاختيار والتكليف بإيمانه، وعلى الكافر بكفره، لأنه مبعوث إليهم، وكل نبي شهيد على قومه، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١])[(٣)].

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر فتح القدير تهذيب ابن كثير، تحقيق محمد أحمد كنعان، ج٢، ص١٧٦ ـ ١٧٧ وما بعدها.

(٢) وصف الله تعالى حال الإنسان في ساعة الموت برفع الغطاء عنه بقوله جلّ وعلا في سورة ق، الآية ٢٢: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾.

(٣) محمد رشيد رضا، عقيدة الصلب والفداء، ص١١.

ومن آي الذكر الحكيم الذي يفيد في الدلالة في عودة عيسى عليه السلام إلى الأرض قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [الزخرف: ٦١].

فقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ ـ بفتح اللام وكسر العين وتسكين اللام الثانية ـ قال ابن إسحاق: إن المراد من ذلك، ما بعث به عيسى عليه السلام، من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وغير ذلك من الأسقام، فكفى به دليلاً على علم الساعة، وفي هذا نظر. . ، وأن الضمير عائد على عيسى عليه الصلاة والسلام والمراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ أي: قبل موت عيسى عليه الصلاة والسلام، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾، ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى ﴿وإنه لعلم للساعة﴾ ـ بفتح اللام وفتح العين وفتح اللام الثانية ـ أي: أمارة ودليل على وقوع الساعة، قال مجاهد: «وإنه لعلم للساعة» أي: آية للساعة خروج عيسى ابن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة(١). .

وقد حاول بعض النصارى تحريف معنى الآية القرآنية ليوافق عقيدتهم. ففي تعليق ليوسف الحداد حول هذه الآية، قال: (والمسيح «علم» للساعة، وعلم الساعة من خصائص الله عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]. وهنا يظهر أنه يشرك المسيح في علم الساعة)(٢).

وهناك قراءة أخرى لكلمة (لعلم) ـ بفتح اللام وكسر العين وتسكين اللام الثانية ـ بمعنى شرطها، ولا يستنبطون معنى القراءة الفضلى (لعلم). وقول القرآن إن المسيح (علم) ـ بكسر العين وتسكين اللام ـ للساعة يجعله يعلمها كما يعلمها الله. بهذا يقول الحداد ويضيف قائلاً ص٢٠٦، من كتابه مدخل إلى الحوار الإسلامي المسيحي: «وفي المعنى (لعلم) ـ بفتح اللام وكسر العين وتسكين اللام الثانية ـ يشترك المسيح مع الله في علم الساعة الذي هو من غيب الله وحده، فلا يطلع على غيب الله إلا المسيح وحده من دون المخلوقين أجمعين»(٣).

---

(١) فتح القدير تهذيب ابن كثير، تحقيق محمد أحمد كنعان، ج٥، ص٣٩٣. لمزيد من التفصيل انظر القرطبي، مختصر تفسير القرطبي، ج٤، ص٣٦٤ ـ ٣٦٥، اختصار وتعليق محمد كريم راجح، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

(٢) يوسف الحداد، مدخل إلى الحوار الإسلامي، في سبيل الحوار الإسلامي المسيحي، ج١، ص٢٠٥.

(٣) يوسف الحداد، المرجع السابق، ج١، ص٢٠٦.

صحيح أن الله اصطفى المسيح عليه السلام وأيّده بمعجزات كثيرة إلا أن الله لم يطلع على غيبه أحداً ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦﴾ [الجن: ٢٦]. ولو أن الله أطلع عيسى ابن مريم على غيبه وعلى علم الساعة لكان عيسى عليه السلام قد أجاب قومه عندما كان في الأرض وسألوه عن الساعة فقال: إن علم الساعة من علم الآب وحده. فإنه نفى علم الساعة عن نفسه ولم ينفه عن الله ـ الآب في نص الإنجيل ـ. زد على ذلك أن المسيح عَلَمٌ من أعلام الساعة فهو عبد من عباد الله المخلصين الذين ينفذون أوامر الله ونواهيه وهو علم مثل الأعلام الأخرى للساعة كالمسيح الدجال، وخروج يأجوج ومأجوج، وظهور دابة الأرض، وطلوع الشمس من مغربها. . الخ.

ولعل وجود هذه المعجزات البينات ليتصَدّى للدجّال الذي يدّعي أنه المسيح المنتظَر وأنه بعد ذلك يدّعي الألوهية، ويسخّر بين يديه الشياطين يعينونه على سحره ويكون فتنة في الأرض. ولا يقابل هذا الكافر بما أوتي من سحر وفساد في الأرض إلا نبي رسول من أولي العزم كعيسى ابن مريم عليه السلام الذي أبقاه الله حياً حتى قرب قيام الساعة لما له من الأهمية في وجوده في الأرض لنصرة المؤمنين. وكذلك هناك خروج يأجوج ومأجوج الذين يعيثون في الأرض الفساد. فهذه الأمور الجمّة يرحمنا الله بذلك الزمن العصيب بإرساله نبيه ورسوله عيسى عليه السلام ولذلك قال محمد رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه: «ولن يخزي الله أمّة أنا أولها والمسيح آخرها»(١).

ولو أن المسيح يعلم الساعة ويشترك في عمله مع الله لأخبر برجوعه إلى الأرض وإن اختلفت الأناجيل في زمن عودته ومنهم من قال: إنه لم يمضِ هذا الجيل حتى يعود المسيح إلى الأرض. وانتظره النصارى كثيراً في أزمان متفاوتة وصلت إلى القرون والمتتبع للدين النصراني يرى كم من أناس خرجوا إلى الصحارى في أزمان متفاوتة وفي بقع مختلفة من الأرض جادّين في انتظاره وعودته. ولكنه لن يعود إلا قبيل قيام الساعة. والله تعالى أعلم.

نزول المسيح إلى الأرض في السُنّة المطهرة:

ورد خبر عودة المسيح عليه السلام إلى الأرض قبيل قيام الساعة في عدة أحاديث منها ما ورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لما كان ليلة أُسري برسول الله ﷺ، لقي إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، فتذاكروا الساعة متى هي؟ فبدأوا بإبراهيم، فسألوه

---

(١) الترمذي: نوادر الأصول، ص١٥٦، لا.ت. وفي هذا المعنى ورد «وعيسى ابن مريم آخرها».

عنها، فلم يكن عنده منها علم. فسألو موسى، فلم يكن عنده منها علم، فردُّوا الحديث إلى عيسى، فقال: عهد الله إليّ فيما دون وجبتها، فأما وجبتها فلا يعلمها إلا الله عزّ وجل. فذكر خروج الدجال، فأهبط فأقتله، ثم يرجع الناس إلى بلادهم، فيستقبلهم يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، لا يمرون بماء إلا شربوه، ولا بشيء إلا أفسدوه، فيجأرون إليّ، فأدعو الله فيرسل السماء بالماء، فيحملهم فيقذف بأجسامهم في البحر، ثم تُنسف الجبال، وتُمَد الأرض مدّ الأديم، فعهد الله عزّ وجل إليّ، أنه إذا كان ذلك، أن الساعة من الناس كالحامل المتمّ، لا يدري أهلها متى تفاجئهم بولادتها، ليلاً أو نهاراً»[١].

قال العوام: «فوجدت تصديق ذلك في كتاب الله عزّ وجل، ثم قرأ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ۝٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾)[٢].

هذا، وقد أخرج الحاكم عن أنس أنه قال: قال ﷺ: «من أدرك منكم عيسى ابن مريم فليقرئه مني السلام».

وورد أنه يتزوج بعدما ينزل ويولد له ثم يموت بالمدينة ولعل موته عند حجه وزيارته النبي ﷺ وإلا فهو إنما يكون ببيت المقدس[٣].

وعن رسول الله ﷺ قال: «ليهبطنّ ابن مريم حكماً عدلاً وإماماً مقسطاً وليسلكنّ فحاجاً أو معتمراً[٤] أو ليأتينّ قبري حتى يسلم عليّ ولأردنّ عليه. قاله أبو هريرة أي بني أخي إن رأيتموه فقولوا أبو هريرة يقرئك السلام»[٥].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الملاحم والفتن ٤/ ٤٨٨. وانظر يوسف بن عبد العزيز السلمي، المرجع السابق، ص٣٠٧.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الملاحم والفتن ٤/ ٤٨٩. وانظر يوسف بن عبد العزيز السلمي، المرجع السابق، ص٣٠٨.

(٣) لمزيد من التفصيل انظر محمد بن رسول الحسيني، الإشاعة لأشراط الساعة، ص١٤٧.

(٤) ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: عن رسول الله محمد ﷺ أنه قال: «والذي نفس محمد بيده ليهلنّ ابن مريم بفج الروحاء حاجًا أو معتمراً أو ليثنيهما»، ومعنى الحديث أن ابن مريم ليهلنّ أي: يرفع صوته بالتلبية بقوله: لبيك اللهم لبيك.. إلخ، بفج الروحاء أي: ذاهباً في الطريق بين الجبلين والروحاء: طريق يبعد عن المدينة مقدار ستة أميال. ومعنى ليثنيهما: أي الحج والعمرة معاً. رواه مسلم، كتاب الحج: باب إهلال النبي محمد ﷺ وهديه. وانظر محمد خليل هراس، فصل المقال في نزول عيسى وقتله الدجال، ص٢٩.

(٥) لمزيد من التفصيل انظر محمد بن رسول الحسيني، المرجع السابق، ص١٤٧.

أما وصف عيسى عليه السلام حين نزوله إلى الأرض فقد ورد في السنة الشريفة في عدّة أحاديث منها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي محمد ﷺ قال: «الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد، وإني أولى الناس بعيسى ابن مريم؛ لأنه لم يكن نبي بيني وبينه[(١)] وإنه نازل فاعرفوه: رجل مربوع، إلى الحمرة والبياض، عليه ثوبان ممصران[(٢)] كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويدعو الناس إلى الإسلام، ويُهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويُهلك الله في زمانه المسيح الدجّال[(٣)]، ثم تقع الأمانة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمار[(٤)] مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم، فيمكث أربعين سنة ثم يتوفى، ويصلي عليه المسلمون»[(٥)].

وقد روى الشيخان[(٦)] عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكنّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها»[(٧)].

وفي هذا الحديث يبشر رسول الله محمد ﷺ بقرب نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض، حكماً عدلاً يحكم بشريعة محمد ﷺ لأنها لا تنسخ إلى يوم القيامة، فيكسر الصليب أي: يصحح مسار العقيدة التي أخطأت وقالت بصلبه، ويأمر بقتل الخنزير أي: يأمر بقتله مبالغة في تحريم أكله.. الخ.

---

(١) عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لن يخزي الله أمة أنا أولها والمسيح آخرها». الترمذي، نوادر الأصول، ص١٥٦. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا إن ابن مريم، ليس بيني وبينه نبي ولا رسول. ألا إنه خليفتي في أمتي من بعدي». السيوطي، الإعلام بحكم عيسى عليه السلام.

(٢) ممصران: مثنى ممصرة. ويقال الممصرة من الثياب التي فيها صفرة.

(٣) ورد في السنة الشريفة عن مجمع ابن جارية، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقتل ابن مريم المسيح الدجال بباب لد» ـ باب لد من أرض فلسطين ـ والحديث رواه الإمام أحمد.

(٤) النمار هكذا في الأصل، ومفردها نمر والجمع نمور.

(٥) رواه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٢٩٠). وانظر محمد خليل هراس، فصل المقال في نزول عيسى وقتله الدجال، ص٣١ ـ ٣٢ وانظر نحو هذا عند محمد صديق حسن القنوجي، المرجع السابق، ص١٦١.

(٦) الشيخان: تعني البخاري ومسلم من رواة الأحاديث الشريفة ولهم كتب الصحاح.

(٧) رواه الشيخان في كتاب البيوع: باب قتل الخنزير (٤/ ٤١٤).

ويذكر الإمام النووي رضي الله عنه وأرضاه: («إذا نزل عيسى عليه السلام كان مقرراً للشريعة المحمدية لا رسولاً إلى هذه الأمة» زاد غيره: ويكون قد علم بأمر الله تعالى في السماء قبل أن ينزل بما يحتاج إليه من علم الشريعة المحمدية ليحكم به بين الناس ويعمل به في نفسه وجاء أنه يتزوج بعد نزوله «ويولد له ويُدفن في الحجرة النبوية مع محمد ﷺ»)[(١)].

وقد روى جابر بن عبد الله أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة». قال: «فينزل عيسى ابن مريم، فيقول أميرهم: تعال صلِّ بنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة»[(٢)].

وفي رواية أخرى «بينما هو والمؤمنون معه ببيت المقدس يصلي بهم الصبح إذ نزل عيسى ابن مريم عليه السلام عليهم فنكص القهقرى ليتقدم عيسى، فيضع عيسى يديه بين كتفيه ثم يقول تقدم فصلِّ فإنها لك أقيمت، فيصلي بهم إمامهم وإمام عيسى عليه الصلاة والسلام»[(٣)].

وفي صفات عيسى عليه السلام وقت نزوله «يلتفت المهدي وقد نزل عيسى كأنما يقطر من شعره ماء، فيقول المهدي: تقدم صلِّ بالناس، فيقول عيسى: إنما أقيمت الصلاة لك، فيصلّي خلف رجل من ولدي»[(٤)].

مكان نزول المسيح في الأرض ومدة مكوثه فيها:

ذكر عن عابد الحضر أن المسيح عليه السلام يخرج في آخر الزمان «عند المنارة البيضاء عند الباب الشرقي ـ من مدينة دمشق ـ ثم يأتي مسجد دمشق حتى يقعد على المنبر فيدخل المسلمون المسجد، وكذا النصارى واليهود كلهم يرجونه، حتى لو ألقيت شيئاً لم يصب إلا رأس إنسان من كثرتهم ويأتي مؤذن المسلمين، وصاحب بوق اليهود وصاحب ناقوس النصارى فيقترعون فلا يخرج إلا سهم المسلمين، حينئذ

(١) ابن حجر الهيتمي، المرجع السابق، ص٨٣ ـ ٨٤، وانظر السخاوي، أشراط الساعة، ص٣٣.

(٢) رواه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ. وانظر محمد خليل هراس، فصل المقال في نزول عيسى وقتله الدجال، ص٢٧، تحقيق أبي الفداء السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم الأثري.

(٣) أي: المهدي، وهو محمد بن عبد الله، وفي حديث لرسول الله ﷺ «يوافق اسمه اسمي..».

(٤) ابن حجر الهيتمي، القول المختصر في علامات المهدي المنتظر، تحقيق د. محمد زينهم محمد عزب، ص٤٢ ـ ٤٣.

يؤذّن مؤذنهم وتخرج اليهود والنصارى من المسجد، ثم يخرج عيسى عليه السلام بمن معه من أهل دمشق يتبع الدجال إلى أن يأتي بيت المقدس فيجده مغلقاً، قد حصره الدجال، قال: فيأمر عيسى عليه السلام بفتح الأبواب ويتبعه حتى يدركه بباب اللد فيذوب كما يذوب الشمع[١] ويقول عيسى عليه الصلاة والسلام:

«إن لي فيك ضربة فيضربه فيقتله الله على يديه، ثم يمكث في المسلمين ثلاثين سنة أو أربعين، ويهلك الله على يديه يأجوج ومأجوج فلا يبقى منهم عين تطرف، وترد الأرض إلى بركاتها حتى إن العصابة يجتمعون على العنقود وعلى الرمانة، وينزع التباغض حتى إن الحية تكون مع الصبي والأسد مع البقرة فلا يضران شيئاً، ثم يبعث الله ريحاً طيبة تقبض روح كل مؤمن، ويبقى شرار الناس تقوم عليهم الساعة»[٢].

وفي رواية أخرى عن أم شريك ابنة أبي العكر قالت: يا رسول الله فأين الناس؟ قال ﷺ: «هم يومئذ قليل وجلهم ببيت المقدس، وإمامهم رجل صالح فيسير الدجّال حتى ينزل فيها فيحاصرهم فبينما هو يحاصرهم إذ نزل عيسى عليه ـ وإذا إمامهم ـ عرفه فيرجع القهقرى ليتقدم عيسى عليه السلام للصلاة، فيضع عيسى عليه السلام يده بين كتفيه ثم يقول له:

تقدم فصلِّ فإنها لك أقيمت فيصلي عيسى عليه السلام وراءه فإذا سلّم ذلك الإمام. قال عيسى عليه السلام:

افتحوا وأقيموا الباب، فيُفتح وإذا وراءه الدجال معه سبعون ألف يهودي كلهم ذو سيف محلّى وسلاح، فإذا نظر إليه ذاب كما يذوب الملح في الماء وانماع[٣] ثم ولّى هارباً.

فيقول عيسى عليه السلام: إن لي فيك لضربة لن تسبقني بها فيدركه عيسى عليه السلام عند باب لد الشرقي فيقتله، ويهزم الله عزّ وجل يهوده، ويقتلون أشد القتل، فلا يبقى شيء مما خلق الله دابة ولا شجر ولا حجر يتوارى به يهودي إلا أنطق الله ذلك الشيء.

---

(١) أخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ينزل عيسى ابن مريم فإذا رآه الدجال ذاب كما تذوب الشحمة فيقتل الدجال ويفرق عنه اليهود فيقتلون حتى إن الحجر ليقول: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي ورائي تعال فاقتله». انظر أبا عبد الفضل عبد الله محمد الصديق الغماوي الحسني، عقيدة أهل الإسلام في نزول عيسى عليه السلام، ص١٣، مكتبة القاهرة بالأزهر، مصر، لا.ت.

(٢) السخاوي، المرجع السابق، ص٢٦ ـ ٢٧.

(٣) أي: يميع كما يميع الملح إذا انسكب عليه قليل الماء.

فيقول: يا عبد الله المسلم: هذا يهودي فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه لا ينطق، ويقال: إنه شجرهم[١].

وفي رواية: «فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدّر منه مثل الجمان، كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله»[٢].

المسيح ويأجوج ومأجوج:

جاء في السنة الشريفة عن المسيح ﷺ، بعد أن قضى على الدجال، خبر قبائل يأجوج ومأجوج، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بينما هو[٣] كذلك، إذ أوحى الله عزّ وجل إليه أني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم، بل هم عاجزون عن دفعهم وطردهم، فحرّز عبادي إلى الطور، ضمّهم فيه واجعله لهم حرزاً، ويبعث الله عزّ وجل يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذا مرة ماء، ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الجمز[٤]، وهو جبل ببيت المقدس، فيقولون: لقد قتلنا من في الأرض هلمّ فلنقتل من في السماء فيرمون بنشابهم إلى السماء فيردّ الله عليهم نشّابهم وهو مخضوب دماً ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه، حتى يكون رأس الثور[٥] لأحدهم خير من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه فيرسل الله عليهم النغف[٦] في رقابهم فيصبحون فرسى[٧]، كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم[٨]، فيرغب نبي الله وأصحابه إلى الله عزّ وجل، فيرسل إليهم طيراً كأعناق البخت[٩]،

(١) السخاوي (أبو الخير محمد بن عبد الرحمٰن بن محمد شمس الدين السخاوي، توفي ٩٠٢هـ)، أشراط الساعة، تحقيق مجدي السيد إبراهيم، ص٢١، مكتبة القرآن، بولاق، القاهرة، لا.ت.

(٢) السخاوي، المرجع السابق، ص٢٢.

(٣) أي: نبي الله عيسى المسيح ﷺ.

(٤) الجمز: الشجر الملتف.

(٥) الثور: الحيوان المعروف ـ والثور أيضاً: القطعة من الأقط وهو اللبن الجامد.

(٦) النغف: مفردها نغفة، وهو دود يخرج من أنوف الإبل والغنم.

(٧) فرسى: (بفاء وسين مهملة، مفتوحتين)، أي قتلى الواحد فرس، ويقال فَرَسَ الذئب الشاة، وافترسها: أي قتلها.

(٨) أي: أن الأرض تنتن من جيفهم ورائحتهم الكريهة.

(٩) كأعناق البخت، وهي الجمال الطويلة الأعناق.

فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطراً فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة[١] لصفائها ونظافتها، ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمّانة، ويستظلُّون بقحفها. . . وبينما هم كذلك إذ يبعث الله ريحاً طيبة، فتأخذهم تحت إبطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس، يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة»[٢].

في زواج عيسى ووفاته:

عن جابر رضي الله عنه أن المسيح ﷺ يتزوج بعد عودته إلى الأرض، ويولد له الولد، ثم يموت بالمدينة المنورة؛ ولعل موته عند حجه وزيارته النبي محمد ﷺ، وإلا فهو إنما يكون ببيت المقدس[٣].

«وأخرج البخاري في تاريخه والطبراني وابن عساكر عنه، قال: يُدفن عيسى ابن مريم مع رسول الله ﷺ وصاحبيه، فيكون قبراً رابعاً»[٤].

وبهذا تنتهي سيرة المسيح عليه السلام العطرة في الأرض. ثم يُبعث يوم القيامة مع المبعوثين وأجارنا الله وإياه يوم الفزع الأكبر. راجين بالله الأمان برحمته، وهو أرحم الراحمين.

---

(١) كالزلفة: أي كالمرآة.

(٢) السخاوي، المرجع السابق، ص٣٨ ـ ٣٩ نقلاً عن مسلم (١٨/٦٨ ـ ٦٩)، الترمذي (٢٣٤١) بنحوه، وابن ماجة (٤٠٧٥).

(٣) يوسف بن إسماعيل النبهاني، علامات قيام الساعة الصغرى والكبرى، بعناية بسام عبد الوهاب الجابي، ص١١٦.

(٤) يوسف بن إسماعيل النبهاني، المرجع السابق، ص١١٧.

الفصل العاشر

ملحق علامات الساعة

علامات الساعة

عن حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال: اطلع النبي محمد ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: «ما تذاكرون؟» قالوا: نذكر الساعة، قال: «إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات: فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم»[(١)].

الأمارات العشر:

إن علامات الساعة لا يعلم تتابعها إلا الله سبحانه وتعالى، غير أنها تكون متتابعة في بعضها، كما ورد في الأحاديث الشريفة، كقتل المسيح عليه السلام للدجال ثم دعاؤه عليه السلام على قبائل يأجوج ومأجوج. لذلك كانوا متزامنين وكذلك هناك خروج الدابة قبل طلوع الشمس من مغربها لاقترانها بإقفال باب التوبة.

ومن هذه العلامات:

الدخان:

قال تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [الدخان: ١٠].

جاء في كتاب فتح القدير تهذيب ابن كثير، ج٥، ص٤٠١ حول تفسير هذه الآية (روى سليمان بن مهران الأعمش، عن أبي الضحى: مسلم بن صبيح، عن مسروق قال: دخلنا المسجد، يعني مسجد الكوفة عند أبواب كندة، فإذا رجل يقص على أصحابه ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ تدرون ما ذلك الدخان؟

---

(١) ذكره مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة ٤/ ٢٢٢٥ ـ ٢٢٢٦، كما أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه.

ذلك دخان يأتي يوم القيامة فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، يأخذ المؤمنين منه شبه الزكام، قال: فأتينا ابن مسعود رضي الله عنه فذكرنا ذلك له، وكان مضطجعاً ففزع فقعد وقال: «إن الله عزّ وجل قال لنبيكم ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [ص: ٨٦]، إن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم. سأحدثكم عن ذلك، إن قريشاً لما أبطأت عن الإسلام، واستعصت على رسول الله ﷺ، دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان.

وفي رواية: فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، قال الله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الدخان: ١٠، ١١]. فأتي رسول الله ﷺ فقيل له: يا رسول الله استسقِ الله لمضر فإنها قد هلكت، فاستسقى ﷺ فسقوا فنزلت: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الدخان: ١٥]).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «أفيكشف عنهم العذاب يوم القيامة؟! فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله عزّ وجل: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الدخان: ١٦] قال: يعني يوم بدر»، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «فقد مضى خمسة: الدخان، والروم، والقمر، والبطشة، واللزام»، وهذا الحديث مخرج في الصحيحين، ورواه الإمام أحمد في مسنده، وهو عند الترمذي والنسائي في تفسيريهما(١).

وقال آخرون: لم يمضِ الدخان بعد، بل هو من أمارات الساعة كما تقدم من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه.

وعنه رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، عندما ذكر أشراط الساعة وهلاك يأجوج ومأجوج وعودة المسيح عليه الصلاة والسلام إلى بيت المقدس. عندئذ يظهر الدخان.

قال حذيفة: قلت، يا رسول الله: وما آية الدخان؟

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، م٥، ص٣٢١٢.

قال: «تسمع له ثلاث صيحات، ودخان يملأ بين المشرق والمغرب، فأما المؤمن فتصيبه زكمة، وأما الكافر فيصيبه مثل السكران، يدخل في منخره وأذنه وفيه ودبره، وخسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وخروج الدابة».

وذكر قصتها، وقصة طلوع الشمس من مغربها، وقال: «ثم يبعث الله عزّ وجل من قبل مكة ريحاً ساكنة تقبض روح ابن مريم، وأرواح المؤمنين معه، وتبقى سائر الخلق، لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً، فيمكثون ما شاء الله، فتقوم عليهم الساعة، وهم شرار الخلق»(١).

الدجّال:

عن رسول الله ﷺ أنه قال: «وإن قبل خروج الدجال ثلاث سنوات شداد، يصيب الناس فيها جوع شديد، يأمر الله تعالى السماء السنة الأولى أن تحبس ثلث مطرها، ويأمر الأرض فتحبس ثلث نباتها، ثم يأمر الله تعالى السماء في الثانية فتحبس ثلثي مطرها، ويأمر الأرض فتحبس ثلثي نباتها، ثم يأمر الله تعالى السماء في السنة الثالثة فتحبس مطرها كله فلا تقطر قطرة، ويأمر الأرض أن تحبس نباتها كله فلا تنبت خضراء، فلا تبقى ذات ظلف إلا هلكت إلا ما شاء الله»(٢).

أوصاف الدجال:

قال سيدنا محمد ﷺ في أوصاف الدجال: «يا عباد الله فاثبتوا، فإني سأصفه لكم صفة لم يصفها إياه نبي قبلي، وإنه يبدأ فيقول: أنا نبي ولا نبي بعدي. ثم يثنّي، فيقول: أنا ربكم. ولا ترون ربكم حتى تموتوا. وإنه أعور(٣)؛ وربكم ليس بأعور؛ وإنه مكتوب بين عينيه كافر؛ يقرؤه كل مؤمن كاتب أو غير كاتب ـ أي: حروفاً مهجاة هكذا: ك ف ر، كما صرّح به في بعض الروايات ـ وفِتَنُهُ كثيرة، منها: أن معه جنّة وناراً، فناره جنّة وجنته نار، فمن ابتُلي بناره، فليستغث بالله وليقرأ فواتح الكهف، فتكون عليه برداً وسلاماً كما كانت النار على إبراهيم.

---

(١) يوسف بن عبد العزيز السلمي، عقد الدرر في أخبار المنتظر، تحقيق د. عبد الفتاح محمد الحلو، ص٣٤٠ ـ ٣٤١، عالم الفكر، ط١، القاهرة، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

(٢) يوسف بن عبد العزيز السلمي، المرجع السابق، ص٢٧٣.

(٣) وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الدجال أعور العين اليسرى، جفال الشعر معه جنته وناره فناره جنة وجنته نار». رواه مسلم. ولمزيد من التفصيل عن حياة الدجال انظر محمد صديق حسن القنوجي، المرجع السابق، ص١٥٤ وما بعدها.

ومنها أن تطوى له الأرض منهلاً منهلاً طيّ فروة الكبش، وأنه يسيح الأرض كلها في أربعين يوماً، وما من بلد إلا وسيطؤها إلا مكة والمدينة(١)، وسرعته في السير كالغيث استدبرته الريح، وإن له ثلاث صيحات يسمعها أهل المشرق وأهل المغرب، ويتناول الطير من الجو ويشويه في الشمس شياً. وإنه يخوض في البحر في اليوم ثلاث خوضات، لا يبلغ حقويه، وإحدى يديه أطول من الأخرى، فيمد الطويلة في البحر، فتبلغ قعره، فيخرج من الحيتان ما يريد(٢).

وإنه يخرج في خفة من الدين وإدبار من العلم، فلا يبقى أحد يحاجه في أكثر الأرض، ويذهل الناس(٣) عن ذكره.

وإنه يأتي، فيقول لأعرابي: أرأيت إن بعثت لك أباك وبعثت لك أمك؟ أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم، فيتمثل له شيطان على صورة أبيه، وآخر على صورة أمه، فيقولان له: يا بنيّ! اتبعه، فإنه ربّك، فيتّبعه»(٤).

وعن رسول الله ﷺ قال: «غير الدجال أخوفني عليكم، إن يخرج، وأنا فيكم، فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج، ولست فيكم، فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب قطط، عينه طافية، كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارج من خلة بين الشام والعراق، فعاث يميناً وعاث شمالاً، يا عباد الله فاثبتوا».

قلنا: يا رسول الله، وما لبثه في الأرض؟

---

(١) عندما يقترب الدجال من المدينة المنورة مدينة الرسول ﷺ لا يتمكن من اقتحامها وترجف ثلاث رجفات. وفي ذلك ذكر أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يجيء الدجال حتى ينزل في ناحية المدينة، ثم ترجف المدينة ثلاث رجفات فيخرج إليه كل كافر ومنافق». صحيح البخاري بحاشية السندي للعلامة أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، م٤، ص٢٣١، دار المعرفة، ط١، بيروت، أعيد طبعه بالأوفست، ١٩٧٨م.

(٢) لعل الله يمده بالشياطين يأتونه بما في البحر.

(٣) ذكر البغوي أن المراد بالناس في قوله سبحانه: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧] أي: خلق الله تبارك وتعالى أكبر وأعظم من خلق الدجال وأمثاله ممن يدعون الخلق.

(٤) يوسف بن إسماعيل النبهاني، المرجع السابق، ص١٠٤ ـ ١٠٦.

قال: «أربعون يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم»[١].

قلنا: يا رسول الله، فذلك الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟

قال: «لا، اقدروا له قدره».

قلنا: يا رسول الله، وما إسراعه في الأرض؟

قال: «كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به، ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم، أطول ما كانت دراً. وأسمنه ضروعاً، وأحدّه خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم، فيردون عليه قوله، فيصبحون ممحلين، ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة، فيقول لها: أخرجي كنوزك. فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين، رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه ويضحك. فبينما هو كذلك، إذ بعث الله تعالى المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء، شرقي دمشق، بين مهرودتين[٢]، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدّر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي بصره، فيطلبه حتى يدركه بباب لد، فيقتله، ثم يأتي عيسى عليه السلام قوم قد عصمهم الله عزّ وجل، فيمسح عن وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة..»[٣].

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنه لم تكن فتنة في الأرض، منذ ذرأ الله تعالى ذرية آدم عليه السلام، أعظم من فتنة الدجال، وإن الله تعالى لم يبعث نبياً إلا حذّر أمته الدجال، وأنا آخر الأنبياء، وأنتم آخر الأمم، وهو خارج فيكم لا محالة، فإن يخرج

---

(١) ومن أشراط الساعة أيضاً أن تكون بين يدي الساعة سنوات خداعات يصدق فيها الكذاب ويكذب الصادق، ومنها تقارب الزمان حتى تكون السنة كالشهر والشهر كالجمعة والجمعة كاليوم واليوم كالساعة والساعة كالضربة بالنار، ومنها إخراج كنوزها وكأن هذا الزمان يقع في زمن كل من المهدي وعيسى والدجال فيخرج لكل منهم شيء منها لكنه في زمنهما رحمة وفي زمن الأعور الدجال بلاء وامتحان، ومنها خروج الشياطين وإتيانهم بالأخبار الكاذبة يعاونون الأعور الدجال لإضلال الناس. انظر محمد بن رسول الحسيني البرزنجي، الإشاعة لأشراط الساعة، ص١٤٢ ـ ١٤٣، الطبعة الأخيرة، مكتبة مطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، لا.ت.

(٢) مهرودتين: أي مصبوغتين بالهرد وهو الزعفران.

(٣) صحيح مسلم، باب ذكر الدجال من كتاب الفتن وأشراط الساعة ٤/ ٢٢٥٠ ـ ٢٢٥٣. وانظر يوسف بن عبد العزيز السلمي، المرجع السابق، ص٢٥٩.

وأنا بين ظهرانيكم فأنا حجيجه، وإن يخرج بعدي فكل حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، وإنه يخرج من خلة بين الشام والعراق، فيعيث يميناً، ويعيث شمالاً، يا عباد الله أيها الناس فاثبتوا، فإني سأصفه لكم صفة لم يصفها إياه نبي قبلي، وإنه يبدأ فيقول: أنا نبي. لا نبي بعدي، ثم يثني فيقول: أنا ربكم. ولا ترون ربكم حتى تموتوا، وإنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، وإنه مكتوب بين عينيه كافر، يقرأه كل مؤمن، كاتب، وغير كاتب، وإن من فتنته أن معه جنّة وناراً، فناره جنة، وجنته نار، فمن ابتلي بناره فليستغث بالله، وليقرأ فواتح الكهف، فتكون عليه برداً وسلاماً، كما كانت النار على إبراهيم، وإن من فتنته يقول لأعرابي: أرأيت إن أبعث لك أباك وأمك، أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم.

فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه، فيقولان: يا بني اتبعه، فإنه ربك.

وإن من فتنته أن يسلط على نفس واحدة فيقتلها، وينشرها بالمنشار حتى تلقى شقين، ثم يقول: انظروا إلى عبدي هذا، فإني أبعثه الآن، ثم يزعم أن له ربًّا غيري.

فيبعثه الله تعالى، فيقول له الخبيث: من ربّك؟

فيقول: ربي الله، وأنت عدوّ الله، أنت الدجال[١]، والله ما كنت بعد أشدّ بصيرة بك مني اليوم»[٢].

---

(١) عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال، فيتوجه قبلة رجل من المؤمنين، فتلقاه المسالح، مسالح الدجال، فيقولون له: أين تعمد؟ فيقول: أعمد إلى هذا الرجل الذي خرج. قال: فيقولون له: أوَما تؤمن بربّنا؟ فيقول: ما بربّنا خفاء. فيقولون: اقتلوه. فيقول بعضهم لبعض: أليس قد نهاكم ربّكم أن تقتلوا أحداً دونه؟ قال: فينطلقون به إلى الدجال، فإذا رآه المؤمن قال: يا أيها الناس، هذا الدجال الذي ذكر رسول الله ﷺ. قال: فيأمر الدجال به فيشج. فيقول: خذوه وشجوه. فيوجع ظهره وبطنه ضرباً. قال: فيقول: أوَما تؤمن بي؟ قال: فيقول: أنت المسيح الكذاب. قال: فيؤمر به، فينشر بالمنشار من مفرقه حتى يفرق بين رجليه. قال: ثم يمشي الدجال بين القطعتين، ثم يقول له: قم. فيستوي قائماً. ثم يقول له: أتؤمن بي. فيقول: ما ازددت فيك إلا بصيرة. قال: ثم يقول: يا أيها الناس، إنه لا يفعل هذا بعدي بأحد. قال: فيأخذه الدجال ليذبحه، فيجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاس، فلا يستطيع إليه سبيلاً. قال: فيأخذ بيديه ورجليه، فيقذف به، فيحسب الناس إنما قذفه إلى النار، وإنما ألقي في الجنة».
فقال رسول الله ﷺ: «هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين» صحيح مسلم، باب ذكر الدجال، من كتاب الفتن وأشراط الساعة (٤/ ٢٢٥٤ ـ ٢٢٥٧) وانظر نحو هذا في صحيح البخاري، م٤، ص٢٣٢. وانظر يوسف بن عبد العزيز السلمي، المرجع السابق، ص٢٦١ ـ ٢٦٢.

(٢) يوسف بن عبد العزيز السلمي، المرجع السابق، ص٢٦٧ ـ ٢٦٨.

يأجوج ومأجوج:

جاء خبر قبائل يأجوج ومأجوج في القرآن الكريم مقروناً بخبر عن ذي القرنين[1] بقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ[2] مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾

---

(١) في حديث عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان ذو القرنين ملكاً صالحاً رضي الله عمله وأثنى عليه في كتابه وكان منصوراً وكان الخضر وزيره. وذكر أن الخضر عليه السلام كان على مقدمة جيشه وكان عنده بمنزلة المشاور الذي هو من الملك بمنزلة الوزير في إصلاح الناس اليوم. وقد ذكر الأزرقي وغيره أن ذا القرنين أسلم على يدي إبراهيم الخليل وطاف معه بالكعبة المكرمة هو وإسماعيل عليه السلام».

(٢) قيل في تسمية يأجوج ومأجوج أنهما قبيلتان من ولد «يافث بن نوح عليه السلام وبه جزم وهب بن منبّه وغيره واعتمده كثير من المتأخرين. وقال الكسائي في العرائس: إن يافث سار إلى المشرق فولد له هناك خمسة أولاد: جومر، وبندش، وأشار، وأسقويل، ومياشح. فمن جومر جميع الصقالبة والروم وأجناسهم. ومن مياشح جميع أصناف العجم. ومن أشار يأجوج ومأجوج وأجناسهم. ومن أسقويل جميع الترك. ومن بنرش القفجق واليونان. وقيل: كلاهما من الترك وروي ذلك عن الضحاك، وفي كلام بعضهم أن الترك منهم لما أخرجه ابن جرير. وابن مردويه من طريق السدي من أثر قوي: الترك سرية من سرايا يأجوج ومأجوج خرجت فجاء ذو القرنين فبنى السد فبقوا خارجين عنه، وفي رواية عبد الرزاق عن قتادة أن يأجوج ومأجوج اثنتان وعشرون قبيلة، بنى ذو القرنين السد على إحدى وعشرين وكانت واحدة منهم خارجة للغزو فبقيت خارجة وسميت الترك لذلك». الألوسي، روح المعاني، ج١٦، ص٣٨.

هذا، وقد ذكر الألوسي عدة احتمالات في تسمية يأجوج ومأجوج ومما ذكره: (وهو إما من الأجه وهو الاختلاف كما قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ﴾ أو من الأج وهو سرعة العدو. قال تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ أو من الأجه وهي شدة الحر أو من أج الماء يأج أجوجاً إذا كان ملحاً مرًا). الألوسي، المرجع السابق، ج١٦، ص٣٨ ـ ٣٩ وفي أصل يأجوج ومأجوج انظر السخاوي، المرجع السابق، ص٣٦. وانظر في أصل تسميتهم محمد بن رسول الحسيني، المرجع السابق، ص١٥٦.

هذا، وقد «سمّى أصحاب التاريخ يأجوج ومأجوج أربعين أمة مختلفي الخلق والقدود، في كل=

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ [الكهف: ٨٣ ـ ٩٩].

وقال تعالى في سورة الأنبياء الآية ٩٦: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

أما معنى هذه الآيات البينات فهو أن الله تبارك وتعالى يخبر نبيه محمد ﷺ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ ـ يا محمد ـ ﴿عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ أي: عن خبره، وذو القرنين هذا المعنيّ في هذه الآيات لم يكن من الروم إنما الذي كان من الروم هو الإسكندر المقدوني ابن فيليبس المقدوني الذي اجتاح الشرق عام ٣٣٣ق.م.

أما ذو القرنين المعني في القرآن الكريم فقد عاش زمن إبراهيم الخليل.

وقال بعض أهل الكتاب: وإنما سمي «ذا القرنين»، لأنه ملك بلاد الروم وفارس، وعن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه قال: إنه إنما سمي «ذا القرنين» لأنه بلغ المشارق والمغارب، من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب[(١)].

وقوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أعطيناه ملكاً عظيماً، ممكناً فيه من جميع ما يؤتى الملوك، من التمكين والجنود وآلات الحرب، ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له البلاد وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم من العرب والعجم[(٢)].

= أمة منها ملك ولهم زي ولغة، فمنهم من طوله الشبر والشبران وأطول من ذلك، ومنهم المشوهون، ومنهم من يفترش إحدى أذنيه ويتغطى بالأخرى، ومنهم من له ذنب وقرن وأنياب بارزة، ومنهم من مشيه وثب ويأكلون الحيتان والناس والخشخاش والطير كله.. والحدأة، وبعضهم يغير على بعض. ومنهم من لا يتكلم إلا همهمة، وفيهم شدة وبأس، وأكثر طعامهم الصيد، وكانوا يغيرون على الأمم التي تليهم ويخربون بلدانهم، حتى عمل ذو القرنين السد وهم يستفتحونه آخر الزمان كما قال الله عزّ وجل.
وربما أكل بعضهم بعضاً، والزلازل عندهم كثيرة، وذكر أن عندهم أمم تعرف المناسك.
المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، ت٣٤٦هـ)، أخبار الزمان ومن أباده الحدثان، وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران، ص٩١، ط٢، دار الأندلس، بيروت، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م.

(١) ابن كثير، فتح القدير تهذيب ابن كثير، ج٤، ص٤٦.
(٢) ابن كثير، فتح القدير تهذيب ابن كثير، ج٤، ص٤٦.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم: يعني علماً، وعن عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم قال: تعليم الألسنة، قال: «كان لا يغزو قوماً إلا كلّمهم بلسانهم»[(١)].

وقوله: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٥﴾ أي: طريقاً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ يعني من الأرض انتهى إلى حيث لا يمكن أحداً أن يجاوزه ووقف على حافة البحر المحيط الغربي الذي يقال له أوقيانوس الذي فيه الجزائر المسماة بالخالدات التي هي مبدأ الأطوال على أحد أقوال أرباب[(٢)] الهيئة[(٣)].

﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي: في نظره ولم يقل فإذا هي تغرب في عين حمئة أي: ذات حمأة. وقيل: من الحرارة وذلك من شدة المقابلة لوهج ضوء الشمس وشعاعها[(٤)].

أما قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۝٨٦ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨٧﴾ أي: فيجتمع عليه عذاب الدنيا والآخرة وبدأ بعذاب الدنيا لأنه أزجر عند الكافر. ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۝٨٨﴾ فبدأ بالأهم وهو ثواب الآخرة وعطف عليه الإحسان منه إليه وهذا هو العدل والعلم والإيمان. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٩﴾ أي: سلك طريقاً راجعاً من المغرب إلى المشرق، فيقال: إنه رجع في اثنتي عشرة سنة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۝٩٠﴾ أي: ليس لهم بيوت ولا أكنان يستترون بها من حر الشمس. قال كثير من العلماء: ولكن كانوا يأوون إذا اشتد عليهم الحر إلى أسراب قد اتخذوها في الأرض شبه القبور. قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۝٩١﴾ أي: ونحن نعلم ما هو عليه ونحفظه.. بحراستنا في مسيره ذلك كله من مغارب الأرض إلى مشارقها.

وقد روي عن عبيد الله بن عمير وابنه عبد الله وغيرهما من السلف أن ذا القرنين حجّ ماشياً فلما سمع إبراهيم الخليل بقدومه تلقّاه، فلما اجتمعا دعا له الخليل ووصّاه بوصايا. ويقال: إنه جيء بفرس ليركبها فقال: لا أركب في بلد فيه الخليل فسخّر الله

---

(١) ابن كثير، فتح القدير تهذيب ابن كثير، ج٤، ص٤٧.
(٢) أرباب الهيئة: علماء الجغرافية.
(٣) ابن كثير، المرجع السابق، ج٢، ص١٠٧.
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص١٠٨.

له السحاب وبشّره إبراهيم بذلك فكانت تحمله إذا أراد. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾ يعني: غشماً. يقال: إنهم هم الترك أبناء عم يأجوج ومأجوج فذكروا له هاتين القبيلتين قد تعدُّوا عليهم وأفسدوا في بلادهم وقطعوا السبل عليهم وبذلوا له حملاً وهو الخراج على أن يقيم بينهم وبينهم حاجزاً يمنعهم من الوصول إليهم. فامتنع من أخذ الخراج اكتفاء بما أعطاه الله من الأموال الجزيلة، ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾، ثم طلب منهم أن يجمعوا له رجالاً وآلات ليبني بينهم وبينهم سداً وهو الردم بين الجبلين وكانوا لا يستطيعون الخروج إليهم إلا من بينهما وبقية ذلك بحار مغرقة وحبال شاهقة فبناه كما قال تعالى من الحديد والقطر[1] وهو النحاس المذاب. وقيل: الرصاص. والصحيح الأول فجعل بدل اللَّبِن حديداً وبدل الطين نحاساً ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي: يعلوا عليه بسلالم ولا غيرها، ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ أي: بمعاول ولا فؤوس ولا غيرها فقابل الأسهل بالأسهل والأشد بالأشد[2][3].

أما قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ [الكهف: ٩٨].

قال ذو القرنين: ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى السد الذي أقامه بمعاونة الناس ﴿رَحْمَةٌ﴾ أي أثر رحمة عظيمة ﴿مِّن رَّبِّى﴾ على كافة العباد لا سيما على مجاوريه وكون السد رحمة

(١) القطر: هو النحاس المذاب، وهو قول الأكثرين، وقيل: الرصاص المذاب، وقيل الحديد المذاب ـ وربما يستبعد النحاس والله أعلم لأن زمن يأجوج ومأجوج قبل زمن النبي سليمان عليه السلام.

وفي هذا أن النحاس قد خص به هذا النبي الكريم بادىء ذي بدء، إذ يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ والمعني هو النحاس. والله تعالى أعلم.

(٢) هذه الآية ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ هي: من الإعجاز اللفظي في القرآن الكريم، لأن كلمة ﴿ٱسْطَٰعُوٓا۟﴾ و﴿ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ وردت في نفس الآية، والكلمتان تعطيان نفس المعنى. إذن لماذا هذا الاختلاف في الترتيب اللفظي؟!

هذا ما تظهره الآية، إذ أن ابتداءها بقوله جلّ وعلا: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي: أن يتسلقوا جدار السد، لأن من يريد التسلق يجب أن يكون من أصحاب الأوزان الخفيفة، لأن خفية الحركة تتطلب خفية في الوزن. فهنا رافق اللفظ المعنى بحذف حرف التاء من الكلمة فوردت ﴿ٱسْطَٰعُوٓا۟﴾.

ثم قال جلّ شأنه: ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ فعملية نقب جدار السد تتطلب جهداً كبيراً من القوة والمعدات. فهذا الجهد كان له مرافقة في اللفظ من حيث الاستطاعة، حيث وضع حرف التاء في الآية ﴿ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ لإظهار القوة البيانية في الإظهار اللفظي في القرآن المجيد.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص١٠٨.

على العباد ظاهر ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي﴾ أي: وقت وعده تعالى في وقت خروج يأجوج ومأجوج[١] وذلك بعد خروج الدجال ونزول عيسى ﷺ من السماء وقتله الدجال، ﴿جَعَلَهُۥ﴾ ربي ﴿دَكَّآءَ﴾ أي: يوحي الله سبحانه وتعالى إلى عيسى عليه السلام أنه قد حان وقت خروج يأجوج ومأجوج فَيُنْسَف السد[٢] وتخرج تلك الأقوام لتفسد في الأرض وذلك من علامات قيام الساعة.

«وفي كتاب حزقيال عليه السلام الإخبار بمجيئهم في آخر الزمان من آخر الجربياء في أمم كثيرة لا يحصيها إلا الله تعالى وإفسادهم في الأرض وقصدهم بيت المقدس وهلاكهم عن آخرهم في بريته بأنواع من العذاب وهو عليه السلام قبل إسكندر غالب دارا[٣]

---

(١) الألوسي، روح المعاني، ج١٦، ص٤٢.

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ حول سد يأجوج ومأجوج أنه قال: «يحفرونه كل يوم، حتى إذا كادوا يخرقونه، قال الذي عليه: ارجعوا، فسيخرقونه غداً».
قال: «فيعيده الله عزّ وجل كأشد ما كان، حتى إذا بلغوا مدتهم، وأراد الله تعالى قال الذي عليهم: ارجعوا فستخرقونه غداً إن شاء الله ـ إشارة إلى أنهم يؤمنون بالله وقد يكونون مشركين ـ واستثنى.
قال: فيرجعون وهو كهيئته حين تركوه، فيخرقونه، ويخرجون على الناس، فيستقون المياه، ويفر الناس منهم، فيرمون سهامهم في السماء، فترجع مخضبة بالدماء، فيقولون: قهرنا أهل الأرض، وغلبنا من في السماء، قسوة وعلواً.
قال: فيبعث الله عليهم نغفاً في أقفائهم، فيهلكهم». لمزيد من التفصيل انظر يوسف بن عبد العزيز السلمي، المرجع السابق، ص٣٠٤ ـ ٣٠٥.
وقد سأل حذيفة رسول الله ﷺ عن وصف يأجوج ومأجوج.
قال: قلت: يا رسول الله، صف لنا يأجوج ومأجوج.
قال: «هم ثلاثة أصناف، صنف منهم أمثال الأرزِ الطوال، وصنف منهم آخر عرضه وطوله سواء، عشرون ومائة ذراع في مائة وعشرين ذراع، وهم الذين لا يقوم لهم الحديد. وصنف يفترش إحدى أذنيه، ويلتحف بالأخرى».
قال حذيفة: قال رسول الله ﷺ: «يكون جمع منهم بالشام، وساقهم بخراسان، فيشربون أنهار المشرق حتى تيبس، فيحلون بيت المقدس، وعيسى والمسلمون بالطور، فيبعث عيسى عليه السلام طليعة، فيشرفون على بيت المقدس، فيرجعون إليه، فيخبرونه أنه ليس ترى الأرض من كثرتهم».
قال: ثم إن عيسى عليه السلام يرفع يديه إلى السماء، فيرفع المؤمنون معه، فيدعو الله عزّ وجل، ويؤمّن المؤمنون، فيبعث الله تعالى عليهم دوداً يقال له: النغف، فيدخل في مناخرهم، حتى يدخل في الدماغ، فيصبحون أمواتاً».
قال: فيبعث الله عزّ وجل عليهم مطراً وإبلاً أربعين صباحاً، فيغرقهم في البحر، ويرجع عيسى عليه السلام إلى بيت المقدس، والمؤمنون معه». يوسف بن عبد العزيز السلمي، المرجع السابق، ص٣٠٧ وذكر المرجع قوله: «أخرجه الإمام أبو عمر وعثمان بن سعيد المقري في سننه».

(٣) إسكندر غالب دارا: أي الإسكندر المقدوني غالب دارا الكبير الفارسي.

فإذا كان هو ذا القرنين فيمكن أن يكون وقف على ذلك فأفاده علماً بما ذكر والله تعالى أعلم»[١].

ثم قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ [الكهف: ٩٨، ٩٩].

﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ أي: وعده سبحانه المعهود ﴿حَقًّا﴾ ثابتاً لا محالة واقعاً البتة ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ﴾ كلام مسبوق من جنابه سبحانه وتعالى ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: إذا جاء الوعد.. ﴿يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أي: يضطربون اضطراب البحر.

وقيل: «الضمير للناس والمراد وجعلنا بعض الناس يوم إذ جاء الوعد بخروج يأجوج ومأجوج يموج في بعض آخر لفزعهم منهم وفرارهم وفيه بعد؛ وقيل: الضمير للناس أيضاً، والمراد: وجعلنا بعض الناس يوم إذ تم هدم السد يموج في بعضهم للنظر إليه والتعجب منه ولا يخفى أن هذا يتعجب منه»[٢].

وقال تعالى في هذا المعنى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٦، ٩٧].

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ أي أنهم من علامات القيامة الكبرى إذ أن الناس في إعراض عن دين التوحيد الخالص لله»، وحاصله أنهم لا يزالون مختلفين غير مجتمعين على دين الحق إلى قرب مجيء الساعة فإذا جاءت الساعة انقطع ذلك الاختلاف وعلم الجميع أن مولاهم الحق وأن الدين المنجّي كان دين التوحيد، ونسبة الفتح إلى يأجوج ومأجوج مجاز وهي حقيقة إلى السد[٣]»[٤].

---

(١) الألوسي، المرجع السابق، ج١٦، ص٤٣.

(٢) الألوسي، المرجع نفسه، ص٤٣.

(٣) ورد ذكر السد في حديث مروي عن أم حبيبة عن زينب بنت جحش قالت: استيقظ رسول الله ﷺ من نوم محمراً وجهه وهو يقول: لا إله إلا الله يرددها ثلاث مرات، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وعقد عشراً ـ حركة بالأصابع تشير إلى العدد ـ قالت زينب: يا رسول الله أفنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث».

وعن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلاً قال: «يا رسول الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج قال: انعته لي. قال: كالبرد المحبّر طريقه سوداء وطريقه حمراء قال قد رأيته» ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص١١١.

هذا، «وقد ذكر أن الخليفة الواثق بعث رسلاً من جهته وكتب لهم كتباً إلى الملوك يوصلونهم=

دابة الأرض:

من علامات القيامة الكبرى خروج دابة الأرض.

وقد ورد ذكرها في القرآن العظيم بقوله جلّ وعلا: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [النمل: ٨٢].

قال عبد الله بن مسعود حول قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ بموت العلماء وذهاب العلم، ورفع القرآن. ونصح المسلمين بقوله: «أكثروا تلاوة القرآن قبل أن يُرفع، قالوا: هذه المصاحف تُرفع فكيف بما في صدور الرجال؟ قال: يسري عليه ليلاً فيصبحون منه قفراً، وينسون لا إله إلا الله، ويقعون في قول الجاهلية وأشعارهم، وذلك حين يقع القول عليهم»[(١)].

وتفسير ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً﴾ في (صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض».

واختلف في تعيين هذه الدابة وصفتها، ومن أين تخرج اختلافاً كثيراً، وأصح الأقوال أنه فصيل ناقة صالح لما ذكره داود الطيالسي في مسنده عن حذيفة، قال: ذكر رسول الله ﷺ الدابة فقال: «لها ثلاث خرجات من الدهر فتخرج في أقصى البادية، ولا يدخل ذكرها القرية - يعني مكة - ثم تكمن زماناً طويلاً، ثم تخرج خرجة أخرى دون ذلك فيفشو ذكرها في البادية، ويدخل ذكرها القرية» يعني مكة[(٢)].

= من بلاد إلى بلاد حتى ينتهوا إلى السد فيكشفوا عن خبره وينظروا كيف بناه ذو القرنين على أي صفة فلما رجعوا أخبروا عن صفته وأن فيه باباً عظيماً وعليه أقفال وأنه بناء محكم شاهق منيف جداً وأن بقية اللبن الحديد والآلات في برج هناك وذكروا أنه لا يزال هناك حرس لتلك الملوك المتاخمة لتلك البلاد ومحلته في شرقي الأرض في جهة الشمال في زاوية الأرض الشرقية الشمالية ويقال: إن بلادهم متسعة جداً وإنهم يقتاتون بأصناف من المعايش من حراثة وزراعة واصطياد من البر ومن البحر وهم أمم وخلق لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم». انظر الجامع الصحيح، ج٤، كتاب الفتن، باب ما جاء في خروج يأجوج ومأجوج، ص٤٨٠، رقم ٢١٨٧. وانظر صحيح البخاري، م٢، ص٢٣٣.

(٤) الألوسي، روح المعاني، ج١٧، ص٩٢.

(١) القرطبي، المرجع السابق، م٤، ص٢٩.

(٢) وانظر أيضاً محمد صديق حسن القنوجي، المرجع السابق، ص١٧٣.

قال رسول الله ﷺ: «ثم بينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة خيرها وأكرمها على الله المسجد الحرام لم يرعهم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام تنفض عن رأسها التراب، فارفضّ الناس منها شتى ودفعاً وتثبت عصابة من المؤمنين وعرفوا أنهم لن يعجزوا الله فبدأت بهم فجلّت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدري. وولت في الأرض لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب، حتى إن الرجل ليتعوّذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول: يا فلان، الآن تصلي فتُقبل عليه فتشمه في وجهه ثم تنطلق، ويشترك الناس في الأموال. ويصطلحون في الأمصار، يعرف المؤمن من الكافر، حتى إن المؤمن يقول: «يا كافر اقضِ حقي».

وموضع الدليل من هذا الحديث أنه الفصيل، قوله: «وهي ترغو» والرّغاء إنما هو للإبل، وذلك أن الفصيل لما قتلت الناقة هرب فانفتح له حجر فدخل في جوفه ثم انطبق عليه. فهو فيه حتى يخرج بإذن الله عزّ وجل. وروي أنها دابة زغباء، ذات قوائم طولها ستون ذراعاً[(١)]، ويقال: إنها الجاسّة، قال بعض المتأخرين من المفسرين: إن الأقرب أن تكون هذه الدابة إنساناً متكلماً يناظر أهل البدع والكفر ويجادلهم لينقطعوا، فيهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة. وعلى هذا فلا يكون في هذه الدابة آية خاصة خارقة للعادة، ولا يكون من العشر الآيات المذكورة في الحديث.

وروي في خبر عن النبي ﷺ: «إن الأرض تنشق عن الدابة وعيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون من ناحية المسعى، وإنها تخرج من الصفا فتسم بين عيني المؤمن: هو مؤمن سمة كأنها كوكب دري، وتسم بين عيني الكافر نكتة سوداء كافر».

﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ ببطلان الأديان سوى دين الإسلام ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: بخروجها، لأن خروجها من الآيات، وتقول: ألا لعنة الله على الظالمين. أو بالقرآن وبمحمد ﷺ، وذلك حين لا يقبل الله من كافر إيماناً، ولم يبقَ إلا مؤمنون وكافرون في علم الله قبل خروجها. والله أعلم»)[(٢)].

كذلك أخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها المسجد الحرام لم يرعهم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام، تنفض

---

(١) ذكر حذيفة نحو هذا باختلاف في اللفظ. انظر يوسف بن عبد العزيز السلمي، المرجع السابق، ص٣١٦.

(٢) القرطبي، المرجع السابق، م٤، ص٣٠.

عن رأسها التراب، فارفضّ الناس عنها شتى، ودفعاً، وتثبت عصابة من المؤمنين، وعرفوا أنهم لم يعجزوا الله، فبدأت بهم فجلت وجوههم حتى جعلتها، كأنها الكوكب الدري، وولت في الأرض لا يدركها طالب، ولا ينجو منها هارب، حتى إن الرجل ليعوّذ منها بالصلاة، فتأتيه من خلفه فتقول: يا فلان الآن تصلي، فيقبل عليها فتسمه في وجهه، ثم تنطلق ويشترك الناس في الأموال، ويصطحبون في الأمصار، يعرف المؤمن من الكافر، حتى إن المؤمن ليقول: يا كافر اقضني حقي، وحتى إن الكافر ليقول يا مؤمن اقضني حقي»[١].

وفي حديث آخر رواه أحمد عن رسول الله ﷺ قال: «تخرج دابة الأرض ومعها عصا موسى وخاتم سليمان فتحطّم أنف الكافر بالخاتم وتجلو وجه المؤمن بالعصا حتى إن أهل الحواء[٢] الواحد ليجتمعون فيقول هذا يا مؤمن ويقول هذا يا كافر»[٣].

وعن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه أنه وصف الدابة بأن لها ريشاً وزغباً وحافراً وما لها ذنب ولها لحية وقيل طولها ستون ذراعاً. وقيل: مختلفة الخلقة تشبه عدة من الحيوانات. وقيل: الأقرب أخذاً من قوله تعالى: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ أنها إنسان تناظر أهل البدع والكفر ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيا من حيّ عن بينة[٤].

طلوع الشمس من مغربها:

من علامات القيامة الكبرى طلوع الشمس من مغربها أشير إليها في آيتين في كتاب الله:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس: ٣٨].

حول هذه الآية الكريمة جاء في (البخاري عن أبي ذر قال: قال النبي ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس: «تدري أين تذهب؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال:

---

(١) السخاوي، أشراط الساعة، تحقيق مجدي السيد إبراهيم، ص٤٠. عن الحاكم (٤/ ٤٨٤) وصحيحه، وتعقبه الذهبي بقوله: طلحة ـ أحد الرواة للحديث ـ ضعفوه، وتركه أحمد. وأخرجه أبو داود الطيالسي (٢٧٨٩).

(٢) حواء: أي البيوت المجتمعة ويعني في أيامنا، معنى حي وجمعه أحياء.

(٣) السخاوي، المرجع السابق، ص٤١. عن أحمد (٢/ ٢٩٥، ٤٩١)، الترمذي (٣٤٠٣) في التفسير: سورة النمل، وابن ماجة (٤٠٦٦) في الفتن: باب دابة الأرض.

(٤) ابن حجر الهيتمي، القول المختصر في علامات المهدي المنتظر، ص٩٠ ـ ٩١.

«فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها يقال لها: ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها[١] فذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يٰس: ٣٨].

قال الحسن: إن للشمس في السنة ثلاثمائة وستين مطلعاً، تنزل في كل يوم مطلعاً، ثم لا تنزله إلى الحول، فهي تجري في تلك المنازل وهي مستقرها.

وقيل: إلى انتهاء أحدها عند انقضاء الدنيا. وقوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ أي: إلى مستقرها، والمستقر موضع القرار ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ﴾ أي: الذي ذكر من أمر الليل والنهار والشمس تقدير ﴿الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾)[٢].

الثانية: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وحول هذه الآية ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ قيل: هو طلوع الشمس من مغربها[٣]. بيّن بهذا أن الكافرين يمهَلون في الدنيا فإذا ظهرت الساعة فلا إمهال. (وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث إذا خرجن لا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد (٩/ ١٥٣) وانظر مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان (١/ ١٣٩) وانظر الجامع الصحيح، ج٤، كتاب الفتن، باب طلوع الشمس من مغربها ص٤٧٩ رقم ٢١٨٦.

وقد جاء في صحيح البخاري، بحاشية السندي للعلامة أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، م٤، دار المعرفة بيروت، أعيد طبعه بالأوفست سنة ١٩٧٨، أحاديث حول قيام الساعة منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان يكون بينهما مقتلة عظيمة دعوتهما واحدة وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يقبض العلم وتكثر الزلازل ويتقارب الزمان وتظهر الفتن ويكثر الهرج وهو القتل وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهم رب المال من يقبل صدقته، وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه لا أرب لي به، وحتى يتطاول الناس في البنيان، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتني مكانه، وحتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، ولتقومنّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومنّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومنّ الساعة وهو يليط - يطيّن - حوضه فلا يسقى فيه، ولتقومنّ الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها».

(٢) القرطبي، المرجع السابق، م٤، ص٢٠٩.

(٣) رواه أحمد في مسنده.

ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض».

وعن صفوان بن عسّال المرادي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن بالمغرب باباً مفتوحاً للتوبة مسيرة سبعين سنة لا يغلق حتى تطلع الشمس من نحوه»)[١].

وفي حديث عن رسول الله ﷺ قال: «ليأتينّ على الناس ليلة تعدل ثلاث ليال من لياليكم هذه، فإذا كان ذلك يعرفها المتنقلون، فإن أحدهم يقوم فيقرأ جزءه، ثم ينام، ثم يقوم، فيقرأ جزءه، ثم ينام، فبينما هم كذلك إذ صاح الناس بعضهم في بعض، فقالوا: ما هذا؟ فيفزعون إلى المساجد، فإذا هم بالشمس قد طلعت من المغرب، حتى إذا صارت في وسط السماء، رجعت وطلعت من مطلعها»[٢].

عند ذلك لا ينفع نفساً إيمانها إلا أن تكون قد آمنت قبل طلوع الشمس من مغربها.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: استثناء من كان صغيراً يومئذ فإنه لو أسلم بعده قبل منه وكذا من كان مؤمناً مذنباً، وتاب من الذنب فإنه يقبل منه[٣].

وفي هذا، ذكر عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه».

وهناك أيضاً من علامات الساعة الخسوف الثلاثة: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف في جزيرة العرب، وآخر هذه العلامات نار تخرج من قعر عدن تلحق بالنار إلى أرض المحشر.

أما تراتبية هذه الأحداث فمردها إلى الله تبارك وتعالى، فهو عالم الغيب والشهادة وإليه يعود الأمر كله، وبه التوفيق.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه الدارقطني، والدارمي، والترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح. القرطبي، المرجع السابق، م٢، ص١٦٢.

(٢) السخاوي، المرجع السابق، ص٤٤.

(٣) السخاوي، المرجع نفسه، ص٤٤.

الخاتمة

مما سبق بحثه في هذه الدراسة تظهر بعض النتائج على الشكل التالي:

١ ـ إن ميلاد المسيح عليه السلام رافقه بعض الأشياء المعجِزة التي لم تذكر في الأناجيل كنطقه في المهد لإظهار براءة أمه الصدِّيقة.

٢ ـ معجزات المسيح عليه السلام مشتركة بينه وبين غيره من الأنبياء مما يجعله عبد الله ورسوله.

٣ ـ اختلاف نهاية المسيح عليه السلام على الأرض بين المسلمين والنصارى وحجة كل من الفريقين على ذلك.

٤ ـ نقد وتفنيد بعض النقاط التي تبحث في شأن المسيح عليه السلام في الأناجيل ومن خلالها.

٥ ـ عودة المسيح إلى الأرض مشتركة في الاعتقاد لدى المسلمين ولدى النصارى.

تمّت بحمد الله

فهرس المؤلفين

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ العهد الجديد والمزامير، وقد ترجم عن اللغات الأصلية، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، لا.ت.

* * *

١ ـ د. إبراهيم إبراهيم هلال، حديث هرقل وكتاب رسول الله إليه، دار الصحوة، ط١، القاهرة ـ مصر، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٢ ـ إبراهيم زكي خورشيد، أحمد الشنتناوي، عبد الحميد يونس، دائرة المعارف الإسلامية، القاهرة ـ مصر، لا.ت.

٣ ـ ابن حجر العسقلاني، السيوطي، الإسراء والمعراج، تحقيق محمد عبد الحكيم القاضي، دار الحديث، القاهرة ـ مصر، لا.ت.

٤ ـ ابن حجر الهيتمي، القول المختصر في علامات المهدي المنتظر، تحقيق د. محمد زينهم محمد عزب، دار الصحوة للنشر، ط١، القاهرة ـ مصر، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م.

٥ ـ ابن حزم (أبو محمد علي بن حزم الأندلسي الظاهري ت٤٥٦هـ)، الفصل في الملل والأهواء والنحل وبهامشه كتاب الملل والنحل للإمام أبي الفتح عبد الكريم الشهرستاني، لا.ت. بدون ذكر بلد النشر.

٦ ـ ابن الخطيب، هذا هو الحق رد على مفتريات كاهن كنيسة، المطبعة المصرية، القاهرة ـ مصر، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

٧ ـ ابن قيم الجوزية (شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ٦٩١هـ ـ ٧٥١هـ)، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، لا.ت. بدون ذكر بلد النشر.

٨ ـ ابن كثير «أبو الفداء إسماعيل ت٧٧٤هـ»، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، ط٢، بيروت ـ لبنان، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

٩ ـ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مكتبة المنار، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

١٠ ـ ابن كثير، فتح القدير تهذيب تفسير ابن كثير، تحقيق محمد أحمد كنعان، دار لبنان، ط١، بيروت ـ لبنان، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

١١ ـ ابن المحرومة، حواشي ابن المحرومة على كتاب «تنقيح الأبحاث للملل الثلاث» لابن كمونة، تحقيق المطران حبيب باشا، التراث العربي المسيحي، ٦، مجموعة نصوص وأبحاث حول إنتاج الفكر العربي القديم، بإدارة المطران ناوفيطوس إدلبي وبالتعاون مع الأب سمير خليل اليسوعي، المكتبة البولسية، بيروت ـ لبنان، ١٩٨٤م.

١٢ ـ ابن ماجة، السنن، صحيح سنن ابن ماجة، محمد ناصر الدين الألباني، بتكليف من مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، توزيع المكتب الإسلامي، ط١، بيروت ـ لبنان، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م.

١٣ ـ ابن منظور «جمال الدين محمد بن مكرم»، لسان العرب، دار صادر ـ دار بيروت، بيروت ـ لبنان، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

١٤ ـ أبو حامد الغزالي، الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل، تحقيق د. محمد عبد الله الشرقاوي، دار الهداية، القاهرة ـ مصر، لا.ت.

١٥ ـ أبو البقاء صالح بن الحسين الجعفي (ت. في القرن السابع الهجري)، الرد على النصارى، تحقيق د. محمد محمد حسنين، دار التوفيق النموذجية، القاهرة ـ مصر، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م.

١٦ ـ أبو عبيدة الخزرجي (ت. ٥٥٢هـ)، بين الإسلام والمسيحية، تحقيق د. محمد شامة، مكتبة وهبة، عابدين ـ مصر، لا.ت.

١٧ ـ أبو الفضل عبد الله محمد الصديق الغماري الحسني، عقيدة أهل الإسلام في نزول عيسى عليه السلام، مكتبة القاهرة بالأزهر ـ مصر، لا.ت.

١٨ ـ أحمد بن حنبل (١٦٤ ـ ٢٤١هـ)، المسند، شرحه ووضع فهارسه أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة ـ مصر، ١٣٦٨هـ ـ ١٩٤٩م.

١٩ ـ د. أحمد حجازي السقا، حقيقة النصرانية من الكتب المقدسة، دار الفضيلة، القاهرة ـ مصر، لا.ت.

٢٠ ـ أحمد ديدات، مناظرتان في استكهولم بين داعية العصر أحمد ديدات وكبير قساوسة السويد استانلي شوبيرج، ترجمة علي الجوهري، دار الفضيلة، القاهرة ـ مصر، ١٩٩٢م.
٢١ ـ أحمد رضا، معجم متن اللغة، موسوعة لغوية حديثة، دار مكتبة الحياة، بيروت ـ لبنان، ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م.
٢٢ ـ الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، لا.ت.
٢٣ ـ البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري)، صحيح البخاري بحاشية السندي، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان، أعيد طبعه بالأوفست، ١٩٧٨م.
٢٤ ـ د. بطرس عبد الملك، د. جون الكسندر طومسن، إبراهيم مطر، قاموس الكتاب المقدس، قدم له د. فيليب حتي، صدر عن مجمع الكنائس في الشرق الأدنى، ط٢، ١٩٧١م.
٢٥ ـ البغوي الحسين بن مسعود الشافعي، مصابيح السنة، بإشراف إبراهيم محمد رمضان، دار القلم ـ بيروت، لا.ت.
٢٦ ـ الترمذي (أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة ت ٢٠٩هـ ـ ٢٩٧هـ)، الجامع الصحيح، تحقيق إبراهيم علوة عوض، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، لا.ت.
٢٧ ـ الترمذي، نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول، ويليه مرقاة الوصول حواشي نوادر الأصول، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة لصاحبها محمد النمنكاني، المملكة العربية السعودية، لا.ت.
٢٨ ـ ثاوذورس أبي قرة، ميمر في إكرام الأيقونات، حققه الأب د. أنماطيوس ديك، المكتبة البولسية، بيروت ـ لبنان، ١٩٨٦م.
٢٩ ـ الحاكم (أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالحاكم النيسابوري ت ٤٠٥هـ)، المستدرك على الصحيحين في الحديث، وفي ذيله تلخيص المستدرك، مكتبة ومطابع النصر الحديثة، الرياض ـ المملكة العربية السعودية، لا.ت.
٣٠ ـ رحمة الله الهندي (رحمة الله بن خليل الرحمٰن الكيرانوي الهندي)، إظهار الحق، تحقيق عمر الدسوقي، ج١، مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء ـ وزارة الشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، لا.ت.

٣١ ـ رحمة الله بن خليل الرحمٰن الكيرانوي الهندي، تحقيق عمر الدسوقي، عني بطبعه عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ـ لبنان، لا.ت.

٣٢ ـ الزمخشري (٤٦٧هـ ـ ٥٣٨م)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، مطبعة البابي الحلبي وأولاده، طبعة أخيرة، القاهرة ـ مصر، ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.

٣٣ ـ السخاوي (أبو الخير محمد بن عبد الرحمٰن بن عبد شمس السخاوي ت ٩٠٢هـ)، أشراط الساعة، تحقيق مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، بولاق، القاهرة ـ مصر، لا.ت.

٣٤ ـ سعيد أيوب، عقيدة المسيح الدجال في الأديان قراءة في المستقبل، دار الهادي، ط١، بيروت ـ لبنان، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

٣٥ ـ السموأل بن يحيى بن عباس المغربي (ت ٥٧٠هـ)، بذل المجهود في إفحام اليهود، تعليق عبد الوهاب طويلة، دار القلم دمشق ـ الدار الشامية، ط١، بيروت ـ لبنان، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

٣٦ ـ سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، ط١٠، بيروت ـ لبنان، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

٣٧ ـ سيد محمد عاشور، اليهود في عصر المسيح، دار القلم دمشق ـ الدار الشامية بيروت، ط١، بيروت ـ لبنان، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

٣٨ ـ سيف الله أحمد فاضل (محقق)، إنجيل برنابا ودراسات حول وحدة الدين عند موسى وعيسى ومحمد، دار القلم، ط١، الكويت، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

٣٩ ـ عبد الكريم الخطيب، المسيح في القرآن والتوراة والإنجيل، لا.ت.

٤٠ ـ عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، دار الكتب العلمية، ط٣، بيروت، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٤١ ـ د. عفيف البهنسي، الجامع الأموي الكبير أول روائع الفن الإسلامي، ط١، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٨٨م.

٤٢ ـ عفيف الدين أبو محمد عبد الله بن أسعد اليافعي اليمني، روض الرياحين في حكايات الصالحين الملقب بنزهة العيون النواظر وتحفة القلوب الحواضر في حكايات الصالحين، المكتبة التوفيقية، القاهرة ـ مصر، ١٩٨٩م.

٤٣ ـ القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي)، الجامع لأحكام القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٨٧م.
٤٤ ـ القرطبي، مختصر تفسير القرطبي، تحقيق محمد كريم راجح، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.
٤٥ ـ الكتاب المقدس أي كتب العهد القديم والعهد الجديد، وقد ترجم من اللغات الأصلية، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط. لا.ت.
٤٦ ـ مؤلف مجهول، الحق الذي يقود إلى الحياة الأبدية، ط١، لا.ت.
٤٧ ـ محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، تبحث في الأدوار التي مرت عليها عقائد النصارى وفي كتبهم وفي مجامعهم المقدسة وفرقهم، مطبعة يوسف، ط٣، ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٦م.
٤٨ ـ محمد بن خليل هراس، فصل المقال في نزول عيسى وقتله الدجال، تحقيق أبي الفداء السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم الأثري، مكتبة السنة، ط٢، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.
٤٩ ـ محمد بن رسول الحسيني البرزنجي، الإشاعة لأشراط الساعة، الطبعة الأخيرة، مكتبة مطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، لا.ت.
٥٠ ـ د. محمد تقي الدين الهلالي، البراهين الإنجيلية على أن عيسى عليه السلام داخل في العبودية ولا حظ له في الألوهية، مطابع دار الثقافة، مكة ـ الزاهر، المملكة العربية السعودية، ١٣٩٣هـ.
٥١ ـ محمد رشيد رضا، عقيدة الصلب والفداء، الفتح للإعلام العربي، القاهرة، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.
٥٢ ـ محمد صديق حسن القنوجي، الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة، مكتبة الثقافة، المدينة المنورة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.
٥٣ ـ د. محمد عبد الله الشرقاوي (محقق)، رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين وجواب القاضي أبي الوليد الباجي عليها، القاهرة، ١٤١٤هـ.
٥٤ ـ محمد عزت الطهطاوي، الميزان الحق في مقارنة الأديان حقائق ووثائق، دار القلم دمشق ـ الدار الشامية بيروت، دمشق ـ سورية/ بيروت ـ لبنان، لا.ت.
٥٥ ـ محمد فارس بركات، المرشد إلى آيات القرآن الكريم وكلماته، دمشق، المطبعة الهاشمية، ١٩٥٧م.

٥٦ ـ محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الأندلس، بيروت، لا.ت.

٥٧ ـ د. محمد المخزنجي، بولندا: عروس البلطيق الحائرة، مجلة العربي، العدد ٤٣١، الكويت، أكتوبر ١٩٩٤م.

٥٨ ـ د. محمد وصفي، المسيح بين الحقائق والأوهام، مراجعة وتقديم علي الجوهري، دار الفضيلة، القاهرة، لا.ت.

٥٩ ـ المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ت ٣٤٦هـ)، أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران، ط٢، دار الأندلس، بيروت، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م.

٦٠ ـ مسلم (بن الحجاج القشيري النيسابوري)، مختصر صحيح مسلم، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، ط٣، المكتب الإسلامي، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

٦١ ـ د. ممدوح جاد، المسيح في الإنجيل بشر، ١٩٩٣م، بدون ذكر بلد النشر.

٦٢ ـ ول ديورانت، قصة الحضارة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، الشرق الأدنى، اختارته وأنفقت على ترجمته الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، ط٣، ١٩٦١م.

٦٣ ـ يوسف بن إسماعيل النبهاني، علامات قيام الساعة الصغرى والكبرى، بعناية بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم، ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

٦٤ ـ يوسف بن عبد العزيز السلمي، عقد الدرر في أخبار المنتظر، تحقيق د. عبد الفتاح محمد الحلو، عالم الفكر، ط١، القاهرة، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

٦٥ ـ يوسف الحداد، مدخل إلى الحوار الإسلامي المسيحي في سبيل الحوار الإسلامي المسيحي، منشورات المكتبة البولسية، ط٢، ١٩٨٦م.

٦٦ ـ يوسف الحداد، القرآن دعوة نصرانية، في سبيل الحوار الإسلامي المسيحي، منشورات المكتبة البولسية، ط٢، ١٩٨٦م.

فهرس المحتويات